الاقتصاد العجيب

اقتصادي مارق يبحث في الجانب الخفي من كل شيء

«كن مستعداً للانبهار»

مالكوم غلادويل

من أكثر الكتب مبيعاً حسب صحيفة نيويورك تايمز

ستيفن د. ليفيت

ستيفن ج. دوبنر

نقله إلى العربية

محمد شريف الطرح





الاقتصاد العجيب

اقتصادي مارق يبحث في الجانب الخفي من كل شيء

ستيفن د. ليفيت

ستيفن ج. دوبنر

نقله إلى العربية

محمد شريف الطرح





Original Title:

HIJACKING CATASTROPHE

9/11, Fear and the Selling of American Empire

By: sut Jhally and Jeremy Earp

foreword by Howard Zinn

ISBN 1 - 56656 - 581 - 2

ISBN 2 - 393 - 54 - 9960 - 978

الطبعة العربية الأولى **1429هـ _ 2008م**

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574 / 2937581، فاكس: 2937588 ص . ب: 67622 الرياض 11517

© مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

دليفيت، ستيفن

الاقتصاد العجيب. / ستيفن دليفيت؛ محمد شريف الطرح. - الرياض 1429هـ

262 ص؛ 16,5×24 سم

ردمك: 2 - 393 - 54 - 9960 - 978

1 ـ الاقتصاد 2- النظم الاقتصادي أ. محمد شريف (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 330,1 1429 / 104

ردمك: 2 - 393 - 54 - 9960 - 978 رقم الإيداع: 104 / 1429

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر العبيكان ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المؤسسة؟

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص . ب: 62807 الرياض 11595

المحتويات

مذكرة إيضاحية

توقف أذكى اقتصادي شاب في أمريكا ـ وقد اعتبرته كذلك هيئة يكبره أعضاؤها سناً ـ عند الإشارة الضوئية في الجانب الجنوبي من شيكاغو، وكان اليوم صيفياً مشمساً في منتصف حزيران، وقد كان يقود سيارة خضراء قديمة من نوع تشيفي كافاليير، يغطي الغبار مقدمتها، وكانت نافذتها لا تغلق تماماً، كما كانت تصدر أزيزاً، وهي تسير على الطرقات السريعة.

لكن السيارة هادئة الآن، وكذلك كانت الشوارع عند الظهيرة: محطات الوقود، وإسمنت بلا حدود، وأبنية من القرميد ذات نوافذ مصنوعة من شجر السرو.

يقترب رجل مسن لا مأوى له. وتقول اللوحة التي يحملها: إنه من دون مأوى ويطلب مالاً أيضاً. إنه يلبس سترة ممزقة، وهي ثقيلة جداً بالنسبة ليوم دافىء، ويلبس أيضاً قبعة حمراء خاصة بكرة القاعدة.

لم يقفل الاقتصادي أبواب سيارته ولم يحركها إلى الأمام قليلاً. ولم يبحث عن نقود زائدة. لكنه كان يراقب فقط، كما لوكان ينظر من خلال زجاج يُرى من طرف واحد، وبعد لحظة تابع المتشرد طريقه.

يقول الاقتصادي: «إن لديه سماعات رأسية جيدة»، وهو ينظر في مرآة الرؤية الخلفية. «حسناً، إنها أجود من السماعات التي أملكها. وإلا فإنه لايبدو أن لديه أملاكاً كثيرة».

يميل ستيفن ليفيت إلى رؤية الأشياء بصورة مختلفة عما يراه الإنسان العادي، وبصورة تختلف عما يراه الاقتصادي العادي. وهذا إما لأنه موهبة رائعة أو لأنه موهبة مزعجة، ويعتمد ذلك على ما تشعر به حيال رجال الاقتصاد.

مجلة نيويورك تايمز، 3 آب 2003

أرسلت مجلة نيويورك تايمز في صيف عام 2003 ستيفن ج دوبنر، وهوالكاتب والصحفي، ليكتب وصفاً لستيفن د ليفيت، وهو اقتصادي شاب وشجاع في جامعة شيكاغو.

ووجد دوبنر، وهو يبحث في كتاب حول سيكولوجية المال، و يقابل عدداً من الاقتصاديين، أنهم غالباً ما يتكلمون اللغة الإنكليزية كما لو أنها كانت اللغة الرابعة أو الخامسة. وكان ليفيت، الذي حصل على ميدالية جون بيتس كلارك (التي تمنح كل سنتين إلى أفضل اقتصادي أمريكي لم يتجاوز الأربعين من العمر) قد قابله عدد كبير من الصحفيين ووجد أن تفكيرهم لم يكن.. قوياً جداً، كما قد يقول الاقتصادي.

لكن ليفيت قرر أن دوبنر لم يكن أحمق بالكامل. ووجد دوبنر أن ليفيت لم يكن أداة قياس إنسانية. لكن قدرة الاقتصادي على الابتكار ولباقته في الشرح أدهشت الكاتب. وعلى الرغم من وثائق اعتماده المتفوقة (دراسة جامعية في جامعة هارفارد، وشهادة دكتوراه من معهد MIT وكومة كبيرة من الجوائز)، عالج الاقتصادي بطريقة غير عادية أبداً. وبدا أنه ينظر إلى الأشياء ليس كرجل أكاديمي ولكن كمستكشف فضولي وذكي جداً ـ صانع أفلام وثائقية، وربما محقق شرعي أو محب للكتب التي تتراوح من الرياضة إلى الجريمة وإلى ثقافة البوب (Pop). وأظهر اهتماماً قليلاً بالموضوعات المالية التي تخطر بالذهن عند التفكير بالاقتصاد؛ وربما تفاخر باعتزاله الناس. فقال لدوبنر عند إحدى النقاط وهو يزيل شعرة من عينه: «إنني لا أعرف عن المقاييس الاقتصادية، ولا أعرف كيف تصنع النظرية. وإن سألتني عن سوق المال، هل ستهبط أم سترتفع، وإن سألتني إن كان الاقتصاد سوف ينمو أم سيتقلص، وإن سألتني إن كان انخفاض التضخم جيداً أم رديئاً، وإن سألتني عن الضرائب ـ أقصد أنه سيكون من الزيف لو قلت: إنني أعرف كل شيء عن تلك الأشياء».

إن المادة والأحاجي الموجودة في الحياة اليومية أهم ما يثير اهتمام ليفيت. فكانت تحقيقاته عملاً عظيماً لكل شخص يريد أن يعرف كيف يسير هذا العالم فعلاً. وكان موقفه الفريد قد أثار لدى دوبنر المقالة الناجمة عن ذلك:

إن الاقتصاد، كما يراه ليفيت، علم ذو أدوات ممتازة للحصول على إجابات، لكن فيه نقصاً خطيراً بالأسئلة المثيرة للاهتمام. والموهبة الخاصة هي القدرة على طرح مثل هذه الأسئلة. على سبيل المثال، إذا كان تجار المخدرات يجمعون أموالاً كثيرة، فلماذا لا يزالون يعيشون مع أمهاتهم؟ وأيهما أخطر: المسدس أم حوض السباحة؟ وما هوالسبب الحقيقي الذي خفض معدل الجريمة في العقد الماضي؟ وهل يضع الوسطاء العقاريون مصلحة زبائنهم أولاً؟ ولماذا يسمي الآباء السود أولادهم أسماء قد تؤذي فرص عملهم؟ وهل يغش معلمو المدارس لمواجهة المعايير الامتحانية العالية؟ وهل مصارعة السومو فاسدة؟ وكيف يدفع شخص متشرد في ثياب مهترئة خمسين دولاراً ثمناً لسماعات رأسية؟

قد لا يعترف كثير من الناس ـ بمن فيهم عدد كبير من زملائه ـ بأن عمل ليفيت هوعمل في علم الاقتصاد مطلقاً. لكنه قام بتقطير ما يسمى بالعلم الكئيب للوصول إلى هدفه الأولي: وهو تفسير الكيفية التي يحصل بها الناس على ما يريدون. وخلافاً لمعظم الأكاديميين، إنه لايخشى استخدام الملاحظات الشخصية أوالفضول الشخصي، ولايخشى القصص وسردها أيضاً، (لكنه يخشى التفاضل والتكامل). إنه شخص حدسي. فهو يغربل أكوام المعطيات؛ ليجد قصة جديدة لم يجدها أحد من قبل. ويختلق طريقة لقياس نتيجة ما أعلن عنها الاقتصاديون المحترفون بأنها لا تقبل القياس. إن اهتماماته الملازمة له ـ على الرغم من أنه يقول: إنه لم يبحث بها شخصياً ـ هي الغش والفساد والجريمة.

لقد ثبت أن فضول ليفيت الحاد جذاب بالنسبة لآلاف من قراء مجلة نيويورك تايمز. ولقد أحاطت به الأسئلة والاستفسارات والأحاجي وطلبات من شركة جنرال موتورز، وجمعية اليانكي في نيويورك، وأعضاء من مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة، وكذلك من السجناء والآباء ومن رجل احتفظ على مدى عشرين عاماً بمعطيات دقيقة عن مبيعاته من نوع معين من الخبز (الباغيل). وقام بطل سابق في التجول في أرجاء فرنسا بدعوة ليفيت ليقدم له العون؛ لأن الجولة الحالية حافلة بالمنشطات؛ وأرادت وكالة الاستخبارات الأمريكية أن تعرف كيف يمكن أن يستخدم ليفيت المعطيات لاعتقال غاسلي الأموال والإرهابيين.

والذي جعل الجميع يستجيبون له هو قوة اعتقاد ليفيت الخفي: إن العالم الحديث، على الرغم من شدة الغموض والتعقيد والخداع البحت ممكنٌ اختراقه ومعرفته ممكنة ـ إذا ما سئلت الأسئلة الصحيحة ـ بل إنه أكثر غموضاً مما نعتقد. وكل ما يحتاجه هو طريقة جديرة بالنظر.

في مدينة نيويورك، كان الناشرون يطلبون من ليفيت أن يكتب كتاباً. فقال: «أكتب كتاباً. لا أريد أن أكتب كتاباً». فكان لديه مليون أحجية ينبغي أن يحلها، وهي أكثر من الوقت المطلوب لحلها. ولم يكن ينظر إلى نفسه على أنه كاتب جيد. لذلك قال: «كلا» إنه غير مكترث ـ واقترح، «إلا إذا استطعنا (دوبنر وأنا) أن نعمل معاً».

ولكن التعاون ليس لجميع الناس. لكن الاثنين ـ وصارا يعرفان نحن الاثنان ـ قررا أن يناقشا الأشياء مراراً؛ ليريا إن كان مثل هذا الكتاب أمراً يمكن أن ينجح. وقررنا أننا يمكن أن ينجح. ونأمل في أنكم توافقون على ذلك.

أجريت مقابلة لليفيت في جمعية الزملاء، نادي المفكرين المحترمين في هارفارد، ويدفع هذا النادي للباحثين من الشباب؛ ليقوموا بأبحاثهم لمدة ثلاث سنوات من دون أي التزامات. وشعر ليفيت أنه لا يستطيع مقاومة هذه الفرصة. ولم يعتبر نفسه عالماً في البداية.

وكانت هذه المقابلة على العشاء، ويقوم بها زملاؤه الذين يكبرونه سناً، وهم مجموعة من الفلاسفة والعلماء والمؤرخين المشهورين في العالم. وكان قلقه أنه ليس لديه ما يقوله حتى تدوم الجولة الأولى من المحادثة.

وبصورة غير مطمئنة قال أحد الزملاء الكبار له: «إنني عانيت زمناً طويلاً وأنا أبحث عن الفكرة الموحدة في عملك، فهل تشرح لي ما هي»؟

شعر ليفيت بحرج، إذ لم تكن لديه فكرة عن الفكرة الموحدة أو إن كانت لديه هذه الفكرة الموحدة.

تدخل آمارتيا سين، الذي سيفوز بجائزة نوبل في الاقتصاد فيما بعد، ولخص تلخيصاً أنيقاً ما وجده كفكرة موحدة عند ليفيت.

فقال ليفيت: نعم هذه هي فكرتي.

وعرض زميل آخر فكرة أخرى.

فقال ليفيت: أنت على حق، فهذه فكرتي.

وجرى الأمر على هذا المنوال، مثل كلب يشد قطعة عظم بقوة، إلى أن قاطعهم الفيلسوف روبرت نوزيك: «كم هو عمرك، يا ستيف»؟.

ـ ست وعشرون سنة.

فالتفت نوزيك إلى الزملاء الآخرين، قائلاً: «إنه في السادسة والعشرين من العمر، فلماذا يحتاج إلى فكرة موحدة؟ فربما سيكون من أولئك الناس الموهوبين، فلا يحتاج إلى فكرة موحدة. فإنه سيأخذ سؤالاً ويجيب عنه، وسيكون ذلك رائعاً.

مجلة نيويورك تايمز 3 آب 2003

المقدمة

الجانب الخفي
من كل شيء

من كان يعيش في الولايات المتحدة في أوائل سنوات التسعينيات من القرن الماضي ويصغي إلى النشرة الإخبارية المسائية أو يهتم بالجريدة اليومية، ما كان ليؤاخذ لو شعر بخوف يخرجه من جلده.

والسبب هو الجريمة. فقد كانت الجريمة تزداد باطراد دون هوادة ـ ويبدو الخط البياني لمعدلات الجريمة في أي مدينة أمريكية في العقود الأخيرة مثل سهم ينطلق إلى السماء ـ وكان يبدو أنه النذير بنهاية العالم الذي عرفناه. فأصبح الموت بإطلاق النار المتعمد وغيره أمراً عادياً. وكذلك أصبحت سرقة السيارة والمتاجرة بالمخدرات. وكان كل شيء يزداد سوءاً ليصبح أكثر سوءاً. وكان الخبراء جميعاً يقولون ذلك.

والسبب هو ما يعرف بالوحش الكبير. وكان هذا الوحش في كل مكان في مدة من الزمن. ويبدأ من غلاف المجلات الأسبوعية، ويختال عبر التقارير الحكومية السميكة. فقد كان المارق الهزيل في المدينة الكبيرة يحمل مسدساً رخيصاً بيده ولا شيء في قلبه سوى القسوة. وكان هناك الألوف من أمثاله، كما علمنا، جيل من القتلة على وشك أن يحيلوا البلاد إلى فوضى شديدة.

كتب عالم الجريمة، جيمس آلان فوكس، في سنة 1995 تقريراً إلى النائب العام في الولايات المتحدة حول تلك النقطة المؤلمة بالتفصيل، أي حول جرائم القتل التي يرتكبها المراهقون. وأشار فوكس إلى الحوارات المتفائلة والحوارات المتشائمة. ففي اعتقاده أن نسبة الانتحار في الحوارات المتفائلة قد ترتفع أيضاً

بمقدار 15٪ خلال العقد الآتي؛ وأما في الحوار المتشائم فقد تتضاعف تلك النسبة. وقال: «سوف تكون موجة الجريمة الآتية سيئة، وإنها ستجعل سنة 1995 تبدو مثل الأيام الماضية».

ووصف علماء الجريمة الآخرون وعلماء السياسة والمتنبئون من المثقفين المستقبل المرعب ذاته، كما فعل الرئيس كلينتون، حين قال: «لقد احتجنا إلى ست سنوات لنقلب موضوع الجريمة هذا، ولولا ذلك لكان بلدنا سيعيش في فوضى. ولن يلقي من سيخلفني الخطابات حول الفرص الرائعة في الاقتصاد العالمي؛ بل سيحاولون جمع الروح والجسم معاً بالنسبة للناس في شوارع هذه المدن». كانت الأموال الذكية بكل بساطة مع المجرمين.

وبعد ذلك بدلاً من أن يرتفع معدل الجريمة ويرتفع، بدأ بالانخفاض، وراح ينخفض أكثر فأكثر. وكان انخفاض معدل الجريمة مدهشاً من بضع نواح، فكان شاملاً، فراح كل نوع من أنواع الجريمة ينخفض في كل جزء من أجزاء البلاد. وكان مستمراً، إذ يتناقص بصورة كبيرة سنة بعد سنة. وكان غير متوقع أبداً من قبل أولئك الخبراء الذين توقعوا عكس الذي حصل.

لقد كان العكس الضخم مدهشاً. فبدلاً من أن يرتفع معدل جرائم المراهقين بنسبة 100٪ أو حتى 50٪ كما توقع جيمس آلان فوكس، انخفض بنسبة تزيد عن 50٪ خلال خمس سنوات. ففي سنة 2000 هبط معدل الجريمة في الولايات المتحدة إلى أخفض مستوى خلال خمس وثلاثين سنة. وكذلك هبط المعدل في أنواع الجرائم كلها، من جريمة المهاجمة إلى سرقة السيارات.

وعلى الرغم من فشل توقعات الخبراء حول انخفاض الجريمة ــ وكان فشلاً ذريعاً فقد كانت توقعاتهم مرعبة ــ فهم يسارعون الآن لشرحه وتفسيره. وكانت نظرياتهم بمعظمها منطقية تماماً، فكان اقتصاد سنوات التسعينيات الصارخ هو، كما قالوا، الذي ساعد في إيقاف الجريمة. وكانت قوانين ضبط ومراقبة السلاح. وكانت إستراتيجيات جديدة للشرطة قد نفذت في مدينة نيويورك، حيث هبط عدد جرائم القتل من 2245 جريمة في سنة 1990 إلى 596 جريمة في سنة 2003.

لم تكن هذه نظريات فقط، فقد كانت مشجعة؛ لأنها عزت انخفاض عدد الجرائم إلى مبادرات إنسانية حديثة ومحددة. فإن كان ضبط السلاح أو إستراتيجيات شرطية ذكية أو أعمال ذات أجور مرتفعة هي الأسباب التي قمعت الجريمة ـ حسناً إذن، لقد كانت القوة لإيقاف المجرمين بمتناول اليد طوال الوقت. فإن الجريمة ستكون في المرة القادمة -لا سمح الله- سيئة جداً.

وقد اتخذت هذه النظريات طريقها من أفواه الخبراء، كما يبدو من دون أي سؤال، إلى آذان الصحفيين، وإلى أذهان الناس عامة. وخلال مدة قصيرة أصبحت حكمة تقليدية.

هناك مشكلة واحدة فقط: وهي أنها لم تكن صحيحة.

كان هناك عامل آخر أسهم إسهاماً كبيراً في انخفاض معدل الجريمة، ذلك الانخفاض الضخم في سنوات التسعينيات. وكان قد تشكل قبل أكثر من عشرين سنة وكان متعلقاً بشابة من دالاس تدعى نورما ماك كورفي.

وكمثال الفراشة التي تصفق بجناحيها في قارة ما، فتسبب في آخر الأمر إعصاراً في قارة أخرى. فقد غيرت نورما ماك كورفي مجرى الأحداث عن غير قصد منها. فقد كان كل ما تريده هو الإجهاض.. كانت فتاة فقيرة وغير متعلمة وليست ماهرة بشيء، وكانت مدمنة على المشروبات الكحولية وتستعمل المخدرات، وعمرها إحدى وعشرون سنة، وقد أنجبت حتى الآن طفلين وتخلت عنهما للتبني. ووجدت نفسها الآن ـ في سنة 1970 ـ حاملاً مرة أخرى. ولكن في تكساس كما في الولايات المتحدة كلها ـ إلا القليل منها ـ كان الإجهاض عملاً مخالفاً للقانون. وتبنى قضية ماك كورفي أناس أقوى منها كثيراً. وقد جعلوا منها المدعية الرئيسة في قضية دعوى جماعية تسعى لجعل الإجهاض عملاً قانونياً. وكان ممثل الدفاع هنري ويد، وهومحامي مقاطعة دالاس. وفي نهاية المطاف، قدمت القضية إلى المحكمة العليا في الولايات المتحدة، وكان اسم ماك كورفي في تلك الأيام قد أخفي تحت اسم مستعار (جين رو). وفي 22 كانون الثاني من

سنة 1973، حكمت المحكمة لصالح السيدة رو، وبذلك سمحت بجعل الإجهاض عملاً قانونياً في جميع أنحاء البلاد. وكان الوقت متأخراً طبعاً بالنسبة لماك كورفي أو (رو) لتقوم بعملية إجهاض. فقد أنجبت طفلها قبل ذلك وتخلت عنه للتبني. (وبعد سنوات تخلت عن تأييدها للإجهاض القانوني. وأصبحت ناشطة في مجال الحفاظ على الحياة).

إذن، كيف أثارت (رو و ويد) بعد جيل أضخم انخفاض في الجريمة في التاريخ؟

وفيما يتعلق بالجريمة، تبين أن الأطفال غير متساوين، بل ولايقتربون من المساواة. فقد أظهرت الدراسات على مر عقود من الزمن أن الطفل المولود في بيئة عائلية معاكسة، من المحتمل جداً أن يصبح مجرماً أكثر من غيره من الأطفال. كما تبين أن ملايين النساء اللواتي يحتمل أنهن يحققن الإجهاض في أعقاب قضية «رو» و«ويد» ـ وهن نسوة فقيرات وغير متزوجات وأمهات مراهقات وكان الإجهاض بالنسبة لهن مكلفاً جداً أو كان صعب المنال ـ كانت نماذج من هذه النكبة. وهؤلاء النساء اللواتي يحتمل أن يتحول أولادهن إلى مجرمين إذا لم يولدوا، إلى أن يصبحوا مجرمين أكثر من المجرمين العاديين. ولكن بسبب قضية «رو» و«ويد» لم يولد هؤلاء الأطفال. وكان هذا السبب القوي ذا تأثير جذري وبعيد: فبعد سنوات بدأ معدل الجريمة يتهاوى؛ لأن هؤلاء الأطفال لم يولدوا ولم يدخلوا عالم الجريمة.

لم يكن ضبط السلاح ولا الاقتصاد القوي ولا الإستراتيجيات الشرطية الجديدة هي التي قلصت في النهاية موجة الجريمة الأمريكية. لقد كانت، من بين عوامل أخرى، الحقيقة بأن مجموعة المجرمين المتوقعين قد تقلصت تقلصاً درامياً.

والآن، وبعد أن أحال خبراء انخفاض الجريمة (وهم القائلون بالقدر سابقاً) نظرياتهم إلى وسائل الإعلام، كم مرة جعلوا الإجهاض القانوني السبب في ذلك؟

الجواب: صفر.

إنها خلطة أساسية من التجارة والصداقة الحميمة: فأنت تستأجر وسيطاً عقارياً لتبيع بيتك، فيقوم الوسيط بقياس جماليات البيت ويلتقط بعض الصور ويحدد السعر ويكتب إعلاناً مغرياً، ويظهر البيت بقوة ويناقش عروض الأسعار ويرى الصفقة حتى نهايتها، وهذا بالطبع عمل كثير. لكنه يستطيع تفصيل العمل تفصيلاً حسناً. فعند بيع بيت تصل قيمته إلى 300.000 دولار، هناك 6٪ أجور الوسيط وبذلك تكون الأجرة 18.000 دولار، فأنت تقول في سرك: إنه مبلغ كبير. ولكنك تقول في سرك أيضاً: إنك ما كنت تستطيع أن تبيع البيت وحدك مقابل 300.000 دولار. فالوسيط يعرف الطريقة، وما هي العبارة التي استعملها؟ أي الوصول لـ «وضع أفضل سعر للبيت». فقد أحصل على أعلى قيمة له بالدولار، أليس هذا صحيحاً؟

أجل..

إن الوسيط العقاري نوع آخر من الخبرات في عالم الجريمة، فهو خبير بكل نقطة. أي، إنه يعرف ميدانه أفضل كثيراً من الشخص العادي الذي يعمل من أجله. فهو يعرف ما يتعلق بقيمة البيت بصورة أفضل، كما يعرف أحوال سوق العقارات، ويعرف حتى الإطار الذهني للمشتري. وأنت تعتمد عليه بسبب هذه المعلومات. وهذا في الواقع هو السبب الذي جعلك تستأجر الخبير.

وكما أن العالم أصبح أكثر تخصصاً، فإن أمثال هؤلاء الخبراء، الذين لا يحصى عددهم، جعلوا من أنفسهم ضرورة لا يمكن الاستغناء عنهم. فالأطباء والمحامون والمقاولون ووسطاء أسواق الأسهم وميكانيكيو السيارات ووسطاء القروض والمخططون الماليون يتمتعون جميعاً بميزة معلوماتية ضخمة. ويستعملون تلك الميزة لمساعدتك (أي الشخص الذي استأجرهم) كي تحصل على ما تريد تماماً بأفضل سعر.

هل هذا صح؟

من الجميل أن تعتقد ذلك. لكن هؤلاء الخبراء بشر، والبشر يستجيبون للحوافز. لذلك فإن الكيفية التي يعاملك بها أي خبير تعتمد على كيفية تحديد حوافز ذلك الخبير. فقد تعمل هذه الحوافز لصالحك أحياناً. فعلى سبيل المثال، وجدت دراسة أجريت على ميكانيكيي السيارات في كاليفورنيا. فهم غالباً ما يمررون فواتير إصلاح صغيرة، وهذا ما يجعل السيارات تفشل في اختبارات طرد الغازات ـ والسبب هو أن هؤلاء الميكانيكيين المتساهلين يحصلون على مكافأتهم من العمل المتكرر. وفي حالة مختلفة، تبين أن الأطباء النسائيين في منطقة تنخفض فيها معدلات الولادة، يفضلون إجراء العملية القيصرية في الولادة أكثر من أطباء المناطق التي تزداد فيها معدلات الولادة ـ وهذا يشير إلى أن الأطباء يقومون بالإجراء الأغلى، عندما تكون أحوال العمل صعبة.

إن التفكير في استغلال الخبراء لمراكزهم شيء، وإثبات ذلك شيء آخر. وإن أفضل طريقة لإثبات ذلك تكون في قياس الطريقة التي يعاملك بها الخبير مقابل الطريقة التي ينفذ بها العمل على نفسه. ومن سوء الحظ أن الجراح لا يجري الجراحة على نفسه، ولا يكون ملفه الطبي موضوعاً للتسجيل العام؛ وينطبق هذا على الميكانيكي الذي يصلح سيارته.

لكن مبيعات الوسطاء العقاريين موضوع للتسجيل العام. ويقوم الوسطاء التجاريون غالباً ببيع بيوتهم. وتغطي معطيات حديثة بيع ما يقرب من 100000 بيت في ضواحي شيكاغو، وتظهر أن أكثر من 30000 بيت من هذه البيوت كان يملكها الوسطاء أنفسهم.

وقبل التعمق بهذه المعطيات، من المفيد أن يطرح السؤال: ما هو حافز الوسيط العقاري عندما يبيع بيته الخاص به؟ الأمر بسيط: عقد أفضل صفقة ممكنة. وربما يكون هذا حافزك أيضاً عندما تبيع بيتك. وهكذا يبدو أن الحافز بالنسبة لك، وبالنسبة للوسيط العقاري هو على نسق واحد. وفي نهاية الأمر تتحدد عمولته على أساس سعر البيع.

ولكن وكما تسير الحوافز، فإن العمولات دقيقة وخداعة. فأولاً وقبل كل شيء، تتقسم عمولة الوسيط العادية التي تبلغ 6٪ بين وسيط البائع ووسيط المشتري. ويعيد كل وسيط نصف ما يأخذه إلى الوكالة. وهذا يعني أن 1.5٪ من سعر الشراء تذهب مباشرة إلى جيب وسيطك العقاري.

وهكذا، عند بيع بيتك لقاء 300000 دولار، يأخذ الوسيط مبلغ 4500 دولار من قيمة العمولة البالغة 18000 دولار، وهو مبلغ غير سيء. ولكن ماذا لو كانت قيمة البيت تصل إلى أكثر من 300000 دولار؟ وماذا لو بذل الوسيط جهداً أكثر قليلاً وصبر قليلاً و وضع إعلاناً إضافياً واستطاع بيع البيت لقاء مبلغ 310000 دولار؟ فإنك تضع في جيبك مبلغاً إضافياً مقداره 9600 دولار بعد اقتطاع العمولة. لكن نصيب الوسيط من هذه الإضافة سيكون 1.5٪ من 10000 دولار ـ أي مجرد 150 دولاراً. فأنت تكسب 9400 دولار، بينما هو يكسب 150 دولاراً، وبهذا تكون حوافزك لا تتوازى مع حوافزه بعد كل شيء. (لاسيما إن كان الوسيط هو الذي يدفع أثمان الإعلانات ويقوم بكل الأعمال لقاء 150 دولاراً فقط).

توجد طريقة واحدة لاكتشاف الفرق: قم بقياس الفرق بين معطيات المبيعات للبيوت التي تخص الوسطاء العقاريين أنفسهم، والبيوت التي يبيعونها بالنيابة عن الزبائن. وباستخدام المعطيات من مبيعات تلك البيوت البالغة 100000 بيت في ضواحي شيكاغو، وبعد ضبط عدد المتغيرات ـ موقع البيت وعمره وجودته وجماله... إلخ ـ يتبين أن الوسيط العقاري يحتفظ ببيته في السوق مدة عشرة أيام وسطياً أكثر من بيت الزبون، ويبيعه بزيادة وسطية تبلغ 3٪، أو100000 دولار إضافية على البيت ذي القيمة 300000 دولار. عندما يبيع الوسيط العقاري بيته فإنه يتمسك بأفضل عرض للسعر؛ وعندما يبيع بيتك فإنه يدفعك لقبول أول عرض معقول. وهو مثل وسيط الأسهم الذي يعجل العمولات، فإنه يريد عقد الصفقات وجعلها سريعة. ولم لا؟ فإن حصته من العرض الأفضل مجرد 150 دولاراً إضافية، فالحافز صغير جداً ولا يشجع على فعل غير ذلك.

من هذه الحقائق البدهية المتعلقة بالسياسة كلها، تبقى واحدة منها حقيقية أكثر من البقية: المال يشتري الانتخابات. آرنولد شوازينبرغر ومايكل بلومبيرغ وجون كورزين، وهؤلاء مجرد أمثلة حديثة ودرامية قليلة عن الحقيقة البدهية وهي تقوم بعملها. (ولنهمل للحظة واحدة الأمثلة المعاكسة هوارد دين، وستيف فوربيس، ومليكل هافنغتون، ولاسيما كوليسانو الذي أنفق 93 مليون دولار من ماله الخاص على ثلاثة انتخابات متتالية خاصة بحاكم ولاية نيويورك، وحصل على 4٪ و8٪ و14٪ من الأصوات على التوالي). ويوافق معظم الناس على أن للمال تأثيراً كبيراً في الانتخابات وأن الكثير من المال ينفق على الحملات السياسية.

وبالفعل تشير معطيات الانتخابات إلى أن المرشح الذي ينفق على الحملة أكثر يفوز بالانتخابات. ولكن هل المال هو سبب الفوز؟

قد يبدو مثل هذا التفكير تفكيراً منطقياً، وهذا مطابق تماماً للتفكير بأن الازدهار الاقتصادي في سنوات التسعينيات ساعد في تخفيض الجريمة، ولكن لايكفي أن يكون ارتباط شيئين سبباً لأن يكون الواحد منهما هو المسبب للآخر. إن الارتباط (أوالتلازم) يعني بكل بساطة أن هناك علاقة بين العاملين ـ وليكن أحدهما (س) والثاني (ع) ـ لكن ذلك لا يقول شيئاً حول اتجاه تلك العلاقة. فمن الممكن أن (س) يسبب (ع)؛ ومن الممكن أيضاً أن (ع) يسبب (س)؛ وقد يكون العاملان (س) و(ع) يسببهما عامل آخر هو (ص).

فكّر بهذا الارتباط (أوالتلازم): المدن حيث الجرائم الكثيرة فيها رجال الشرطة بأعداد كبيرة. وفكر الآن بالارتباط بين رجال الشرطة والجريمة في مدينتين حقيقيتين: دنفر، وواشنطن، فيهما عدد السكان نفسه تقريباً، ولكن يبلغ عدد رجال الشرطة في واشنطن ثلاثة أمثال عددهم في دنفر، ويبلغ عدد الجرائم فيها ثمانية أمثال جرائم القتل في دنفر. ولكن ما لم يكن لديك معلومات أكثر، يصعب عليك القول: ما الذي يسبب ماذا؟ ومن لايعرف معرفة أفضل، فقد يفكر في هذه الأرقام ويتوصل إلى الاستنتاج بأن هذه الأعداد الإضافية من

رجال الشرطة في واشنطن هي التي تسبب جرائم القتل الإضافية. إن مثل هذا التفكير ذو تاريخ طويل، ويثير استجابات بهذه الطريقة. فكر بالقصة الشعبية حول القيصر الذي علم أن المقاطعة التي فيها معظم الأمراض في إمبراطوريته كانت المقاطعة التي فيها معظم الأطباء. ماذا كان الحل عنده؟ أمر بإعدام الأطباء رمياً بالرصاص على عجل.

والآن عودة إلى موضوع الإنفاق على الحملات: كي نجد العلاقة بين المال والانتخابات، من المفيد التفكير بالحوافز، وهي تلعب دوراً في تمويل الحملات. ولنقل: إنك من الأشخاص الذين قد يساهمون بألف دولار لصالح مرشح ما. إن القصة هي أنك تعطي المال في حالة أو في حالتين: سباق قريب من حيث تعتقد أن المال سوف يؤثر في النتيجة، أوحملة يكون فيها أحد المرشحين متأكداً من الفوز وتود أن تنعم بالفوز المنعكس أو أن تتلقى بعضاً من الاعتبار في المستقبل. والمرشح الذي لاتريد أن تساهم معه هو الخاسر حتماً. (فقط اسأل أي مرشح يأمل في الفوز بالرئاسة وفشل في آيوا ونيوهامبشاير). لذا فإن منافسي المقدمة وأصحاب المناصب يجمعون مالاً أكثر مما يجمعه أولئك الذين يحتمل أن يفوزوا. فماذا بشأن إنفاق كل ذلك المال؟ من الواضح أن المتنافسين من أصحاب المناصب لديهم مال أكثر، لكنهم ينفقون الكثير منه فقط عندما تكون هناك فرصة قانونية للخسارة. وإلا، لماذا يحتمل أن يكون الانغماس في صندوق حرب مفيداً فيما بعد عندما يظهر مناوىء هائل؟

والآن تصور مرشحين: واحد جذاب بطبيعته، والآخر ليس كذلك. يجمع المرشح الجذاب مالاً أكثر ويفوز فوزاً سهلاً. ولكن هل كان المال هو ماجعله يفوز بالأصوات، أم هل كانت جاذبيته هي التي جعلته يفوز بالأصوات والأموال؟

هذا سؤال حاسم، لكن الإجابة عنه صعبة جداً. إن جذب الأصوات، بعد كل شيء، صعب تحديده من حيث الكمية، فكيف يمكن حسابه؟

إنني لا أستطيع بالفعل ـ فيما عدا حالة خاصة ـ والمفتاح هنا قياس المرشح نفسه مقابل نفسه. بمعنى أن المرشح (آ) اليوم يحتمل أن يكون المرشح (آ) نفسه بعد سنتين أوأربع سنوات. ويمكن أن يقال الشيء ذاته على المرشح (ب). لو أن المرشح (آ) كان ينافس المرشح (ب) في انتخابين متتاليين، يكون قد أنفق في كل حالة مبالغ متباينة من الأموال. وبفرض أن جاذبية المرشحين ثابتة، بقليل أوكثير، يمكننا عندئذ أن نقيس تأثير المال.

ويتبين أن المرشحين كليهما يتنافسان في انتخابات متتابعة طوال الوقت بالفعل، فيما يقرب من ألف منافسة بين مرشحي الكونغرس منذ سنة 1972. فماذا لدى الأرقام لتقوله في هذه الحالات؟

هنا تكمن المفاجأة: إن الأموال التي ينفقها المرشحون لا تكاد يكون لها أي تأثير. فيمكن للمرشح الفائز أن يخفض إنفاقه بمقدار النصف، فيخسر 1٪ من الأصوات. بينما يمكن للمرشح الخاسر أن يضاعف إنفاقه ويستطيع توقع زيادة التصويت لصالحه بنسبة 1٪ فقط. إن ما يهم حقاً بالنسبة للمرشح السياسي ليس ما ينفقه؛ ولكن ما يهم بالفعل هو من أنت. (ويمكن أن يقال الشيء ذاته، وسوف يقال في الفصل الخامس، حول الوالدين). إن بعض السياسيين جذابون بطبيعتهم بالنسبة للناخبين، وإن بعضهم الآخر ببساطة ليسوا كذلك، ولاتستطيع أي أموال أن تفعل شيئاً حيال هذا الأمر (ويعرف السادة دين، وفوربس، وهافنغتون، وغوليسانو، ذلك طبعاً).

وماذا يمكن أن يقال عن النصف الآخر من حقيقة الانتخابات البدهية؟ ــ إن مقدار الأموال التي تنفق على تمويل الحملة الانتخابية قمار فاحش، في مدة الانتخابات العادية التي تشمل الحملات الرئاسية ومجلس الشيوخ ومجلس النواب، ينفق ما يقرب من بليون دولار في السنة ــ وهذا يبدو أنه مبلغ كبير إلا إذا كنت تهتم بقياسه مقابل شيء آخر أقل أهمية من الانتخابات الديمقراطية.

على سبيل المثال، إن ما ينفقه الأمريكيون في كل سنة على (العلكة) يصل إلى هذا المبلغ.

ليس هذا الكتاب لبحث تكاليف العلكة مقابل نفقات الحملات الانتخابية، وليس عن الوسطاء العقاريين الماكرين، ولاعن تأثير الإجهاض القانوني في الجريمة. لا شك في أنه سيعالج هذه الحالات وعشرات غيرها، من فن الوالدية إلى آليات الغش والخداع، ومن الأعمال الداخلية لجمعية كوكلوكس كلان إلى التمييز العنصري في برنامج الحلقة الأضعف. إن هذا الكتاب هو حول تعرية طبقة أوطبقتين من سطح الحياة العصرية ورؤية ماذا يجري تحتها. وسنسأل العديد من الأسئلة، ويكون بعضها تافهاً وبعضها الآخر يتعلق بقضايا الحياة والموت. وقد تبدو الإجابات غريبة غالباً، لكنها، بعد الحقيقة، واضحة تماماً. وسنبحث هذه الإجابات في المعطيات، سواء تلك المعطيات التي تأتي على شكل اختبارات أطفال المدارس، أم على شكل إحصائيات الجريمة في مدينة نيويورك، أم دفاتر حسابات تاجر مخدرات (وغالباً سنستفيد من أشكال المعطيات التي تركت جانباً بطريق المصادفة، مثل خط بخار الماء الذي تصدره الطائرة في أعالي السماء). شيء جيد وجميل أن تحب موضوعاً أو أن تقوم بتنظيره، كما يحب البشر أن يفعلوا، ولكن عند استبدال الوضع الأخلاقي بتقدير مخلص للمعطيات تكون النتيجة جديدة ونظرة مدهشة غالباً.

يمكن مناقشة مقولة «إن الأخلاق تمثل الطريقة التي يحب أن يرى الناس فيها العالم يسير»، بينما يمثل الاقتصاد كيف يعمل العالم في الواقع. والاقتصاد بعد كل شيء هو علم القياس. ويتألف من مجموعة من أدوات قوية ومرنة بصورة غير عادية، وتستطيع أن تقدر مجموعة كثيفة من المعلومات تقديراً موثوقاً لتقرر نتيجة أي من العوامل على انفراد. بل وحتى النتيجة الكلية. وهذا «هو الاقتصاد» بعد كل شيء: أكمة من المعلومات حول الشركات والعقارات والمصارف والاستثمار. لكن أدوات علم الاقتصاد يمكن تطبيقها بسهولة على القضايا الأكثر أهمية.

إذن، لقد كتب هذا الكتاب من نظرة عالمية محددة جداً تقوم على بضع أفكار أساسية:

ـ إن الحوافز هي حجر الزاوية في الحياة العصرية. وفهمها ـ أو تحليلها ـ هوالمفتاح لحل أي أحجية، من الجريمة العنيفة إلى الغش في مجال الرياضة وفي مجال التعارف والتواعد عن طريق الشبكة العالمية (الإنترنت).

ـ غالباً ما تكون الحكمة التقليدية خاطئة. فلم تستمر الجريمة في الزيادة في التسعينيات، ولايكسب المال وحده الانتخابات، وـ مفاجأة ـ لم يتبين أن شرب ثمانية كؤوس من الماء باليوم يفعل شيئاً لصحتك. إن الحكمة التقليدية غالباً ما تكون زائفة، وهي صعبة بصورة شيطانية لايمكن أن ترى من خلالها، ولكن يمكن صنعها.

ـ إن النتائج الدرامية غالباً ما يكون لها أسباب بعيدة وذكية. وإن الإجابة عن كل أحجية ليست صحيحة دائماً. لقد كان تأثير نورما ماك كورفي في الجريمة أكبر مما كان للقوى المجتمعة من ضبط السلاح والاقتصاد القوي والإستراتيجيات الجديدة للشرطة. وكذلك كان ـ كما سنرى ـ رجل يدعى أوسكار دانيلوبلاندون، المعروف أيضاً جوني آبل سيداً للهروين.

ـ يستعمل «الخبراء» ـ من علماء الجريمة إلى الوسطاء العقاريين ـ مزاياهم المعلوماتية لخدمة برامجهم الخاصة. ومع ذلك يمكن أن يهزموا حتى في لعبتهم الخاصة. ومع وجود الإنترنت تتقلص ميزتهم المعلوماتية كل يوم ـ كما يدل، من بين أشياء أخرى، هبوط أسعار التوابيت والدفعات الأولى لشركات التأمين على الحياة.

ـ ستجعل معرفة ما يقاس وكيفية إجراء القياس العالم المعقد أقل تعقيداً. فإن تعلمت كيف تنظر إلى المعطيات بطريقة صحيحة، فإنك تستطيع تفسير الأحجية التي لولا ذلك لكانت تبدو مستحيلة. إذ لايوجد شيء مثل قوة الأرقام الصريحة لنزع طبقات من الاضطراب والتناقض.

ـ وهكذا إن هدف هذا الكتاب هو استكشاف الجانب الخفي.. من كل شيء. وقد يكون هذا عملاً مثبطاً أحياناً. وقد تشعر أحياناً وكأننا ننظر إلى العالم من

خلال ثقب القشة (التي نشرب بواسطتها العصير). أوحتى كأنك تحدق في قاعة المرايا في مدينة الملاهي؛ ولكن الفكرة هي أن ننظر إلى أحوال عديدة ومتباينة ونفحصها بطريقة يندر أنها قد فحصت بها من قبل. من بعض الاعتبارات، إنها مفهوم غريب بالنسبة لكتاب. فتضع معظم الكتب فكرة واحدة منذ البداية وتعبر عنها بجملة أو بجملتين، وبعد ذلك يقص الكتاب القصة بكاملها لتلك الفكرة: مثلاً، تاريخ الملح؛ هشاشة الديمقراطية؛ استخدام علامات الترقيم وسوء استخدامها. لايفتخر هذا الكتاب بمثل تلك الفكرة الجامعة. لقد فكرنا ـ لمدة ست دقائق ـ في كتابة كتاب يدور حول موضوع واحد ـ النظرية والممارسة للاقتصاد التطبيقي الصغير، فأي منها؟ـ لكننا فضلنا عوضاً عن ذلك طريقة البحث عن كنز. نعم، تستخدم هذه الطريقة أفضل أدوات التحليل التي يمكن أن يقدمها علم الاقتصاد، لكنها تسمح لنا باتباع أي فضول عجيب قد يحدث معنا. وهكذا إن ميدان الدراسة الذي اخترناه: الاقتصاد العجيب. إن القصص التي يرويها هذا الكتاب لم تشتمل عليها مادة الاقتصاد 101، ولكن هذا قد يتغير. وحيث إن علم الاقتصاد أولاً مجموعة أدوات، بمقابلته مع الموضوع، فإنه ما من موضوع، مهما كان صعباً، ينبغي أن يكون بعيداً إلى درجة بعيدة المنال.

ويجدر بنا أن نتذكر أن آدم سميث، مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي، كان أول وأعظم فيلسوف، وقد سعى لأن يكون أخلاقياً، وبفعله هذا أصبح رجل اقتصاد. وعندما نشر كتابه (نظرية العواطف الأخلاقية) في سنة 1759، كانت الرأسمالية الحديثة قد بدأت. والتغيرات الكاسحة التي صنعتها هذه القوة الجديدة قد سحرت سميث، ولكن لم تكن الأرقام فقط هي التي أثارت اهتمامه، بل كانت النتيجة الإنسانية، الحقيقة بأن القوى الاقتصادية كانت تغير الطريقة التي يفكر بها شخص ويتصرف بموجبها في وضع مفترض. ما الذي قد يجعل المرء يغش أو يسرق بينما لا يفعل ذلك شخص آخر؟ كيف يمكن ما يبدو أنه خيار جيد (سواء أكان جيداً أم سيئاً) يؤثر في عدد كبير من الناس على طول الخط؟ في عصر

سميث، بدأ السبب والنتيجة بالتسارع؛ فقد تضخمت الحوافز عشر مرات. إن قوة الجذب والصدمة لهذه التغيرات كانت طاغية على مواطني زمانه، كما تبدو جاذبية الحياة الحديثة وصدمتها بالنسبة لنا.

كان موضوع سميث الحقيقي هو الاحتكاك بين رغبة الفرد والمبادئ الاجتماعية. وتعجب المؤرخ الاقتصادي روبرت هيلبرونر، مؤلف كتاب «فلاسفة العالم»، في كيف تمكن سميث من فصل أفعال الإنسان، وهو مخلوق ذو اهتمام ذاتي، عن المستوى الأخلاقي الأعظم الذي يعمل فيه الإنسان. كتب هايلبرونر: «لقد قال سميث: إن الجواب يكمن في قدرتنا على وضع أنفسنا في موقع الشخص الثالث، وهو الملاحظ الحيادي، وبهذه الطريقة نكون مفهوماً عن مزايا القضية الموضوعية.

اعتبر نفسك بصحبة شخص ثالث أو، إذا أردت بصحبة اثنين من ثلاثة أشخاص، فسوف تستكشف المزايا الموضوعية للقضايا التي تثير الاهتمام. تبدأ هذه الاكتشافات بصورة عامة بطرح سؤال بسيط لم يسأله أحد من قبل، مثل: ما هي الأشياء المشتركة بين معلمي المدارس ومصارعي السومو؟

قال ليفيت:

«أود أن أجمع معاً مجموعة أدوات تمكننا من اعتقال الإرهابيين، ولكنني لا أعرف بالضرورة حتى الآن كيف سأفعل ذلك، ولكن بفرض أن المعطيات صحيحة، فلا شك عندي بأنني سأستطيع أن أجد الجواب».

قد يبدو من السخف بالنسبة لرجل الاقتصاد أن يحلم باعتقال الإرهابين، تماماً كما يبدو من السخف إن كنت معلم مدرسة في شيكاغو، وتم استدعاؤك إلى مكتب وأخبروك.. بأن الحساب الذي صممه ذلك الرجل النحيف ذو النظارات السميكة قرر أنك غشاش، وأنك ستفصل، قد لا يعتقد ستيفن ليفيت بنفسه، لكنه يعتقد بذلك: المعلمون والمجرمون والوسطاء العقاريون قد يكذبون، بل وحتى محللو وكالة المخابرات المركزية CIA يكذبون ـ لكن الأرقام لا تكذب.

مجلة النيويورك تايمز ٣ آب ٢٠٠٣

ما هي الأشياء المشتركة بين معلمي المدارس ومصارعي السومو؟

تخيل للحظة أنك مدير لمركز رعاية نهارية، ولديك سياسة محددة بصورة واضحة بأن الأطفال سيأخذهم أولياء أمورهم في الساعة الرابعة، ولكن غالباً ما يتأخرون فتكون النتيجة في نهاية النهار أن لديك بعض الأطفال القلقين ومعلماً واحداً على الأقل لابد من أن ينتظر وصول أولياء أمور الأطفال، فماذا تفعل؟

عرض اقتصاديان سمعا بهذه الورطة ـ وقد أصبحت ورطة عامة ـ حلاً:

ـ ضعوا غرامة على أولياء الأمور المتأخرين. فلماذا ينبغي على مركز الرعاية النهارية أن يهتم بهؤلاء الأطفال مجاناً؟

وقرر الاقتصاديان أن يختبرا الحل الذي قدماه، وذلك بإجراء دراسة على عشرة مراكز رعاية نهارية في حيفا، واستمرت الدراسة عشرين أسبوعاً، ولكن الغرامة لم توضع مباشرة. ففي الأسابيع الأربعة الأولى تابع الاقتصاديان عدداً من أولياء الأمور الذين يتأخرون وكانوا بمعدل ثمانية، يتأخرون عند أخذ أطفالهم أسبوعياً بالمركز الواحد، وفي الأسبوع الخامس، نفذت الغرامة. وتم الإعلان على أن أي ولي أمر يصل متأخراً أكثر من عشر دقائق يجب أن يدفع 3 دولارات عن كل طفل في كل مرة، وتضاف الغرامة على الفاتورة الشهرية البالغة 380 دولاراً.

بعد تنفيذ الغرامة راح عدد المتأخرين يزداد بسرعة. وبعد وقت قصير أصبح عدد المتأخرين في أخذ أطفالهم عشرين في الأسبوع، أكثر من ضعف المعدل الأصلي لقد أجاب الحافز، فكانت النتيجة عكس المقصود.

إن علم الاقتصاد في جذوره هو دراسة الحوافز: كيف يحصل الناس على ما يريدون أو ما يحتاجون، ولاسيما عندما يكون أناس آخرون يريدون الشيء ذاته أو يحتاجونه، والاقتصاديون يحبون الحوافز، يحبون أن يحلموا بها وأن ينفذوها ويدرسوها ويعملوا بها بسرعة، يعتقد الاقتصادي النموذجي أن العلم لم يخترع المشكلة التي لايستطيع حلها إذا ما أطلقت يده ليصمم خطة الحافز الملائم، قد لايكون الحل دائماً جيداً ـ وقد يشمل قسراً أو عقوبات فادحة أو خرقاً للحريات المدنية ـ لكن المشكلة الأصلية تأكد سيتم حلها، الحافز رصاصة، عتلة، مفتاح: جسم رقيق وغالباً ما يكون ذا قوة مدهشة ليغير الوضع الراهن.

نتعلم جميعاً الاستجابة للحافز سلباً أم إيجاباً منذ بدء الحياة، إذا زحفت باتجاه الموقد الساخن ولمسته فإنك ستحرق إصبعك، وإن أحضرت (أ) من المدرسة إلى البيت مباشرة، فسوف تحصل على دراجة، إذا ضبط وأنت تنظف أنفك في الصف، فسوف تكون محط سخرية، ولكنك إذا التحقت بفريق كرة السلة فإنك سترتفع على السلم الاجتماعي، و إذا خالفت خطراً، فإنك ستلقى أرضاً، ولكنك إذا حققت درجات عالية في اختبار الاستعداد المدرسي فإنك ستدخل إلى كلية جيدة، وإذا هربت من كلية الحقوق فعليك أن تعمل في شركة أبيك للتأمين، ولكنك إذا عملت جيداً إلى درجة تجعل الشركة المنافسة تطلبك، فإنك ستصبح معاوناً للرئيس ولست بحاجة لأن تعمل لدى أبيك، ولكنك إذا كنت مسروراً جداً بوظيفة نائب الرئيس فإنك ستقود سيارتك إلى البيت بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة، فسيوقفك الشرطي ويغرمك 100 دولار، وإذا حققت مشاريع المبيعات وقبضت مكافأة آخر العام، فإنك لن تهتم للمخالفة البالغة 100 دولار ولكنك تستطيع شراء السفينة (فايكنغ) التي حلمت بها دائماً ـ وعليها تستطيع الدراجة الآن أن تحرق إصبعها.

إن الحافز وسيلة لحث الناس على القيام بأشياء جديدة أكثر أو أشياء مسيئة أقل، لكن معظم الحوافز لا تأتي عضوياً، وعلى شخص ما ـ اقتصادياً أم سياسياً

أم ولي أمر ـ أن يخترعها. إن فتاتك ذات الأعوام الثلاثة تأكل كل خضارها لأسبوع فإنها تكسب رحلة إلى مخزن الدمى. ويقذف معمل حديد دخاناً كثيراً في الهواء فتعرضت الشركة لغرامة عن كل قدم مكعب من الملوثات تزيد عن الحد القانوني، لا يدفع أمريكيون كثيرون ما عليهم من ضريبة الدخل، ولقد ساعد الاقتصادي ميلتون فريدمان باختراع حل لهذه المشكلة: حسم تلقائي للضريبة من أجور المستخدمين.

هناك أنواع أساسية ثلاثة للحافز: اقتصادي واجتماعي وأخلاقي وغالباً جداً ما تشمل خطة حافز واحد على الأنواع الثلاثة، فكر في الحملة ضد التدخين في السنوات الأخيرة. إن إضافة ثلاثة دولارات على كل علبة سجائر «ضريبة خطأ» حافز اقتصادي قوي ضد شراء السجائر، ومنع السجائر في المطاعم والبارات حافز اجتماعي قوي، وعندما أكدت الحكومة في الولايات المتحدة أن الإرهابيين يجمعون المال عن طريق بيع السجائر في السوق السوداء، فإن هذا يعمل كحافز أخلاقي فظيع.

إن بعضاً من الحوافز المفروضة والمكتشفة قد وضعت في مكانها لتعيق الجريمة، وبعد دراسة هذه الحقيقة، قد يكون من المناسب أن نطرح سؤالاً مألوفاً: لماذا توجد جرائم كثيرة في المجتمع الحديث؟ وإذا قلبناه رأساً على عقب: لماذا لاتوجد جرائم أكثر؟

وأخيراً، يمر كل منا بشكل عادي في فرص ليقطع ليخدع ويسرق ويغش، وإن فرصة الذهاب إلى السجن ـ وبذلك خسارة عملك وبيتك وحريتك، وكل هذه الأشياء عقوبات اقتصادية في جوهرها ـ حافز قوي من دون شك، ولكن عندما يصل الأمر إلى الجريمة، فإن الناس تستجيب إلى حوافز أخلاقية (لا يريدون فعل شيء يعتقدون أنه خطأ) وحوافز اجتماعية (إذا كانوا لا يريدون أن يشاهدهم الآخرون يفعلون شيئاً خاطئاً) وبالنسبة لبعض نماذج السلوك السيء، فكون الحوافز الاجتماعية قوية بشكل مخيف، وكصدى للحرف القرمزي لهيستر براين، تحارب مدن أمريكية عديدة «الدعارة بهجوم مخجل» وبوضع صور للرجال

المتهمين (وعاهرات) على مواقع الإنترنت أو في التلفازات المحلية، أيها أكثر المثبطات تخويفاً: غرامة 500 دولار لمفاوضة عاهرة أم التفكير بأن أصدقاءك وعائلتك ينظرون إليك على موقع www.Hookers And Johns.com.

وهكذا فمن خلال موقع معقد وعشوائي وقابل للتعديل بصورة دائمة للحوافز الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، يقوم المجتمع الحديث بأفضل جهده ليحارب الجريمة. قد يناقش بعض الناس بأننا لم نقم بعمل جيد جداً، ولكن بعد إمعان النظر، نجد أن هذا غير صحيح. لندرس اتجاه جرائم القتل (باستثناء الحروب)، وهو قابل للقياس بصورة موثوقة، وهو أفضل بارومتر للمعدل الكلي للجرائم في المجتمع. وقد جمع هذه الإحصائيات عالم الجريمة مانويل إيسنر، وتتبع المستويات التاريخية لجرائم القتل في خمسة أقاليم أوروبية.

جرئم القتل

القرن	إنكلترا	هولنداوبلجيكا	الدول الإسكاندنافية	ألمانيا وسوسيرا	إيطاليا
14 و 15	23.0	47.0	n.a	37.0	56.0
15	n.a	45.0	46.0	16.0	73.0
16	7.0	25.0	21.0	11.0	47.0
17	5.0	7.5	18.0	7.0	32.0
18	1.5	5.5	1.9	7.5	10.5
19	1.7	1.6	1.1	2.8	12.6
1949-1900	0.8	1.5	0.7	1.7	3.2
1994-1950	0.9	0.9	0.9	1.0	1.5

يشير انخفاض هذه الأرقام عبر القرون إلى واحدٍ من أشد وأخطر الهموم البشرية ـ أن يقتل المرء ـ فإن الحوافز التي قمنا بإعدادها جميعاً تعمل بشكل أفضل وأفضل.

إذن ما هو الخطأ في الحافز في مركز الرعاية النهارية في حيفا؟!.

لابد أنك قد خمنت أن الغرامة البالغة 3 دولارات صغيرة جداً، فبهذا السعر يستطيع ولي الأمر الذي لديه طفل واحد أن يدفعها لقاء تأخره في كل يوم ويدفع مبلغ 60 دولاراً فقط في الشهر ـ وهذا يعادله سدس الرسم الأساسي، وبالمقارنة مع رسم جليس الطفل يبدو هذا المبلغ صغيراً جداً. ماذا يحدث لو أن الغرامة كانت 100 دولار، بدلاً من 3 دولارات؟ يحتمل أنها ستضع نهاية للتأخير في أخذ الأطفال على الرغم من أنها قد تولد إرادة سيئة كبرى. (إن أي حافز هو بالطبع مبادلة والقصة هي موازنة التطرف).

لكن هناك مشكلة أخرى في غرامة مركز الرعاية النهارية، فقد استبدلت حافزاً اقتصادياً (عقوبة 3 دولارات) بحافز أخلاقي (الذنب الذي يشعر به أولياء الأمور عندما يأتون متأخرين). فلقاء بضعة دولارات فقط يستطيع الآباء أن يتخلصوا من شعورهم بالذنب. والأكثر من ذلك، أن مقدار الغرامة الصغيرة يرسل رسالة إلى الآباء بأن استلام الأطفال المتأخرين ليس بتلك المشكلة الكبيرة، إذا كانت معاناة مركز الرعاية النهارية من أخذ الطفل المتأخر تعادل 3 دولارات، فلماذا الانزعاج ولماذا لا يختصر الأخذ والرد؟ وبالفعل عندما ألغى الاقتصاديون غرامة الدولارات الثلاثة في الأسبوع السابع عشر من دراستهم، لم يتغير عدد الأولياء الذين يتأخرون في أخذ أطفالهم، والآن يستطيعون التأخر بالوصول، ولايدفعون غرامة ولا يشعرون بالذنب.

هذه هي طبيعة الحوافز الغريبة والقوية، فقرصة (أذن) خفيفة يمكن أن تعطي نتائج جذرية وغير مرئية غالباً، لاحظ توماس جيفرسون أنه بينما يفكر في الحافز الصغير الذي أدى إلى حفلة شاي بوسطن كانت الثورة الأمريكية بدورها: إن ترتيب الأسباب التي لايدرك كنهها والنتائج في هذا العالم ـ حيث إن رسماً يبلغ البنسين يفرض على الشاي بطريقة غير عادلة في أجزاء منعزلة منها ـ يغير حال جميع سكانها.

ففي أعوام السبعينيات أجرى الباحثون دراسة تشبه دراسة مركز الرعاية النهارية، فوضعوا حافزاً أخلاقياً ضد حافز اقتصادي، وفي هذه الحالة أرادوا

أن يعرفوا الدافع وراء التبرع بالدم فكان اكتشافهم أن الناس عندما تقدم لهم أعطية صغيرة لقاء تبرعهم بالدم بدلاً من مجرد إطرائهم على إيثارهم، يتجهون إلى التبرع بدم أقل. فالأعطية حولت العمل النبيل من الإحسان إلى طريقة مؤلمة للحصول على بضعة دولارات، وهذا أمر لايستحق العناء.

ماذا يحصل لو قدم للمتبرعين بالدم مبلغ 50 دولاراً أو 500 دولار أو حتى 5000 دولار ؟ بالتأكيد كان سيتغير عدد المتبرعين تغيراً درامياً.

لكن شيئاً آخر كان يمكن أن يتغير، أيضاً، فلكل حافز جانبه المظلم. إذا حصل فجأة أن كانت قيمة ليتر الدم 5000 دولار، يمكنك التأكد من أن عدداً كبيراً من الناس سيهتم بالأمر، فقد يسرقون بصورة حرفية الدم عند رأس السكين وقد يمررون دم الخنزير على أنه دماؤهم، وقد يتحايلون على حدود التبرع باستخدام بطاقات هوية غير صحيحة، فمهما كان الحافز ومهما كان الوضع فإن الغشاشين يحاولون جني الربح بكل الوسائل اللازمة أو كما قال و.س. فيلدز ذات مرة: الشيء الذي يستحق الاقتناء هو الشيء الذي يستحق الغش لنيله.

من الذي يغش؟

حسناً، أي شخص على وجه التقريب إذا كانت الجوائز صحيحة، قد تقول في سرك: إنني لا أغش بغض النظر عن النتائج، وعندئذ قد تتذكر الزمن الذي غششت فيه، لنقل، لعبة شطرنج، الأسبوع الماضي، أو ضرب كرة الغولف من موقعها السيء، أو وقت كنت محتاجاً لرغيف تأكله في حجرة استراحة القهوة ولكن لم يكن معك دولار لتضعه في علبة القهوة. فأخذت الرغيف وقلت لنفسك: سأدفع ضعف القيمة في المرة، ولكنك لم تفعل.

بالنسبة لكل شخص ذكي يجتهد في خلق خطة محفزة، هناك جيش من الناس، أذكياء وغير أذكياء يمضون وقتاً أطول بالضرورة وهم يحاولون هزيمة خطتك. قد يكون الغش طبيعة بشرية أو قد لايكون، لكنه سمة بارزة في سعي كل إنسان تقريباً، فالغش عمل اقتصادي وأزلي: الحصول على الكثير لقاء القليل.

فليس مجرد الأسماء الجريئة ـ المديرون التنفيذيون في التجارة الداخلية، واللاعبون الذين يأخذون المنشطات، والسياسيون المستغلون المتكبرون ـ هم الذين يغشون، وفي وول مارت، حيث يقوم مدير الأجور بإلغاء ساعات عمل العاملين من الكمبيوتر؛ ليجعل عمله يبدو أفضل، إنه طالب الصف الثالث الخائف من عدم الوصول إلى الصف الرابع، فينقل إجابات الامتحان من الطفل الجالس إلى جانبه.

ويكاد لايترك بعض الغش أي أثر كدليل. وفي حالات أخرى، يكون الدليل كبيراً، فكر بما حدث في يوم ربيعي في منتصف الليل من عام /1987/، اختفى فجأة سبعة ملايين طفل أمريكي، أسوأ موجة اختطاف في التاريخ! تكاد تكون كذلك، كانت ليلة 15 نيسان قد غيرت مصلحة الدخل على الإنترنت قاعدة، فبدلاً من مجرد وضع قائمة تشمل كل طفل ذي إعالة، طلب من ملفات الضريبة أن تقدم وتعطى رقماً للضمان الاجتماعي لكل طفل، فجأة، سبعة ملايين طفل ـ أطفال كانوا موجودين فقط كأشباح معفاة في 1040 استمارة من السنة الماضية ـ اختفوا وهم يمثلون ما يقرب من واحد من عشرة من جميع الأطفال المعالين في الولايات المتحدة.

كان الحافز لكل من دافعي الضرائب أولئك واضحاً تماماً، الحافز هو نفسه بالنسبة للعاملة في المطعم، ومدير الرواتب وطالب الصف الثالث. ولكن ماذا يقال فيما يخص معلمة طالب الصف الثالث؟ هل يمكن أن يكون لديها حافز لتقوم بالغش؟ وإن كان كذلك فكيف تقوم به؟

تخيل الآن بدلاً من إدارة مركز الرعاية النهارية في حيفا، أنك تدير المدارس العامة في شيكاغو، وهو الجهاز الذي يعلم ويربي 000 400 طالباً كل سنة.

إن أكثر النقاش الحالي بين مديري المدارس الأمريكية ومعلميها وأولياء الطلاب والطلاب يهتمون بالامتحانات الصعبة، فتعتبر هذه المصاعب كبيرة لأمة

بدلاً من فحص الطلاب ببساطة لقياس تقدمهم، تعتبر المدارس مسؤولة مسؤولية محاسبة عن النتائج.

فرضت الحكومة الاتحادية أن تكون الاختبارات جزءاً من قانون «لا تترك أي ولد متخلفاً» الذي وقعه الرئيس بوش في عام 2002، ولكن حتى قبل ذلك القانون، كانت معظم الولايات تعطي اختبارات معيارية سنوية للطلاب في المدرسة الابتدائية والثانوية، وكافأت عشرون ولاية المدارس المتقدمة على نتائج الاختبارات الجيدة فيها أو للتحسن الدرامي، وعاقبت 32 ولاية المدارس التي لم تكن نتائجها جيدة.

ضم نظام المدارس العامة في شيكاغو الاختبارات الصعبة في 1996، وبموجب السياسة الجديدة، توضع المدارس ذات الدرجات المنخفضة بالقراءة (من دون تعويض) وتواجه التهديد بإغلاقها، ويفصل معلموها وإداريوها أو يعاد تعيينهم. وألغت مدارس شيكاغو العامة ما يعرف بالترقية الاجتماعية في الماضي، وكان يعاد الطالب الذي يشكو من عدم القدرة أو الصعوبة فقط صفاً إلى الوراء، أما الآن حتى يترقى كل طالب في الصف الثالث أو السادس أو الثامن يجب أن يحصل على حد أدنى من العلامات في امتحان معياري يعتمد على اختيار إجابة من عدد من الإجابات و المسمى اختبار المهارات الأساسية.

يناقش أدعياء الاختبارات الصعبة بأنها ترفع من معايير التعليم وتعطي الطلاب حافزاً أكبر للدراسة وكذلك إذا كان الاختبار يمنع الطلاب الضعفاء من التقدم من دون ميزات، فإنهم لن يغلقوا الصفوف العليا ويبطئوا الطلاب الجيدين، وأما الخصوم فهم يقلقون من أن بعض الطلاب سوف يعاقبون ظلماً إن لم يعلموا بالامتحان، وأن المعلمين قد يركزون على مواضيع الامتحانات ويستبعدون دروساً أكثر أهمية.

لدى أطفال المدارس طبعاً حافز لأن يغشوا مادام هناك اختبارات، لكن الاختبارات الصعبة قد غيرت جذرياً حوافز المعلمين الذين قد أضافوا سبباً

للغش، فبالاختبارات الصعبة يمكن أن يراقب المعلم الذي لديه طلاب ضعفاء بالامتحانات؛ لئلا يغشوا بسبب زيادة الرواتب؛ فإن كانت المدرسة بكاملها ضعيفة النتائج فيمكن إيقاف التمويل الاتحادي، وإن وضعت المدرسة في مدة تجريبية، يكون المعلمون ينتظرون الفصل، وتصنع الاختبارات الصعبة معلمين ذوي حوافز إيجابية.

فإن كان طلابهم ينجزون عملهم بصورة جيدة، فقد يجدون أنفسهم يوجه إليهم ثناء وترفيع أو يصبحون أغنياء: قدمت حكومة كاليفورنيا عند إحدى النقاط مكافآت من 25000 دولار للأساتذة الذين يحققون زيادة كبيرة في نتائج الامتحانات.

فإذا كان على المعلمة أن تفحص الطبيعة المحفزة حديثاً وتدرس درجات طلابها المتزايدة نوعاً ما، فإنها قد تقتنع بحافز نهائي واحد: غش المعلمة نادراً ما يبحث عنه ونادراً ما يكتشف، ولم تتم معاقبة من قام بالغش.

كيف تتصرف المعلمة بشأن الغش؟ هناك احتمال واحد من عدة احتمالات، من الصفاقة إلى المهارة والحذق. جاءت طالبة من الصف الخامس من أوكلاند إلى البيت مؤخراً من المدرسة وأخبرت أمها وهي فرحة بأن المعلمة الرائعة كتبت إجابات امتحانات فحص الدولة هناك على السبورة. إن مثل هذه الأمثلة نادرة بالتأكيد لوضع مصيرك في أيدي ثلاثين شاهداً لم يبلغوا سن الحلم. لايبدو أن مخاطرة كهذه لن تخاطر بها أسوأ المعلمات، (لقد فصلت المعلمة في أوكلاند أصولاً) فهناك طرق أكثر ذكاء لزيادة علامات الطالبات.

تستطيع المعلمة أن تعطي الطلاب وقتاً إضافياً لإكمال الامتحان، وإذا حصلت على نسخة من الامتحان في وقت مبكر - أي بصورة غير قانونية - تستطيع أن تدرب الطالبات على أسئلة محددة. وتستطيع بشكل أوسع «تعليمهم الامتحان» وتبني خطة الدرس على الأسئلة من الامتحانات السابقة، وهذا لا يعتبر غشاً، لكنه يخرق بالتأكيد روح الامتحان.

ولأن هذه الاختبارات جميعاً ذات إجابات متعددة، من دون عقوبة على تخمينات خاطئة، فقد تعلم المعلمة طالباتها على تعبئة جميع الفراغات عشوائياً عندما تقترب الساعة من انتهاء الوقت، وربما بتعبئة خط طويل من الإجابة (ب) أو مبادلة (ب) و(ج)، أو قد تملأ جميع الفراغات لهم بعد ما يغادرن القاعة، وتجعل الأمر يستحق.

ولكن إذا أرادت المعلمة أن تغش ـ وتجعله أمراً جديراً بها ـ فقد تجمع أوراق الطالبات، وفي ساعة أو ما يقرب من الساعة قبل إدخال هذه الأوراق ليقرأها الماسح الإلكتروني، تمسح الإجابات الخطأ وتملأ إجابات صحيحة. (وأنت تفكر دائماً بأن قلم رصاص رقم 2 هو للأطفال؛ ليغيروا إجاباتهم). إن كان هذا الغش من قبل المعلمين مستمراً حقاً، فكيف يمكن تحريه واكتشافه؟

لاكتشاف من يغش، يساعدك أن تفكر كما يفكر الغشاش، فإذا أردت مسح معظم الإجابات الخطأ عند تلميذك وتكتب بدلاً منها الإجابات الصحيحة، وهذا بداية الأمر. ولايحتمل أنك تريد تبديل كل إجابات اختبارات الطلاب ـ وهذه نقلة أخرى.. وليس هناك احتمال وقت كاف؛ لأن أوراق الإجابة يجب أن تسلم بعد انتهاء الاختبار.

ولذلك ما يمكنك فعله هو اختيار مجموعة من ثمانية أو عشرة أسئلة متتالية وتملأ إجاباتها الصحيحة لعدد من الطلاب: الثلث أو النصف، وتستطيع بذلك حفظ عدد صغير من الإجابات الصحيحة، ويكون العمل أسرع في مسحها وتبديل ذلك العدد من الإجابات؛ حتى تنتهي من كل ورقة إجابة لكل طالب على حدة، ويمكنك أيضاً أن تركز نشاطك على آخر الاختبار، حيث تميل الأسئلة لأن تكون أصعب من الأسئلة الأولى، وبهذه الطريقة يحتمل جداً أنك استبدلت بالإجابات الخاطئة الإجابات الصحيحة.

إذا كان الاقتصاد علماً يهتم بالحوافز أولاً، فإنه ـ لحسن الحظ ـ أيضاً علم يمتلك أدوات إحصائية لقياس مدى استجابة الناس لتلك الحوافز، وكل ما تحتاجه هو بعض المعطيات.

في هذه الحالة، تساعد مدرسة شيكاغو العامة، فقد وفرت قاعدة بيانات لإجابات الاختبار لكل طالب في مدارس شيكاغو العامة من الصف الثالث حتى الصف السابع ومن سنة 1993 إلى سنة 2000، وتصل هذه البيانات إلى ما يقرب من 30000 طالب في الصف الواحد في السنة، وإلى أكثر من 700000 مجموعة إجابات اختبار، وإلى ما يقرب من 100 مليون إجابة مفردة. وتم ترتيب المعطيات بحسب الصف وشملت إجابات كل طالب بشكل مجموعات لمادتي القراءة والرياضيات. (وأوراق إجابات الامتحانات لم تكن موجودة، فهي بالعادة تمزق بعد الامتحان).

وشملت المعطيات أيضاً بعض المعلومات حول كل أستاذ ومعلومات ديموغرافية عن كل طالب، إضافة إلى نتائج اختباراته الماضية والمستقبلية، ويثبت هذا على أنه عنصر أساسي في كشف غش المعلم.

وجاء الآن دور بناء لوغاريتم يتوصل إلى بعض الاستنتاجات من كتلة المعطيات هذه. ماذا يمكن أن يكون شكل صف الأستاذ الذي يغش؟

أول ما يجب البحث عنه هو شكل (مجموعة) الإجابات غير الاعتيادية، ولاسيما بين مجموعة الأسئلة الأصعب. إذا أعطى عشرة طلاب أذكياء جداً (كما تبين من مجموعة درجاتهم في الاختبارات الماضية واللاحقة) إجابات صحيحة عن أول خمس إجابات (وطبعاً هي الأسهل)، فإن النماذج المتشابهة هنا لا تعتبر محل شك، ولكن إذا أجاب عشرة طلاب ضعاف عن آخر خمسة أسئلة من الامتحان (وهي الأصعب) فإن هذه تستحق البحث والتدقيق، وعلامة حمراء أخرى قد تكون مجموعة غريبة في اختبار أي طالب، مثل إعطاء إجابات صحيحة عن الأسئلة الصعبة، بينما يترك الإجابات الأسهل ـ لاسيما عندما تقاس مع آلاف الطلاب ـ في الصفوف الأخرى ـ الذين أجابوا عن الامتحان نفسه، وأبعد من ذلك، فقد يبحث اللوغاريتم عن طلاب صف قدموا الفحص بشكل أفضل من درجاتهم السابقة؛ فربما يكونون قد تنبؤوا، وهم أنفسهم استمروا بتحقيق درجات أخفض في السنة الآتية. وارتفاع جذري في درجات فحص سنة ما قد يعزى في البداية إلى أن الأستاذ جيد، ولكن إن تبعه انخفاض درامي، فهناك احتمال كبير بأن الارتفاع الكبير إنما حققته وسيلة مصطنعة.

فكر الآن بمجموعات الإجابات الواردة من الطلاب في شعبتين من الصف السادس في شيكاغو، وقد أخذوا اختبار رياضيات متشابه، ويمثل كل خط أفقي إجابات طالب واحد. والأحرف a،b،c، d تشير إلى الجواب الصحيح والعدد يشير إلى إجابة خاطئة (فالعدد 1 يتعلق بالحرف a و2 يتعلق بالحرف b وهكذا، ويمثل الصفر إجابة مكانها فارغ.

وأحد هذه الصفوف يحتمل طبعاً أن يكون أستاذه قد غش والثاني لم يغش. حاول أن تجد الفرق، ولكن انتبه؛ لأن الأمر ليس بسيطاً بالعين المجردة.

الصف آ

112a4a342cb214d0001acd24a3a12dadbcb4a0000000
d4a2341cacbddad3142a2344a2ac23421c00adb4b3cb
1b2a34d4ac42d23b141acd24a3a12dadbcb4a2134141
dbaab3dcacb1dadbc42ac2cc31012dadbcb4adb40000
d12443d43232d32323c213c22d2c23234c332db4b300
db2abad1acbdda212b1acd24a3a12dadbcb400000000
d4aab2124cbddadbcb1a42cca3412dadbcb423134bc1
1b33b4d4a2b1dadbc3ca22c000000000000000000000
d43a3a24acb1d32b412acd24a3a12dadbcb422143bc0
313a3ad1ac3d2a23431223c000012dadbcb400000000
db2a33dcacbd32d313c21142323cc300000000000000
d43ab4d1ac3dd43421240d24a3a12dadbcb400000000
db223a24acb11a3b24cacd12a241cdadbcb4adb4b300
db4abadcacb1dad3141ac212a3a1c3a144ba2db41b43
1142340c2cbddadb4b1acd24a3a12dadbcb43d133bc4
214ab4dc4cbdd31b1b2213c4ad412dadbcb4adb00000
1423b4d4a23d24131413234123a243a2413a21441343
3b3ab4d14c3d2ad4cbcac1c003a12dadbcb4adb40000
dba2ba21ac3d2ad3c4c4cd40a3a12dadbcb400000000
d122ba2cacbd1a13211a2d02a2412d0dbcb4adb4b3c0
144a3adc4cbddadbcbc2c2cc43a12dadbcb4211ab343
d43aba3cacbddadbcbca42c2a3212dadbcb42344b3cb

الصف ب

```
db3a431422bd131b4413cd422a1acda332342d3ab4c4
d1aa1a11acb2d3dbc1ca22c23242c3a142b3adb243c1
d42a12d2a4b1d32b21ca2312a3411d00000000000000
3b2a34344c32d21b1123cdc000000000000000000000
34aabad12cbdd3d4c1ca112cad2ccd00000000000000
d33a3431a2b2d2d44b2acd2cad2c2223b40000000000
23aa32d2a1bd2431141342c13d212d233c34a3b3b000
d32234d4a1bdd23b242a22c2a1a1cda2b1baa33a0000
d3aab23c4cbddadb23c322c2a222223232b443b24bc3
d13a14313c31d42b14c421c42332cd2242b3433a3343
d13a3ad122b1da2b11242dc1a3a12100000000000000
d12a3ad1a13d23d3cb2a21ccada24d2131b440000000
314a133c4cbd142141ca424cad34c122413223ba4b40
d42a3adcacbddadbc42ac2c2ada2cda341baa3b24321
db1134dc2cb2dadb24c412c1ada2c3a341ba20000000
d1341431acbddad3c4c213412da22d3d1132a1344b1b
1ba41a21a1b2dadb24ca22c1ada2cd32413200000000
dbaa33d2a2bddadbcbca11c2a2accda1b2ba20000000
```

إذا عرفت أن الصف (آ) هو صف يغش، فإننا نقدم لك التهاني، وهنا مرة أخرى، ترى مجموعات الإجابة في الصف (آ) وقد أعيد ترتيبها بواسطة الحاسوب الذي طلب منه أن يطبق لوغاريتم الغش، ويغش من المجموعات المشكوك فيها.

الصف آ

1. 112a4a342cb214d0001**acd24a3a12dadbcb4**a0000000
2. 1b2a34d4ac42d23b141**acd24a3a12dadbcb4**a2134141
3. db2abad1acbdda212b1**acd24a3a12dadbcb4**00000000
4. d43a3a24acb1d32b412**acd24a3a12dadbcb4**22143bc0
5. d43ab4d1ac3dd43421240d24**a3a12dadbcb4**00000000
6. 1142340c2cbddadb4b1acd24**a3a12dadbcb4**3d133bc4
7. dba2ba21ac3d2ad3c4c4cd40**a3a12dadbcb4**00000000
8. 144a3adc4cbddadbcbc2c2cc4**3a12dadbcb4**211ab343
9. 3b3ab4d14c3d2ad4cbcac1c00**3a12dadbcb4**adb40000
10. d43aba3cacbddadbcbca42c2a32**12dadbcb4**2344b3cb
11. 214ab4dc4cbdd31b1b2213c4ad4**12dadbcb4**adb00000
12. 313a3ad1ac3d2a23431223c000**12dadbcb4**00000000
13. d4aab2124cbddadbcb1a42cca34**12dadbcb4**23134bc1
14. dbaab3dcacb1dadbc42ac2cc310**12dadbcb4**adb40000
15. db223a24acb11a3b24cacd12a241c**dadbcb4**adb4b300
16. d122ba2cacbd1a13211a2d02a2412d0dbcb4adb4b3c0
17. 1423b4d4a23d24131413234123a243a2413a21441343
18. db4abadcacb1dad3141ac212a3a1c3a144ba2db41b43
19. db2a33dcacbd32d313c21142323cc3000000000000000
20. 1b33b4d4a2b1dadbc3ca22c00000000000000000000
21. d12443d43232d32323c213c22d2c23234c332db4b300
22. d4a2341cacbddad3142a2344a2ac23421c00adb4b3cb

ألق نظرة على الأحرف الغامقة. هل أفلح خمسة عشر طالباً من أصل اثنتين وعشرين إجابة يدرون الإجابات الست الصحيحة والمتتابعة (والإجابات المتابعة d_a_d_b_c_b) وحدها؟

توجد أربعة أسباب على الأقل تبين أن هذا غير محتمل، أولاً: هذه الأسئلة وموقعها قريب من نهاية الامتحان، وكانت أصعب من الأسئلة السابقة، ثانياً: كان هؤلاء الطلاب هم من المستوى الأدنى بصورة رئيسة. إذ كان قلة منهم

يحصلون على إجابات صحيحة متتالية في مكان آخر من الفحص، وهذا يجعلهم جميعاً أكثر احتمالاً لأن يكون لديهم الإجابات الست ذاتها صحيحة هي أسئلة صعبة.

ثالثاً: حتى هذه النقطة في الفحص، كانت إجابات الطلبة الخمس عشرة (فهي الأرقام 1 و9 و12) قد تركت على الأقل إجابة واحدة قبل المجموعة المشكوك فيها، ومن ثم انتهت المجموعة بمجموعة من الفراغات، وهذا يشير إلى أن مجموعة طويلة دون انقطاع من الإجابات الفارغة انقطعت إلى انكسار ليس من قبل الطالب، ولكن من قبل المعلم.

هناك شذوذ آخر حول مجموعة الإجابات المشكوك فيها، في تسعة من خمسة عشر اختباراً كانت الإجابات الصحيحة الست تسبقها مجموعة متشابهة أخرى 3ـ9ـ1ـ2 والتي استعملت على ثلاث أو أربع إجابات غير صحيحة، وفي جميع الاختبارات الخمسة عشرة 42 a، فبحق السماء لماذا تكلف المعلمة الغشاشة نفسها بالقيام بمسح اختبار الطالب، ومن ثم تملأ الإجابة الخاطئة؟ ربما إنها تحاول أن تكون إستراتيجية، فإذا ما ضبطت وأخذت إلى مكتب المديرة، فإنها ستشير إلى الإجابات الخاطئة برهاناً على أنها لم تغش ـ أو وهذا أقل شفقة ولكنه جواب محتمل ـ إنها نفسها لاتعرف الإجابات الصحيحة. (باختبارات معيارية، لا يعطى سلم الإجابات الصحيحة إلى المعلمة)، فإن كانت الحالة كذلك، فقد يكون لدينا دليل جيد، لماذا يكون طلابها بحاجة إلى درجات زائدة في المقام الأول؟ لأن لديهم معلمة سيئة.

هناك إشارة أخرى إلى أن المعلمة تغش بالصف (آ) وهو إجراء الفحص الكلي للصف، وطلاب الصف السادس يأخذون الاختبار في الشهر الثامن من السنة الدراسية، إذ يحتاج هؤلاء الطلاب إلى تحقيق الدرجات بمعدلها الوسطي 6.8 ليقارن مع المعايير الوطنية (طلاب الصف السادس يأخذون الفحص في الشهر الثامن من السنة؛ لأنهم يحتاجون إلى 5.8، وطلاب الصف السابع 7.8 وهكذا)

فالصف آ حقق المعدل 5.8 في اختبار الصف السادس، وهي علامة كاملة دون المستوى حيث يجب أن يكونوا، ولذلك فواضح أن هؤلاء طلاب ضعفاء، لكن وقبل سنة كان إنجاز هؤلاء الطلاب بمعدل أسوأ حتى وهي 4.1 في اختباراتهم في الصف الخامس، وبدلاً من التحسن بمقدار نقطة كاملة بين الصف الخامس والسادس، وكما هو متوقع، فقد تحسنوا بمقدار 1.7 نقطة، وهذا يساوي تقريباً درجتين. وهذا التحسن الأعجوبة ذو عمر قصير. وعندما وصل طلاب الصف السادس إلى الصف السابع كان المعدل الوسطي 5.5 أقل بمستوى درجتين دون المعيار، وحتى أسوأ مما حققوا في الصف السادس، فكر بالدرجات التي تستقر من سنة إلى سنة لثلاثة طلاب خاصين من الصف (آ).

	درجة الصف الخامس	درجة الصف السادس	درجة الصف السابع
الطالب 3	3.0	6.5	5.1
الطالب 6	3.6	6.3	4.9
الطالب 14	3.8	7.1	5.6

إن الدرجات للمستويات الثلاثة من الصف B كانت درجة منخفضة أيضاً، ولكنها على الأقل تبين جهداً أميناً: 2.4، 1.5، 0.6 ولذلك فإن مجموعة كاملة من طلاب الصف آ يصبحون فجأة أذكياء جداً لسنة واحدة ويعودون إلى غير ذلك في السنة التي تأتي أو أكثر احتمالاً، إن معلمتهم في الصف السادس قد تبذل بذلك جهداً سوياً بقلم الرصاص رقم 2.

هناك نقطتان جديرتان بالملاحظة حول طلاب الصف آ وتلامسان الغش ذاته، الأولى هي أنهم من الواضح في وضع مدرسي فظيع، وهذا يجعلهم الأطفال أنفسهم الذين طور الاختبار الصعب كونه مساعداً أكثر مما يمكن. والنقطة الثانية هي أن هؤلاء الطلاب سيواجهون صدقة عندما يصلون إلى الصف السابع

وكل ما عرفوه أنهم قد ترفعوا بنجاح بسبب درجات اختبارهم (فلم يتخلف أي طالب) إنهم لم يكونوا الطلاب الذين رفعوا علاماتهم، ربما توقعوا أن يؤدوا عملاً جيداً في الصف السابع، ومن ثم فشلوا فشلاً ذريعاً. وقد يكون هذا أقسى ضربة في الاختبار الصعب، وقد تقول المعلمة التي غشت لنفسها بأنها تساعد طلابها، لكنها في الواقع كانت مهتمة أكثر بمساعدة نفسها.

يكشف تحليل لمعطيات شيكاغو بكاملها الدليل على أن المعلمة تغش بأكثر من مئتي صف في العام، أي مقدار 5٪ من المجموع، وهذا تقدير محافظ؛ لأن اللوغاريتم يستطيع أن يحدد فقط أكثر أشكال الغش الفاضحة ـ وفيها يغير المعلمون إجابات الطلاب بشكل نظامي ـ وليس أكثر الطرق ذكاء التي يلجأ إليها المعلمون للغش، في دراسة حديثة بين معلمي مدارس نورث كارولاينا، قرابة 35٪ من الذين أجابوا قالوا: إنهم شاهدوا زملاءهم يغشون بطريقة ما، سواء بإعطاء الطلاب وقتاً إضافياً، أم بإعطاء الإجابات، أم بتغيير نتائج الطلاب يدوياً.

ماهي صفات الأستاذ الغشاش؟ تظهر معطيات شيكاغو أن المعلمين والمعلمات يميلون إلى الغش، يميل الأستاذ الذي يغش لأن يكون أصغر سناً وأقل خبرة عن المعدل الوسطي ويحتمل أكثر أيضاً أن يغش بعد تغير الحوافز، ولأن معطيات شيكاغو كانت من 1993 إلى سنة 2000، فقد ضمنت تقديم الاختبار الصعب في 1996. وطبقاً لذلك، هناك ارتفاع صوت حول الغش في 1996. ولم يكن الغش عشوائياً، فقد كان المعلمون في الصفوف ذات الدرجات المنخفضة هم أكثر احتمالاً لأن يغشوا، ويجب الانتباه إلى أن المنحة 25000 دولار لمعلمي كاليفورنيا قد سحبت أخيراً، وذلك بسبب الشكوك التي تُظهر أن كثيراً من الأموال كانت تذهب إلى المعلمين الذين يغشون.

لم تكن كل نتيجة في تحليل الغش في شيكاغو صارمة. فبالإضافة إلى تحري الغشاشين استطاع اللوغاريتم تحديد أفضل المعلمين في النظام الدراسي، فقد كان تأثير المعلم الجيد مميزاً، كما كان تأثير المعلم الغشاش، فبدلاً من الحصول

على إجابات صحيحة عشوائية، كان طلابها يظهرون تقدماً حقيقياً في الأسئلة والتي تركوها سابقاً، وهذه إشارة إلى تعلم حقيقي. وبذا ينتقل طلاب المعلمة الجيدة بمكاسبهم إلى الصف الأعلى.

تتجه أكثر التحاليل المدرسية من هذا النوع لأن تبقى، غير مقروءة، على رف المكتبة المغبرة. ولكن في أوائل عام 2002، اتصل المدير الجديد لمدارس شيكاغو العامة (Arne Duncan) بمؤلفي المنهاج. لم يكن يريد الاجتماع أو تسخيف ما اكتشفوه، بدل ذلك، أراد أن يتأكد من المعلمين الذين يحددهم اللوغاريتم، باعتبار أنهم غشاشون، هم غشاشون حقاً، ومن ثم يقوم بعمل تجاههم.

لم يكن دنكان مرشحاً لشغل عمل قوي كهذا. فقد كان عمره ستاً وثلاثين سنة عند تعيينه، وأكاديمي لمرة واحدة من هارفارد، ومن ثم لعب لصالح كرة السلة في أستراليا، وأحضر ثلاث سنوات لدى مدارس شيكاغو العامة ـ ولم يكن مهماً في عمله، بحيث يخصصون له سكرتيرة ـ قبل أن يصبح مديراً لها. ولم يكن مما يؤذي بأن دنكان قد ترعرع في شيكاغو، فقد علم أبوه الفلسفة في جامعة شيكاغو، وأدارت أمه برنامجاً بعد دوام المدرسة لمدة أربعين عاماً من دون أجرة في منطقة فقيرة، وعندما كان دنكان طفلاً كان رفاقه بعد المدرسة من الأطفال غير المتميزين، أي ممن كانت أمه ترعاهم، ولذلك عندما وصل إلى مدير المدارس الثانوية العامة، كان ولاؤه تجاه طلاب المدرسة وعائلاتهم أكثر من الأساتذة ونقابتهم.

وقرر دنكان أن أفضل طريقة للتخلص من الأساتذه الغشاشين هو إعادة إجراء الفحص المقنن، وكان عليه أن يعد لامتحان 120 صفاً من جديد، ولكن طلب من واضعي لوغاريتم الغش أن يساعدوه في اختيار الصفوف التي يعاد اختبارها.

ولكن كيف يمكن استخدام هذه الصفوف (وعددها 120) لإعادة اختبارهم بصورة أكثر جدوى، فكان يبدو من المعقول أن يعاد اختبار الصفوف التي يحتمل أن يكون فيهاأاستاذ غشاش، ولكن إن كانت درجات الاختبار المعاد متدنية، يستطيع

الأستاذ أن يناقش حتى أداء الطلاب الذي كان سيئاً فقط؛ لأنهم قد علموا أن اختباراتهم لن تحسب في سجلهم الرسمي ـ وهذا فعلاً، أخبر جميع من أعيدت اختباراتهم قيل لهم ذلك. ولجعل درجات الذين أعادوا فحوصهم مقنعة، كانت الحاجة إلى غير الغشاشين؛ ليكونوا مجموعة ضبط، أفضل مجموعة ضبط؟ والصفوف التي أظهرها لوغارتم الغش بأن فيها أفضل الأساتذة، وفيها حصلت مكاسب قانونية تماماً، إن احتفظت هذه الصفوف بمكاسبها بينما فقدت الصفوف ذات الأساتذة الغشاشين الأرضية التي يقفون عليها، فإن المعلمين الغشاشين يمكن أن يناقشوا بأن طلابهم أدوا أداءً سيئاً لمجرد أن الدرجات لا تحتسب.

ولذلك استقر الرأي على هذا الخليط أكثر من نصف الصفوف 120 التي كان اختبارها مشكوكاً فيه بأن فيها أساتذة غشاشين، وتوزيع الباقين بين صفوف ذات أساتذة ممتازين (علامات عالية ودون أي شك في مجموعة الإجابات) وضبط أكثر صفوف ذات علامات متوسطة ودون إجابات مشكوك فيها.

و أعطيت إعادة الفحص بضعة أسابيع بعد الفحص الأصلي، ولم يخبر الطلاب عن السبب لإعادة هذه الفحوص المعادة، كما لم يخبر المعلمون بذلك، لكنهم قد يكونون عرفوا الفكرة عندما أعلن أن مسؤولي مدارس شيكاغو العامة، وليس الأساتذة، سيديرون هذا الفحص، وطلب من المعلمين أن يبقوا في الصفوف مع طلابهم، ولكن لا يسمح لهم حتى بلمس ورقة الإجابة.

كانت النتائج مثيرة للاهتمام كما تنبأ اللوغاريتم، ففي الصفوف التي اختبرت بصفتها مجموعة ضبط حيث لا يشك بغش، بقيت الدرجات نفسها تقريباً أو حتى ارتفعت؛ وبالمقابل، كانت درجات الطلاب ذوي الأساتذة الذين حدد أنهم غشاشون أسوأ كثيراً بمعدل أكثر من درجة كاملة للمستوى الواحد.

نتيجة لذلك كان الدليل قوياً في مدارس شيكاغو العامة وكافياً للبدء بفصل من يغشون، وكان الدليل قوياً لدرجة التخلص من اثني عشر معلماً، ولكن

غشاشين كثيرين آخرين قد وُجّه إليهم إنذار، وكانت نتيجة دراسة شيكاغو لشهادة أبعد على قوة الحوافز وفي السنة التي أعقب ذلك، انخفض غش الأساتذة بمقدار يزيد عن 30٪.

قد نظن أن فلسفة المعلمين الذين يغشون تزداد مع مستوى المدارس، ولكن أعطى فحص في جامعة جورجيا في خريف 2001 يخالف تلك الفكرة، سميت المادة مبادئ التدريب وإستراتيجيات كرة السلة، وكانت الدرجة النهائية تعتمد على امتحان وحيد فيه عشرون سؤالاً، الأسئلة:

كم شوطاً يوجد في لعبة كرة السلة في الجامعة؟

a. 1 b.2 c.3 d.4

كم نقطة تحسب 3 ـ ب كهدف في لعبة كرة السلة؟

a. 1 b.2 c.3 d.4

ما اسم الاختبار الذي يجب أن يجتازه جميع الطلاب القدامى في الثانوية العامة في ولاية جورجيا؟

aـ فحص العين.

bـ كيف تشعر الفتيات بالامتحانات.

cـ اختبار السيطرة على السبق.

dـ اختبار جورجيا للتخرج.

برأيك من هو أفضل مدرب مساعد للقسم آ في البلاد؟

أ ـ رون جيرسا.

ب ـ جون فيلبري.

ج ـ جيم هاريك الابن.

د ـ ستيف فوسيشكويسكي.

إن تأثرت بالسؤال الأخير فقد يساعدك لأن تعرف أن مبادئ التدريب كان يعلمها جيم هاريك الابن وهو مدرب مساعد في فريق الجامعة لكرة السلة، وقد يساعدك أيضاً أن تعرف أن أباه جيم هاريك الأب كان المدرب الرئيس لكرة السلة. وليس من المدهش أن مبادئ التدريب كانت مادة مفصلة بين لاعبي فريق هاريك. وأعطي كل طالب في الصف درجة آ. وبعد مضي وقت ليس بالطويل، أعفي كلاهما من مهمة التدريب.

قد يخطر ببالك أنه من العار أن أساتذة شيكاغو وأساتذة جامعة جورجيا يغشون ـ والمعلم بعد كل شيء يقصد أن يضع القيم مع الحقائق ـ وعندئذ تكون فكرة الغش بين مصارعي السومو مزعجة أيضاً إزعاجاً عميقاً. ففي اليابان ليست السومو الرياضة الوطنية وحسب، لكنها أيضاً مجمع للعواطف الدينية والعسكرية والتاريخية، وبطقوسها التطهيرية وجذورها الملكية تكون السومو مقدسة بطريقة لاتستطيع أي رياضة أمريكية أن تكون مثلها، وبالفعل يقال: إن السومو أقل اهتماماً بالمنافسة من اهتمامها بقضية الشرف ذاته.

صحيح أن الرياضة والغش يتماشيان معاً، وذلك لأن الغش أكثر شيوعاً في وجه الحوافز على الخط الأبيض (الخط بين الفوز والخسارة مثلاً) أكثر من الحافز على الخط القاتم. فالرياضيون الأولمبيون في الجري ورفع الأثقال راكبو الدراجات في جولة حول فرنسا، ولاعب هجوم كرة القدم و رامي كرة القاعدة بقوة: تبين أن جميعهم قد تناولوا حبوباً أو مساحيق قد تعطيهم نشاطاً. ليس المشاركون وحدهم هم الذين يغشون، بل يحاول مديرو كرة القاعدة تقليد سرقة إشارات الخصم، وفي الأولمبياد الشتوي لعام 2000 ومنافسة التزلج الشخصي، ضُبط حكم فرنسي وآخر روسي وهما يحاولان تبديل الأصوات؛ ليتأكدوا من أن متزلجيهم كسبوا الميدالية، (الرجل المتهم بإدارة تبديل الأصوات، زعيم روسي مشهور يدعى آل ميزان توختا خونوف الذي اتهم بالتلاعب في عرض ملكات الجمال في موسكو).

إذا ما ضبط رياضي وهو يغش يصار إلى استنكار ذلك وإعلان عدم صلاحيته عموماً، لكن معظم المشجعين يثمنون دافعه على الأقل: كان يريد الفوز بشدة، فجعله ذلك يخرق القانون. (قال مارك غريس، وهو لاعب كرة القاعدة ذات مرة: إذا لم تغش، فإنك لم تحاول). فالرياضي الذي يغش ليخسر يلقى في دائرة عميقة من الجحيم الرياضي. إن فريق سوكس وايت من شيكاغو في 1919 الذي تآمر مع المقامرين على خسارة المباريات العالمية (ولذلك عرف إلى الأبد بالسوكس الأسود)، يحافظ على رائحة الظلم حتى بين مشجعي كرة القاعدة العابرين. وفريق كرة القاعدة في بطولة سيتي كولبيج في نيويورك، وكان ذات مرة محبوباً بسبب لعبه الذكي والمشاكس، إلا أنه صار محط السباب والشتائم عندما اكتشف في 1951 أن بعض لاعبيه قد أخذوا أموالاً لمسح النقاط ـ فقد أخطؤوا ببعض الرميات عمداً؛ ليساعدوا المقامرين على الفوز. هل تذكرون تيري مالوي، لاعب الملاكمة السابق المعذب والذي لعب دوره مارلون براندو في فيلم «على جبهة المطر» كما رأى مالوي، كانت كل مشكلاته تنشأ من معركة واحدة انخرط بها. ولولا ذلك، كان يمكن أن يكون له فئة، وكان يمكن أن يكون منافساً.

إن كان الغش للخسارة هو الخطيئة الرياضية الكبرى، وإذا كانت مصارعة السومو هي الرياضة الأولى لأمة عظيمة، فكيف يمكن أن يوجد الغش فيها؟ هل يمكن؟

مرة ثانية، تستطيع المعطيات أن تحكي القصة، كما حدث في اختبارات مدرسة شيكاغو، إذ تم وضع مجموعة المعطيات في الدراسة، وهاهنا هي ضخمة بصورة كبيرة، والنتائج من كل مباراة رسمية للسومو بين مصارعي المرتبة الأولى اليابانية بين كانون الثاني 1989 وكانون الثاني 2000 ومجموعها 32000 مباراة خاضها 281 مصارعاً مختلفاً.

إن خطة الحوافز التي تحكم لعبة السومو معقدة وقوية بصورة تفوق الطبيعة، بحيث يحتفظ كل مصارع بمرتبة تؤثر في كل جزء من حياته: كم يكسب من المال، وما هو التشجيع الذي يلقاه، وكم يحصل من أجل أن يأكل وينام، وإلا فإنه سيؤثر

في نجاحه، إن أقوى ستة وستين مصارعاً يتربعون في أعلى مرتبة في اليابان ويؤلفون فرق الماكوشو وجوريو، ويشكلون نخبة السومو. فالمصارع الذي يقترب من قمة هرم هذه النخبة يكسب ما لا يقل عن 170000 دولار في السنة. بينما يكسب المصارع ذو الترتيب السبعين في اليابان 15000 دولار في السنة فقط. ليست الحياة حلوة جداً خارج النخبة، فالمصارعون أصحاب المراتب الدنيا يجب أن يهتموا بمن هم أعلى منهم فيعدون لهم الوجبات وينظفون أماكنهم ويغسلون بالصابون الأماكن التي يصعب الوصول إليها من أجسامهم، فالمراتب هي كل شيء.

وتعتمد مرتبة المصارع على أدائه في منافسات النخبة التي تقام ست مرات كل سنة. ولكل مصارع خمس عشرة مباراة بالمنافسة، أي واحدة في اليوم خلال خمسة عشر يومياً على التوالي. فإن أنهى المنافسة بسجل رابح (ثمانية انتصارات أو أفضل) فسترتفع مرتبته، وإذا كان سجله خاسراً، فإن مرتبته ستنخفض. فإن كان السقوط إلى مكان بعيد فيصار إلى سحبه من مرتبة النخبة كلياً. فالنصر الآتي في المنافسة هو انتصار حاسم، وهو الفرق بين الترفيع وبين التنزيل، ويساوي بقيمته أربع مرات في المراتب من قيمة النصر العادي.

لذلك فالمصارع الذي يدخل اليوم الأخير من المنافسة على قناعة وسجله 7ـ7 عليه أنه سيكسب انتصاراً أكثر من الخصم الذي يحمل سجلاً 8ـ6.

فهل من المحتمل أن يسمح المصارع ذو السجل 8ـ6 بأن يهزمه المصارع ذو السجل 7ـ7؟ إن مباراة السومو تحتاج إلى قوة مركزة وسرعة رفع، وغالباً ما تدوم بضع ثوانٍ، وليس من الصعب جداً أن تترك نفسك تقذف إلى الأعلى، لتقبل للحظة بأن مصارعة السومو معدة، فكيف يمكن قياس المعطيات لإثباتها؟

قد تكون الخطوة الأولى هي عزل المكافأة: فأولئك الذين يخوضون اليوم الأخير من المنافسة بين مصارع على فقاعة (مهدد بالهبوط) ومصارع ضمن الفوز الثامن. (لأن أكثر من نصف المصارعين ينهون المنافسة بين مصارعيهم ولدى كل منهم سجل 7ـ7 لا يحتمل إثباتها؛ لأن كل المصارعين يحتاجون إلى

النصر حاجة شديدة، والمصارع الذي لديه عشرة انتصارات أو أكثر ربما لا يلقي مباراة أيضاً؛ لأن لديه حافزه القوي ليكسب جائزة 100000 دولار لبطولة المنافسة وسلسلة من جوائز 200000 دولار جائزة لأسلوبه البارز وجائزة «روح القتال» وجوائز أخرى.

لنفكر الآن بالإحصائية الآتية، وهي تمثل مئات المباريات قابل فيها مصارعون ذوو سجل 7ـ7 مصارعين ذوي سجل 8ـ6 في اليوم النهائي للمنافسة، العمود اليميني يحسب احتمالاً قائماً على جميع اللقاءات السابقة بين مصارعين يتقابلان في ذلك اليوم، وأن المصارع ذا السجل 7ـ7 سوف يفوز، والعمود اليساري يظهر كم مرة فاز المصارع ذو السجل 7ـ7 فعلاً:

مصارع بسجل 7ـ7 ويتوقع فوزه بنسبة مئوية على خصم السجل 8ـ6	مصارع بسجل 7ـ7 النسبة المئوية للفوز فعلاً على خصم بسجل 8ـ6
48.7	79.6

وهكذا فإن المصارع بسجل 7ـ7 وعلى أساس من نتائجه السابقة كان يتوقع أن يفوز باحتمال نصف عدد المرات وهذا معقول، فسجله في هذه المنافسة يبين أن المصارع بسجل 8ـ6 أفضل قليلاً، ولكن في الواقع كان المصارع على الفقاعة قد كسب تقريباً ثماني مباريات من أصل 10 مباريات ضد خصمه ذي السجل 8ـ7.

فالمصارعون على الفقاعة أيضاً قاموا بأداء مدهش ضد الخصوم بالسجل 9ـ5.

مصارع بسجل 7ـ7 النسبة المئوية للفوز الحقيقي على خصم بسجل 9ـ5	مصارع بسجل 8ـ7 النسبة مئوية المتوقعة لفوزه على خصم السجل 9ـ5
73.4	47.2

ويبدو هذا مثيراً للشك بالمقدار نفسه، فليست النسبة المئوية العالية للفوز كافية لتبرهن على أن المبارة مرتبة ولأن الكثير يعتمد على الفوز الثامن للمصارع، فإنه من المتوقع أن يقاتل بشدة في المبارة الحاسمة، ولكن قد تكون هناك دلائل في المعطيات تثبت وجود تواطؤ.

يجدر بنا التفكير في الحافز الذي قد يكون لدى المصارع لإهمال مباراة، فقد يكسب رشوة (وهذه ـ من الواضح ـ أنها لاتسجل بالمعطيات). أو ربما تعتمد بعض الترتيبات بين المصارعين، ولا يغرب عن بالك أن مجموعة نخبة مصارعي السومو هي عقدة مشدودة بصورة غير طبيعية، فكل من المصارعين الستة والستين يقاتل خمسة عشر مصارعاً في كل منافسة في كل شهرين، وفضلاً عن ذلك ينتمي كل مصارع إلى مجموعة يديرها طبعاً أحد أبطال السومو السابقين، لذا حتى المجموعات المتنافسة ذات علاقات وثيقة، (المصارعون من المجموعة نفسها لا يتصارعون فيما بينهم).

والآن لننظر إلى النسبة المئوية للفوز و الخسارة بين المصارعين ذوي السجل 7ـ7 والمصارعين ذوي السجل 8ـ6، في المرة الثانية التي يتقابلون معاً، حيث لا يوجد أي منهما على الفقاعة، في هذه الحالة، لايوجد ضغط كبير على المباراة المقررة، لذا يمكن أن تتوقع أن المصارعين الذين فازوا في مبارياتهم 7ـ7 في منافسات سابقة يكون أداؤهم بمستوى الجودة التي أدوها في المباريات السابقة ضد المنافسين أنفسهم ـ أي الفوز بنسبة 50٪ من المرات. وبالطبع أنك لا تتوقع أن يحافظوا على النسبة 80٪.

كما تبين، فإن المعطيات تظهر أن المصارعين ذوي السجل 7ـ7 يفوزون بنسبة 40٪ من المباريات المعادة، ثمانون بالمئة في المباراة الأولى، وأربعون بالمئة في الثانية؟ كيف تفهم هذا؟

إن التفسير المنطقي أكثر من غيره، وهو أن المصارعين قد عقدوا اتفاقية تعويض: أنت تدعني أفوز اليوم، عندما أكون بحاجة شديدة إلى الفوز، وأنا

سأجعلك تفوز في المرة الآتية. (ومثل هذا الاتفاق لا يستبعد رشوة مالية) ومن المفيد خصوصاً ملاحظة أنه في اللقاء الثاني للمصارعين، تعود نسبة الفوز إلى المستوى المتوقع وهو 50 بالمئة، وهذا يعني أن التواطؤ يفصل بين مبارتين فقط.

ليس المصارعون الأفراد هم الذين تكون سجلاتهم مشكوكاً بها فقط، فالسجلات المجمعة لمجموعات السومو المختلفة كافة هي كذلك مضللة. فعندما يكون مصارعو المجموعة الأولى هم على الفقاعة، فإنهم يميلون إلى الأداء الضعيف. وبصورة خاصة عندما يكونون ضد مصارعين من مجموعة أخرى على الفقاعة أيضاً، فتعقد الاتفاقات على أعلى المستويات الرياضية ـ و كثيراً ما تكون مثل تبديل تصويت حكام التزلج الأولمبيين.

لايوجد عمل مختص رسمي قد اتخذ ضد مصارع سومو ياباني بترتيب مباراة، والرسميون من هيئة السومو اليابانية لا يقبلون أي اتهامات و يعتبرونها اختراعاً من قبل مصارعين سابقين ساخطين. والحقيقة أن مجرد ذكر الكلمات «سومو» و «مرتبة» في جملة واحدة يمكن أن يسبب غضباً وطنياً. يتجه الناس إلى الدفاع عندما يطعن بسلامة.. رياضتهم الوطنية.

لا تزال تعهدات ترتيب المباراة تجد أحياناً طريقها إلى وسائل الإعلام في اليابان، وهذه الزوابع الإعلامية تعرض فرصة أخرى لقياس الغش الممكن في السومو، وحذاقة وسائل الإعلام تخلق، بعد كل شيء حافزاً قوياً، إذا كان مصارعا السومو أو كانت مجموعاتهما ترتب مباريات، فقد يكونان حذرين (ماكرين) ولايستمران عندما تهاجمهما مجموعة الصحف وكاميرات التلفاز.

إذن، ما الذي يحدث في مثل هذه الحالات، ترى المعطيات أن منافسات السومو المقامة بعد تعهد ترتيب المباراة بين المصارعين ذوي السجل 7ـ7 يفوزون بخمسين بالمئة من مبارياتهم في اليوم الأخير مع المصارعين ذوي السجل 8ـ6 بدلاً

من النسبة المئوية النموذجية 80٪ ولايهم كيف تقسم المعطيات، فهي بالضرورة تشير إلى شيء واحد: من الصعب أن نناقش بأن مصارعة السومو غير مرتبة.

قبل بضع سنوات تقدم مصارعان سابقان من مصارعي السومو باتفاقيات موسعة لترتيب المباريات، وأكثر من ذلك، وبعيداً عن المباريات الماكرة والملتوية، قال هذان: إن السومو مشهورة بالمخدرات والتحرش الجنسي وبالتهرب من الضرائب وذات صلات صحيحة مع الياكوزا، وهي المافيا اليابانية، وبدأ هذان الشخصان يتلقيان التهديد عبر الهاتف، وأخبر واحد منهما أنه خائف من أن تقتله الياكوزا، ومازالا يمضيان قدماً بخططهما لعقد مؤتمر صحفي في نادي المراسلين الأجانب في طوكيو، ولكن فجأة وقبل ذلك مات الرجلان، بفارق ساعات في المستشفى ذاتها من مرضها في الجهاز التنفسي. صرحت الشرطة أنه لا توجد جريمة، لكنها لم تقم بإجراء أي تحقيق.

وقال ميتورو مياكي، رئيس تحرير مجلة خاصة بالسومو: يبدو من الغريب أن يموت الشخصان في اليوم ذاته وفي المستشفى ذاتها ولكن لم يرهما أحد وهما يسممان، ولذلك لايمكنك إثبات الشك.

سواء أكان موتهما مقصوداً أم لا، فإن الرجلين فعلا ما لم يفعله أي مصارع سومو داخلي من قبل. لقد سموا أسماء. فمن أصل 281 مصارعاً شملتهم المعطيات المذكورة أعلاه، حددا 29 مصارعاً غشاشاً و11 مصارعاً قالا عنهما: إنهم غير فاسدين.

ماذا يحدث عندما يقول (الحكام، نافخو الصافرات): إن الدليل يوضع في تحليل معطيات المباراة ؟ في المباريات بين مصارعين يفترض أنهما فاسدان، كان المصارع الذي على الفقاعة قد كسب قرابة 80٪ من الوقت. وفي مباريات الفقاعة ضد خصم يعتقد أنه نظيف، فإن المصارع على الفقاعة لم يكن يحتمل سوى أن يفوز بأكثر مما تنبأ سجله، وأبعد من ذلك، عندما يواجه مصارع، يعتقد أنه فاسد، خصماً لم يسمه نافخو الصافرات فاسداً أو نظيفاً، تكون النتيجة

مـرتبـة كـمـا حـصل عندمـا تقـابل المصـارعون الفـاسـدون، وهذا يعني أن معظم المصارعين الذين لم يصرح بأسمائهم كانوا فاسدين أيضاً.

إذا كان مصارعو السومو ومعلمو المدارس وأولياء أمور الأطفال في مدارس العناية النهارية جميعاً يغشون، فهل نفترض أن بني البشر أصلاً وعلى المستوى العالمي فاسدون؟ وإذا كان الأمر كذلك، وإلى أي درجة هم فاسدون؟

قد يكون الجواب في.. أرغفة الخبز. فكر في القصة الحقيقية لرجل اسمه بول فيلدمان.

حلم فيلدمان ذات مرة حلماً كبيراً. وبوصفه قد تدرب في مجال الاقتصاد الزراعي، أراد أن يحارب الجوع في العالم. وعوضاً عن ذلك، قبل عملاً في واشنطن، أي محللاً لنفقات الأسلحة في بحرية الولايات المتحدة. وكان هذا في سنة 1962. ولمدة عشرين سنة أعقبت ذلك قام بالعمل نفسه. فكان موظفاً من الدرجة العليا وكسب مالاً لا بأس به، لكنه لم يكن مرتبطاً تماماً بعمله. وفي حفلة الإدارة بعيد الميلاد، يقوم زملاؤه بتقديمه إلى زوجاتهم لا على أنه (رئيس مجموعة الأبحاث العامة ـ وهذا هو منصبه) بل على أنه «الشخص الذي يأتي بأرغفة الخبز».

بدأت الأرغفة كحركة عرضية: يعامل الرئيس مستخدميه، حينما يكسبون عقداً للبحث، ومن ثم صنع الرغيف كعادته، حتى في يوم الجمعة، كان يحضر بعض الأرغفة، وسكيناً للقطع والتوزيع وجبنة مطبوخة. وعندما يسمع المستخدمون من الطوابق المجاورة عن الأرغفة، كانوا يريدون بعضاً منها أيضاً. وفي النهاية كان يجلب خمس عشرة دزينة من الأرغفة كل أسبوع، وحتى يعوض التكاليف، وضع سلة لجمع النقود ولافتة تبين السعر المقترح، وكان معدل جمع المال يبلغ 95٪، وكان يعزو نقص المدفوعات إلى الإهمال وليس إلى الاحتيال.

في عام 1984، وعندما أصبحت مؤسسة الأبحاث تحت إدارة جديدة، ألقى فيلدمان نظره على مهنته ولوى وجهه، وقرر أن يترك عمله وأن يبيع الأرغفة. وظن

أصدقاؤه الاقتصاديون أنه قد فقد عقله، لكن زوجته أيدته. وكان آخر أولادهم الثلاثة يبحث عن جامعة، وقد استردوا رهنهم.

وكان يناشد الزبائن بلهجة بسيطة، وهو يدور حول موقف سيارات المكتب الذي يحيط بواشنطن: وفي الصباح الباكر، يعطي بعض الأرغفة وسلة للنقود إلى غرفة مطعم الشركة، ويعود قبل الغداء ليجمع المال وما يتبقى. كان العمل خطة تجارية شريفة، ونجح. وخلال بضع سنوات أصبح فيلدمان يوزع 8400 رغيفاً في الأسبوع وإلى 140 شركة ويكسب بقدر ما كان يكسب من تحليل الأبحاث، لقد استغنى عن القيود والحياة المعقدة وأصبح سعيداً.

وصمم ـ دون قصد منه ـ تجربة اقتصادية حلوة. فمنذ البداية، حافظ فيلدمان على معطيات دقيقة عن عمله. وهكذا بقياس أعلى مجموع مقابل الأرغفة المأخوذة، وجد أنه من الممكن معرفة كل شيء حتى القرش الناقص.. هل كان الزبائن شرفاء، هل سرقوا منه؟ وإن كان هذا صحيحاً، فما هي مواصفات الشركة التي سرقت مقابل الشركة التي لم تسرق؟ وبأي ظروف يتجه الناس إلى السرقة أكثر أو أقل؟

وكما يحدث، تقدم دراسة فيلدمان العرضية نافذة على شكل الغش الذي أحبط الأكاديميين زمناً طويلاً: جريمة الياقة البيضاء (نعم اختصار رجل الخبث إلى جريمة الياقة البيضاء مهما كان صغيراً) قد يبدو الأمر سخيفاً أن توجد مشكلة كبيرة ومعقدة كجريمة الياقة البيضاء خلال حياة رجل الرغيف، ولكن يمكن أن يساعد غالباً سؤال صغير وبسيط لأن يزيل المشكلات الكبيرة.

وعلى الرغم من كل الانتباه الذي وجهه إلى الشركات المارقة مثل شركة إينرون، يعرف الأكاديميون قليلاً عن إمكانيات وعمليات جريمة الياقة البيضاء. والسبب لاتوجد معطيات جيدة، والحقيقة الأساسية في جريمة الياقة البيضاء هي أن نسمع عن الجزء الصغير جداً من الناس الذين يضبطون بالغش،

ومعظم الذين يعيشون حياة سعيدة هادئة نظرياً: المستخدمون الذين يسرقون أموال الشركة، نادرًا ما يتم اكتشافهم.

ولكن مع جرائم الشارع ليست هذه هي القضية. فالسلب أو السطو أو جرائم القتل عادة تسجل، سواء ضبط المجرم أم لا. جريمة الشارع لها ضحية وهو الذي ينقل الخبر عن الجريمة إلى الشرطة، وتقوم الشرطة بتوليد المعطيات، التي بدورها تولد آلافاً من الأوراق الأكاديمية من قبل علماء الجريمة وعلماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد. لكن جريمة الياقة البيضاء لا تقدم ضحية واضحة. من هم بالضبط الذين سرقهم أسياد إينرون؟ فكيف تستطيع أن تقيس شيئاً إن كنت لاتعرف مع من حدث أو كم تكرر أو بأي حجم حدث؟

لقد كانت شركة فيلدمان للأرغفة مختلفة، إنها مثلث ضحية، الضحية كانت فيلدمان.

ثم بدأ عمله وتوقع المدفوعات بمعدل 95٪ على أساس خبرته من مكتبه، ولكن حيث تتجه الجريمة في الشارع إلى الانخفاض، إذ تقف سيارة الشرطة، فإن نسبة 95٪ عالية ظاهرياً: فوجود فيلدمان أعاق السرقة، ولم يكتفِ بذلك؛ إن آكلي الأرغفة أولئك عرفوا المورد ولديهم مشاعر (وربما مشاعر جيدة) نحوه. وأظهر عرض كبير لبحث نفسي واقتصادي أن الناس سيدفعون مقادير مختلفة من المال لقاء السلعة ذاتها بالاعتماد على من يقدم هذه السلعة. فالاقتصادي ريتشارد ثالر، في دراسته عام 1985 «البيرة على الشاطئ» أظهر أن المستحم الغشاش يدفع 2.65 دولاراً لقاء البيرة التي يقدمها فندق المنتجع، ولكنه لايدفع إلا 1.50 دولاراً فقط للبيرة ذاتها إذا جاءت من دكان بقالة بسيط.

في العالم الحقيقي، تعلم فيلدمان الثبات على أقل من نسبة 95٪ فقد اعتبر الشركة «أمنية» إذا كان معدل ما تدفعه أكثر من 90٪ واعتبر النسبة المئوية ما بين 80 ٪ و90٪ «مقلقة لكنها محتملة» وإذا دفعت الشركة بصورة اعتيادية أقل من 80٪، فمن المحتمل أن يرسل فيلدمان مذكرة إنذار كهذه:

لقد ارتفعت قيمة الأرغفة ارتفاعاً دراميأ منذ بداية السنة. ومن سوء الحظ أن عدد الأرغفة التي تختفي دون أن يدفع ثمنها قد زاد أيضاً، فلا تدعوا ذلك يستمر، ولا أتخيل أنكم تعلمون أولادكم أن يغشوا، فلماذا تفعلون ذلك أنتم؟

في البداية كان فيلدمان يترك وراءه سلة للنقود ولكن غالباً ما كانت تختفي، ثم جرب علبة قهوة وضع على غطائها البلاستيكي فتحة للنقود، وقد أثبت أيضاً أنها مغرية. وفي النهاية، لجأ إلى صنع صندوق صغير من الخشب المضغوط وفيه شق فتحة، لقد نجح الصندوق الخشبي. وكان في كل سنة يرمي سبعة آلاف صندوق ويخسر، وسطياً، واحداً فقط بالسرقة، وهذا إحصاء معقد: فالناس ذاتهم الذين يسرقون أكثر من 10٪ من أرغفة، لم يسرقوا أياً من علب المال ـ وهذه مقدمة للفرق البسيط في الحساب التفاضلي الاجتماعي للسرقة، فمن منظور فيلدمان، إن عامل المكتب الذي يأكل رغيفاً من دون أن يدفع ثمنه يرتكب جرماً، وربما لايعتقد ذلك عامل المكتب. وربما كان لهذا التمييز الشيء القليل لعمله مع كمية المال الصغيرة الداخلة في الموضوع (كلفة رغيف فيلدمان دولار واحد بما في ذلك الجبنة المستعملة) وأقل من سياق «الجريمة» إن عامل المكتب ذاته الذي لايدفع ثمن الرغيف قد يساعد نفسه أيضاً بجرعة طويلة من الصودا وهو يملأ الكأس من مطعم الخدمة الذاتية، لكن لايحتمل أبداً أن يترك المطعم دون أن يدفع.

إذن، ماذا لدى معطيات الأرغفة لتقوله؟ في السنوات الأخيرة، كان هناك اتجاهان جديران بالملاحظة في معدلات المدفوعات الإجمالية، كان الأول انحداراً طويلاً وبطيئاً بدأ في 1992، ولكن في صيف 2001 انخفض المعدل إلى مايقرب من 87٪. ولكن في أعقاب 11 إيلول من تلك السنة ارتفع المعدل 2٪ ولم ينخفض عند ذلك كثيراً (إذا كانت الزيادة في المدفوعات 2٪ لاتعتبر كثيراً، إذن فكر في الأمر بهذا الشكل: هبطت نسبة الدفع (72) من 13 إلى 11٪، وهذا يصل إلى انخفاض 15٪ من السرقة) لأن العديد من زبائن فيلدمان مرتبطون بالتأمين الوطني، ربما كان هناك عنصر وطني تجاه آثار 9/11 أو قد يمثل ارتفاعاً عاماً أكثر في التعاطف.

وتظهر المعطيات أيضاً أن المكاتب الأصغر أكثر أمانة من المكاتب الكبيرة. فالمكتب الذي فيه بضع عشرات من المستخدمين يدفع 3 ـ 5٪ أكثر من مكتب فيه بضع مئات من المستخدمين. قد يظهر هذا مضاداً للحدس، ففي المكتب الكبير، ازدحام أكبر مجبر على الاجتماع حول طاولة الأرغفة، فيكون هناك شهود أكثر ليتأكدوا من أنك وضعت الثمن في العلبة، ولكن بمقارنة المكتب الكبير والمكتب الصغير، تبدو جريمة الرغيف أنها تعكس جريمة الشارع. فهناك جرائم شارع أقل كثيراً في المناطق الريفية مما في المدن: ويعود السبب في ذلك إلى أن المجرم الريفي يحتمل أنه معروف (ولذلك يضبط) وكذلك يتجه المجتمع الصغير إلى ممارسة حوافز اجتماعية كبيرة ضد الجريمة، والحافز الرئيس «أن ذلك عيب».

وتعكس معطيات الأرغفة أيضاً كيف يؤثر المزاج الشخصي في الأمانة، فالطقس مثلاً عامل كبير، فالطقس المبهج في غير موسمه يوحي للناس أن يدفعوا نسبة أعلى، والطقس البارد في غير موسمه يجعل الناس يغشون كثيراً، وكذلك يفعل الطقس الماطر والعاصف. وأسوأ شيء هي العطلات، فأسبوع الميلاد ينتج انخفاضاً بنسبة المدفوعات تبلغ 2٪ مرة ثانية، وزيادة 15٪ في نسبة السرقة، ونتيجة بالفخامة نفسها، وعكس ذلك كما في 9/11. وعيد الشكر سيء بقدر مماثل، وأسبوع عيد الحب سيء جداً أيضاً، وكذلك الأسبوع الذي يفصله 15 نيسان. ولكن هناك بضع عطلات جيدة: الأسابيع التي تشمل الرابع من تموز وعيد العمل وعيد كولمبوس، ما الفرق بين المجموعتين من العطلات؟ إن العطلات التي تتميز أكثر قليلاً من يوم عطلة عن يوم العمل. والعطلات التي تتميز بغش كبير محملة بقلق متنوع وتوقعات كبيرة ممن نحبهم.

توصل فيلدمان أيضاً إلى بعض من استنتاجاته حول الأمانة التي تعتمد على خبرته أكثر مما تعتمد على المعطيات. فقد توصل إلى الاعتقاد بأن الأخلاق عامل كبير، وأن المكتب أكثر أمانة عندما يحب العاملون رئيسهم وعملهم.

ويعتقد أيضاً أن العاملين في المراكز العليا في السلم الوظيفي يغشون أكثر من أولئك الذين في أول السلم. وتوصل إلى هذه الفكرة بعدما قام بالتوصيل مدة سنوات إلى شركة تنتشر على ثلاثة طوابق ـ طابق التنفيذيين في الأعلى، والطابقان الآخران تحته للمبيعات والصيانة والعاملين الإداريين (وتعجب فيلدمان إذا كان المديرون التنفيذيون يغشون بسبب شعورهم بحقهم الذي تطور كثيراً. وما لم يفكر فيه هو أن ذلك الغش ربما يفسر كيف توصلوا إلى أن يكونوا مديرين تنفيذيين.

إذا كانت الأخلاق تمثل الطريق التي نحب أن يعمل العالم بها، وكان الاقتصاد يمثل كيف يعمل هذا العالم فعلاً، فإن قصة شركة الأرغفة تقع عند تقاطع الأخلاق والاقتصاد. نعم لقد سرق منه الكثيرون، لكن الغالبية العظمى، مع أنه لا يوجد من يراقبها، لم تسرقه: هذه النتيجة قد تفاجئ بعض الناس ـ بمن فيهم أصدقاؤه الاقتصاديون الذين تشاوروا معه قبل عشرين سنة بأن خطة الأمانة الفطرية لن تفلح. ولكنها ما كانت لتفاجئ آدم سميث. وفي واقع الحال،إن موضوع أول كتاب لسميث «نظرية العواطف الأخلاقية» كان الأمانة الطبيعية للجنس البشري، فكتب سميث «كم يفترض أن الإنسان أناني، هناك مبادئ واضحة في طبيعته، وهي تجعله مهتماً بثروة الآخرين وتقدم له سعادتهم اللازمة له، مع أنه لا يشتق شيئاً منها، سوى السرور برؤيتها».

هناك قصة يقصها فيلدمان أحياناً على أصدقاء الاقتصاديين وعنوانها «خاتم جيجيس».

وتأتي القصة من جمهورية أفلاطون، إذ قدم تلميذ اسمه غلوكون القصة رداً على درس لسقراط، الذي ناقش مثل آدم سميث أن الناس عموماً جيدون حتى من دون إكراه. وغلوكون مثل أصدقاء فيلدمان الاقتصاديين، لم يوافق. روى قصة الراعي جيجيس الذي تعثر بمغارة سرية، فيها جثة بداخلها تلبس خاتماً. ولما

لبس الراعي الخاتم، وجد أنه أصبح مختفياً لايرى. ولما لم يكن هناك أحد يراقب سلوكه، راح جيجيس يقوم بأعمال فظيعة، فأغوى الملكة، وقتل الملك وهكذا وضعت قصة جيجيس سؤالاً أخلاقياً: هل يستطيع أي إنسان أن يقاوم إغراء الشر إذا عرف أن أعماله لا يمكن أن يشاهدها أحد؟ ويبدو أن غلوكون وجد أن الإجابة عن السؤال: لا. ولكن فيلدمان يأخذ جانب سقراط وآدم سميث؛ لأنه يعرف أن الجواب هو بنسبة 87٪ على الأقل: نعم.

إن ليفيت هو أول من رأى بعضاً من موضوعات، مثل دراسة التمييز العنصري في برنامج الحلقة الأضعف ويقع عند حدود التفاهة، لكنه يبين لاقتصاديين آخرين كيف تستطيع أدواتهم أن تجعل العلم الحقيقي ذا معنى. يقول كولين ف.كاميرار، وهو اقتصادي في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا: يعتبر ليفيت واحداً من الناس المبدعين في الاقتصاد، وربما في العلوم الاجتماعية كلها، وهو يمثل شيئاً يعتقد جميع من يدخلون لمتابعة الدراسات العليا في الاقتصاد أنهم سيكونون هذا الشيء، لكنهم يكون عندهم شرارة إبداع في الرياضيات التي لا نهاية لها، وهي نوع من التحري العقلي الذي يحاول منحهم المادة.

مجلة النيويورك تايمز ٣ آب ٢٠٠٣



كيف تتشابه جمعية الكوكلوس كلان مع مجموعة الوسطاء العقاريين؟

كما تسير المؤسسات، كان لجمعية الكوكلوس كلان ارتفاعات كبيرة وكذلك هبوط كبير في تاريخها. فقد تأسست في أعقاب الحرب الأهلية مباشرة على يد جنود اتحاديين سابقين في بولاسكي في ولاية تينيسي. فقد رأى هؤلاء الشباب الستة، ومنهم أربعة محامين ناشئين، أنفسهم مجرد كوكبة أصدقاء تتشابه عقولهم ـ ومن هنا اختاروا كلمة «كلوكس» وهي تشويه بسيط للكلمة اليونانية كوكلوس ومعناها «الجماعة/الحلقة». وأضافوا إليها كلمة «كلان» ومعناها القبيلة؛ لأنهم جميعاً من أصل أسكتلندي ـ إيرلندي. وفي البداية يقال إن أنشطتهم كانت مزاحاً «ليلياً» لا يؤذي أحداً ـ يركبون خيولهم عبر المناطق الريفية وهم يلفون أنفسهم بشراشف «ملايات» بيضاء ويضعون أكياس الوسائد على رؤوسهم مثل قلنسوات. ولكن سرعان ما تطورت «الكلان» إلى منظمة إرهابية في ولايات متعددة مصممة لإخافة العبيد المحررين وقتلهم. ومن بين قادتها الإقليمين كان خمسة جنرالات سابقين من الاتحاد، وكان مؤيدوها الأوفياء أصحاب المزارع الذين كانت إعادة البناء كابوساً اقتصادياً وسياسياً لهم. في سنة 1872، قال الرئيس يولسيس س غرانت أمام مجلس النواب الأهداف الحقيقية لجمعية الكوكلوكس كلان: بالقوة والترهيب لمنع كل عمل سياسي لا يتوافق مع وجهة نظر الأعضاء ولحرمان المواطنين الملونين من حقوقهم في حمل السلاح ومن حقهم بالتصويت الحر، وللضغط على المدارس التي يجري تعليم الأطفال الملونين فيها.

ولتقليل الناس الملونين إلى ظروف ترتبط جداً «بظروف العبودية» قامت الجمعية في البداية بعملها عن طريق تأليف منشورات ونشرها، والإعدام من

غير محاكمة قانونية، وإطلاق النار والحرق والتشويه والتهديد بالسلاح وبآلاف أشكال التخويف. وكان هدفهم العبيد السابقين وأياً من البيض الذين يدعمون الزنوج بالتصويت أو الحصول على الأرض أو التحصيل العلمي. لكن وخلال عقد من الزمن فقط أطفئت جذوة الجمعية، وذلك عن طريق تدخلات قانونية وعسكرية من واشنطن العاصمة. ولكن إذا كانت الجمعية، نفسها قد هزمت، فإن أهدافها تحققت بشكل كبير من خلال مؤسسة قوانين جيم كرو. والكونغرس الذي نشط خلال إعادة البناء سريعاً في تنفيذ إجراءات الحرية القانونية والاجتماعية والاقتصادية للسود، قد بدأ بالسرعة ذاتها بطي هذه الإجراءات. وافقت الحكومة الاتحادية على سحب قوات احتلالها من الجنوب، وسمحت بذلك باستعادة حكم البيض. في قضية بليسي ضد فيرغسون أعطت المحكمة العليا أمر المضي إلى مدى كامل من الفصل العرقي. وجعلت جمعية كوكلوكس كلان نائمة بشكل كبير حتى عام 1915 أي عندما قام فيلم د. و. غريفيث «ولادة أمة» ـ وكان عنوانه الأصلي رجل الجماعة ـ كمساعدة اندلاع شرارة مولدها من جديد، قدم غريفيش الجماعة كالصليبيين بالنسبة لحضارة البيض ذاتها، وكواحدة من أنبل القوى في التاريخ الأمريكي واقتبس الفيلم سطراً من تاريخ الشعب الأمريكي الذي كتبه المؤرخ الشهير «وأخيراً برزت إلى الوجود جمعية الكوكلوس كلان العظيمة، الإمبراطورية الحقيقية في الجنوب؛ لتحمي البلاد الجنوبية»، وكان مؤلف الكتاب رئيس الولايات المتحدة وودرو ويلسون، الذي كان العالم ورئيس جامعة برنستون معاً.

وفي العشرينيات، ادعت جمعية ناشطة أن أعضاءها الثمانية ملايين، بمن فيهم الرئيس وارف ج. هاردينغ، الذي يروى أنه أقسم يمين الولاء لجمعيته في الغرفة الخضراء في البيت الأبيض، وفي هذه المرة لم تكن الجمعية مقصورة على الجنوب، لكنها امتدت في جميع أنحاء البلاد، وفي هذه المرة لم تهتم بالسود

فقط، إذ اهتمت بالكاثوليك واليهود والشيوعيين والنقابيين ومهيجي المشاعر والمزعجين الآخرين للوضع الحالي. وفي 1933، بينما كان هتلر يصعد في ألمانيا، كان ويل روجرز أول من وضع خطاً بين الجمعية الجديدة والتهديد الجديد في أوربا، فكتب: «تقول الصحف: إن هتلر يحاول أن يقلد موسوليني، ويبدو لي وكأنه يقلد جمعية كوكلوس».

إن بداية الحرب العالمية الثانية وعدداً من الفضائح الداخلية وضعت الجمعية في وضع متدنٍ، فقد تحولت المشاعر الوطنية ضد الجمعية عندما تفوقت وحدة البلاد في الحرب على رسالتها بالانفصال.

ولكن خلال بضع سنوات كانت هناك إشارات لانتعاش كبير، فعندما يتراجع قلق زمن الحرب ينمو عدم اليقين بعد الحرب، وازدهرت عضوية الجمعية. ومجرد شهرين بعد يوم النصر، أحرقت الجمعية في أتلانتا صليباً طوله 300 قدم على جبل ستون، وهو موقع لمخزن منحوت صخري لروبرت ي لي، وقال أحد رجال الجمعية فيما بعد: إن الصليب الغالي قصد منه «أن يعرف السود فقط أن الحرب قد انتهت، وأن الجمعية قد عادت إلى الوجود».

وأصبحت أتلانتا الآن مركزاً لقيادة الجمعية. واحتلت الجمعية مكاناً عظيماً لدى السياسيين الرئيسين في جورجيا، وضمت فروعها في جورجيا رجال الشرطة ونواب رئيسها والمسؤول القضائي. نعم كانت الجمعية مجتمعاً سرياً يمرح بكلمات السر والوسائل والمعاطف والخناجر، لكن قوتها الحقيقية تكمن في خوف العامة الذي ازداد، وتمثل ذلك في السر المكشوف، وهو أن جمعية الكوكلوس كلان ومؤسسة فرض القانون كانوا إخوة السلاح.

كانت أتلانتا ـ وهي المدينة الإمبراطورية لإمبراطورية جمعية كوكلوس كلان السرية، بلغة الجمعية ـ موطنَ أيفا لستيتون كنيدي، وهو شاب في الثالثة من عمره من أصلاب الجمعية، لكن بمزاج يسير بالاتجاه المعاكس، فهو من عائلة

بارزة في الجنوب، من بين أسلافها اثنان موقِّعان على إعلان الاستقلال، ضابط في الجيش الاتحادي وجون ب. ستيتون، مؤسس شركة القبعات المشهورة، وهو الرجل الذي سميت جامعة ستيتون باسمه.

ترعرع ستيتون كينيدي، في بيت ذي أربع عشرة غرفة في جاكسون فيل، وهو الأصغر بين خمسة أطفال. وكان عمه برادي رجل كلانسمان (جمعية)، لكنه حصل على اكتشافه الحقيقي للجمعية عندما كانت خادمة العائلة (فلو) التي ساهمت كثيراً في تربية ستيتون، مربوطة إلى شجرة، وقد اغتصبتها عصابة من الجمعية. وكان ذنبها ردها على سائق عربة أبيض أعطاها باقي نقودها ناقصة.

ولأن كينيدي لم يتمكن من القتال في الحرب العالمية الثانية ـ وكان ظهره يؤلمه منذ طفولته ـ شعر أنه مضطر لأن يدافع عن بلاده في بلاده، وكان أشد أعدائها كما اعتقد، هو التعصب. وأصبح كنيدي بوصفه هو «المنسق الكبير» يكتب مقالات وكتباً ضد التعصب. وأصبح صديقاً حميماً لوودي غاثري، وريتشارد رايت ومجموعة من التقدميين الآخرين، وقد طبع جان بول سارتر كتابه في فرنسا.

لم تأت الكتابة إلى كنيدي بسهولة أو بطريقة سعيدة، فقد كان بالأصل ولداً ريفياً يفضل أن يصطاد في المستنقعات، لكنه تأثر بحب متهور لقضيته، فقد تابع كينيدي؛ ليصبح العضو غير اليهودي في جهود الميثاق المعادي لتشويه السمعة ما بعد الحرب لبداية الضرب بقوة. (فقد صاغ العبارة «قوة العبوس» وهي القطعة المركزية لحملة ضغط الأصدقاء ADL الميثاق المعادي لتشويه السمعة). وأصبح المراسل الأبيض الوحيد لجريدة بيتسبيرغ، وهي أكبر صحيفة للسود. (كتب عموداً حول الصراع العرقي في الجنوب تحت اسم مستعار، دادي مينشن، وهو بطل شعبي أسود وكما تقول الأسطورة استطاع التفوق على الزمن بسرعة إطلاق النار).

والذي دفع كنيدي هو كرهه لسذاجة العقل والجهل والإعاقة والتخويف، وكلها من وجهة نظره لم تكن أي منظمة تكشفها بكبرياء أكثر من كوكلوس كلان.

فقد رأى كنيدي الجمعية كسلاح إرهابي للمؤسسة البيضاء ذاتها. وهذا صدمه، باعتبار أنها مشكلة صعبة لأسباب متنوعة، فكانت الجمعية متعاونة جداً مع القادة السياسيين والتجاريين والقادة الذين ينفذون القانون، وكانت العامة خائفة وشعرت بأنها لا حول لها ولا قوة أمام الجمعية ومجموعات قليلة معادية للكراهية التي وجدت في وقت كان لها قوة صغيرة أو حتى أي معلومات عن الجمعية، وكما كتب كنيدي فيما بعد أنه أصيب بغم بصورة خاصة لحقيقة أساسية واحدة حول الجمعية» كل الأشياء تقريبا التي كتبت حول الموضوع كانت افتتاحيات وليست بيانات وفضائح. كان الكتاب ضد الجمعية حتماً، ولكن كان لديهم حقائق قليلة محققة وداخلية عنها؛ لذلك قرر كأي متهور غير خائف، وهو ضد النمو أن يذهب بشكل سري وينضم إلى جمعية كوكلوكس.

ففي أتلانتا، بدأ يتسكع حول صالة تجمعٍ، حيث يلقي قاطنيها بالنظرة القاسية للجمعية حولهم كما كتب فيما بعد، وجلس بجانبه شخص اسمه «سليم» سائق سيارة عامة، في المقهى بعيد ظهر أحد الأيام. قال سليم: إن ما تحتاجه هذه البلاد جمعية كلوكسينغ جيدة. فهذه هي الطريقة الوحيدة للمحافظة على السود واليهود والكاثوليك من الإسبان والطليان والحمر في أماكنهم.

فقدم كنيدي نفسه على أنه جون س بيركنز، وهو اللقب الذي تبناه لمهمته وأخبر سليم بصورة حقيقية أن عمه برادي بيركنز في فلوريدا كان ذات مرة غريت تيتان مع الجمعية، وسأله: لكنهم ماتوا الآن أليس كذلك يا سليم؟!

و شجع هذا سليم لأن يظهر بجماعته كافة، هنا البارحة واليوم وإلى الأبد تقوم جمعية كوكلس كلان، يا ربي أعطنا رجالاً. أخبر سليم بيركنز أنه كان محظوظاً؛ لأنه كانت توجد عضوية قبل الآن. الرسم الأولي 10 دولارات، وكانت ذروة مبيعات الجمعية، هل تكره الزنوج؟ هل تكره اليهود؟ هل معك عشرة دولارات؟ وقد أنقصت إلى ثمانية دولارات، ثم كانت هناك عشرة دولارات أخرى كرسم سنوي، كما كان هناك خمسة عشر دولاراً ثمن ثوب ذي قبعة.

حاول كنيدي مناقشة الرسوم المختلفة، متظاهراً أنه يسعى جاهداً للحصول عليها، لكنه وافق على الانضمام. ولم يمض وقت طويل حتى أقسم يمين الجمعية، في اجتماع إحدى الليالي كان قد بدأ على قمة جبل ستون. وبدأ كنيدي بحضور اجتماعات الجمعية الأسبوعية، وهو عائد إلى البيت بعد كتابة ملاحظات في كتابة سرية هو اخترعها، عرف هويات قياداتها المحلية والإقليمية وفك رموز الترتيب الهرمي للجمعية وطقوسها ولغتها وكان من عادة الجمعية إضافة k1 إلى الكثير من الكلمات، وبذلك يتواعد شخصان من الجمعية كمحادثة في المقهى المحلي. وكان انطباع كنيدي أن معظم العادات ولاديّة مضحكة، فمصافحة الجمعية السرية مثلاً كانت باليد اليسرى وهزّ المعصم كارتجاف سمكة. وعندما يريد مسافر من الجمعية أن يلقى عضواً ببلدة غريبة، فإنه يسأل عن السيد آياك أيضاً، وهذا هو الدافع للقول: «عضو الجمعية أنا».

وبعد وقت قصير دعي كنيدي إلى الانضمام إلى الكلافاليري، وهي الشرطة السرية، «وفرقة الجَلد بالسياط»، وبسبب هذا التميز جرح معصمه بسكين؛ حتى يستطيع أن يحلف قسم الدم:

«يا عضو الجمعية، هل تقسم بالله وبالشيطان ألا تخون الأسرار التي تودع عندك بصفتك شرطياً سرياً في الجمعية؟».

ويجيب: «أقسم»

«هل تقسم أن تجهز نفسك بمسدس جيد وكمية من الذخيرة، لتكون جاهزاً عندما يبدأ زنجي مشكلة فتعطيه الكثير؟»

و يجيب: «أفعل»

وهل تقسم أيضاً أن تفعل كل ما بقوتك لتزيد معدل ولادة البيض؟

و يجيب: «أفعل»

وسـرعـان مـا طلب إلـى كنيـدي أن يدفع 10 دولارات لقـاء قـبـوله في الشـرطة السـرية إضـافة إلى دولار واحـد شـهرياً لتغطية مصـروفه بصفتـه شـرطيـاً سـرياً. وكان عليه أن يشتري ثوباً ذا قبعة ليصبغه باللون الأسود.

وكشـرطي سـري، كـان كنيـدي قلقـاً؛ لأنه يتـوقع أن يطلب منه القيـام بعنفٍ لا يتعدى مرحلة التهديد.

فكر في الإعدام من غير مـحاكمـة، وهو الإشـارة الكبرى لدى الجـمعية بالعنف وهنا قد جمع معهد تاسكاغي إحصـائيـة عن عقد بعد عقد من الزمن حـوادث إعدام الزنوج من غير محاكمة في الولايات المتحدة:

السنوات	إعدام الزنوج من غير محاكمة
1890 - 1899	1,111
1900 - 1909	791
1910 - 1919	569
1920 - 1929	281
1930 - 1939	119
1940 - 1949	31
1950 - 1959	9
1960 - 1969	3

و لا ننسَ أن هذه الأرقام لا تمثل الإعدامات من دون محاكمة، والتي تعزى إلى جمعية كوكلوكس فقط، لكنها هي العدد الإجمالي للإعدامات من دون محـاكمـة التي تم ذكرها. تكشف الإحصـائيات على الأقل ثلاث حقـائق جديرة بالملاحظة. الأولى هي الانخـفـاض الواضح في عـدد الإعدام من غـيـر مـحـاكـمـة مع الوقت. والثانيـة هـي غياب الترابط بين الإعدام من غير محـاكمة مع عدد من عضـوية

الجمعية، فقد كان هناك عدد إعدامات للسود أكبر في الواقع بين 1909 - 1900 عندما كانت الجمعية نائمة، من العدد في العشرينيات عندما كان في الجمعية ملايين الأعضاء، وهذا يشير إلى أن الكوكلوس كلان نفذت إعدامات أقل كثيراً مما كان يعتقد.

والثالثة، بالنسبة إلى حجم السكان السود، كانت الإعدامات نادرة بصورة متزايدة. بل إن إعداماً واحداً هو كثير جداً ولكن عند بداية القرن كانت الإعدامات من غير محكمة تحدث نادراً حدثاً يومياً لدرجة أنه غالباً ما ذكرت كذلك. قارن 281 ضحية الإعدامات في العشرينيات بعدد الأطفال السود الذين ماتوا نتيجة سوء التغذية وفقر الدم والإسهال وما شابه. حدث في سنة 1920أن ما يقارب 13 من كل 100 طفل أسود ماتوا في طفولتهم، أو ما يقارب 20000 طفل في كل سنة بالمقارنة مع 28 شخصاً تم إعدامهم في السنة وفي أواخر 1940 مات ما يقارب من 10000 طفل في السنة.

ما هي الحقائق المهمة التي تشير إليها هذه الأعداد من الإعدامات التي لم تخضع للمحاكمة؟ وماذا يعني أن الإعدامات كانت نادرة نسبياً، وبأنها حدثت بسرعة من الزمن، حتى في وجه ازدهار عضوية الجمعية؟

وأكثر تفسير يفرض نفسه هو أن جميع تلك الإعدامات التي لم تخضع للمحاكمة أفلحت، وكان البيض العنصريون سواء انتموا إلى جمعية كوكلوكس كلان أم لا قد طوروا من خلال أعمالهم ومن خلال خطابهم خطة حافز قوي. وهي واضحة بشكل فظيع ومخيفة بصورة فظيعة أيضاً، فإذا خرق شخص أسود قاعدة سلوكية مقبولة، سواء بالرد على سائق عربة أم بالجرأة على محاولة التصويت، كان يعرف بأنه قد يعاقب، ربما بالموت.

وهكذا في منتصف الأربعينيات عندما انضم ستيتون كنيدي، لم تكن الجمعية تحتاج حقاً لاستخدام كثير من العنف، وقيل للعديد من السود: إن يتصرفوا كمواطنين من الدرجة الثانية وإلا؛ فإنهم سيجبرون على ذلك. ذهب

إعدام أو اثنان في طريق بعيد الاتجاه، مستدعياً سلاسة القيادة بين مجموعة كبيرة من الناس؛ لأن الناس يستجيبون بقوة للحوافز القوية وتوجد حوافز قليلة أكثر قوة من الخوف والعنف العشوائي، الذي هو بجوهره لماذا يكون الإرهاب فعالاً جداً.

ولكن لو لم تكن جمعية الكوكلوكس كلان في الأربعينيات عنيفة بصورة موحدة فماذا كانت؟ وجد ستيتون كنيدي أن الجمعية كانت في الواقع أخوة مؤسفة من رجال معظمهم قليل التعليم وذوو ظروف وآمال ضعيفة، وهم يحتاجون إلى مكان للتهوية، ومبرر للبقاء أحياناً خارجاً في الليل، وإن أخوتهم مرتبطة بأناشيد دينية وإجراء القسم تمجيد لله، وكلها سرية للغاية مما جعلها جذابة أكثر.

ووجد كنيدي أيضاً أن الجمعية هي عملية كسب مال بارعة، وعلى الأقل بالنسبة لأولئك الذين يقتربون من قمة المنظمة، فلقادة الجمعية عدد من مصادر الدخل: آلاف من الأعضاء الذين يدفعون لقاء المراتب والملفات، وأصحاب الأعمال الذين يستأجرون الجمعية لإضافة النقابات أو قد يدفعون أموالاً لقاء حماية الجمعية، وتظاهرات الجمعية التي تولد أعطيات نقدية ضخمة حتى في مناسبة عملية كتهريب الأسلحة أو الويسكي المغشوش. ومن ثم هناك عمليات الصخب والهرج مثل هيئة الاستفادة من موت في الجمعية وهي تبيع بطاقات تأمين لأعضاء الجمعية وتقبل الدفع النقدي فقط أو الشيكات الشخصية التي تصدر باسم التنين الأكبر نفسه.

وبعد بضعة أسابيع داخل الجمعية تحمّسَ كنيدي لأن يؤذيها بالطريقة التي يستطيعها. فعندما سمع عن خطة الجمعية لتفجير مظاهرة نقابية، قام بنقل المعلومات إلى صديق في النقابة، فنقل معلومات الجمعية إلى مساعد المدعي العام في جورجيا، وهو مروض ثابت للجمعية. وبعد تفتيش ميثاقها كتب كنيدي إلى حاكم جورجيا، مبيناً الأسس التي يمكن أن يلغى الميثاق بموجبها: لكن لدى كنيدي دليل على أنها مكرسة للربح وللسياسة.

لم يثمر أي من مجهودات كنيدي النتيجة المرجوة، فكانت الجمعية محاطة بشكل جيد وتقوم على أساس عريض، حتى إن كنيدي شعر كما لو أنه ضرب حجارة صغيرة على عملاق. وإن كان بمقدوره أن يؤذي الجمعية في أتلانتا بطريقة ما، فإن آلافاً من الفروع الأخرى في أنحاء البلاد ـ فقد كانت الجمعية الآن وسط انتعاش جدي ـ لا يمكن مسها.

لقد أصيب كنيدي بإحباط كبير ومن وسط هذا الإحباط ولدت ضربة ذكاء. فقد لاحظ في أحد الأيام مجموعة من الأولاد الصغار يلعبون نوعاً من لعبة التجسس وفيها يتبادلون كلمات سرية سخيفة، فذكّره ذلك بالجمعية. ففكر، ألن يكون من الطرافة أن تحصل على كلمات السر من الجمعية و أسرارها الأخرى وأن توضع في أيدي الأولاد عبر البلاد؟ ما هي أفضل طريقة لفضح جمعية سرية من جعلها طفولة ونعيم معظم معلوماتها السرية؟ (وصادف أن في (ميلاد أمة) استلهم جندي اتحادي سابق إنشاء جمعية، عندما رأى طفلين من البيض يختبئان تحت غطاء أبيض ويخيفان مجموعة من الأطفال السود).

فكر كينيدي والمخرج المثالي لهذه المهمة: البرنامج الإذاعي «مغامرات السوبرمان»، الذي يذاع كل يوم في موعد العشاء إلى ملايين المستمعين من أفراد الأمة. واتصل بمعدي البرنامج وسأل: إن كان من الممكن أن يكتب بعضاً من حلقاته حول جمعية الكوكلوكس كلان. كان معدو البرنامج متحمسين، فقد أمضى سوبرمان سنوات يقاتل هتلر وموسوليني وهيروهيتو، ولكن الحرب قد انتهت وهو بحاجة إلى أوغاد جدد.

وبدأ كينيدي بتغذية أفضل معلوماته حول الجمعية إلى منتجي السوبرمان. فأخبرهم عن السيد آياك والسيد آياكي، ومرّ في ممرات مبالغ في تسخينها من كتاب الجمعية وسمي كلوران. (ولم يعرف كينيدي لماذا تطلق جمعية مسيحية تؤمن تسمى "الجنس الأبيض" على كتابها الأساسي اسم الكتاب المقدس للإسلام) وشرح دور موظفي الجمعية في كلا فيرن المحلي، فالكلايف (نائب الرئيس والكلوكارد (المحاضر) والكلود (النسابين) كالمغراب (أمين السر) والكلابي

(الخازن) والكلاد (الجابي) والكلاروغور (الحارس الداخلي) والكليكس (الحارس الخارجي) والكلوكان (لجنة التحقيق المؤلفة من خمسة أعضاء) والكلافاليري (مجموعة الذراع القوي التي ينتمي إليها كنيدي نفسه) والتي كان قائدها يدعى ممزق الحمار الرئيس م . وذكر الترتيب الهرمي للجمعية في تقدمها من المحلي إلى المستوى الوطني: الجبار سيكلوف فاخر ومخاوفه الاثنا عشر والتيتان العظيم والاثنا عشر غاضباً والدراغون الكبير وتسع أفاعٍ من نوع هيدرا والساحر الملكي وخمسة عشر جنيّاً. وأخبر كنيدي المنتجين كلمات السر الراهنة والأجندة والثرثرة تبرز من قسمه في الجانبين ناثان بعد فور فوريست كلافيرن رقم 1. أتلانتا، مملكة جورجيا.

وبدأ منتجو الراديو بكتابة برامج تستحق أربعة أسابيع وفيها يمسح سوبرمان جمعية الكوالكولكس كلان.

لم ينتظر كنيدي أول اجتماع للجمعية بعد ما وصل العرض إلى الهواء وبالتأكيد كان كلافيرن يائساً وحاول الدراغون الكبير إدارة اجتماع طبيعي للجمعية، لكن المرتبة والملف صرخوا وأسكتوه... اشتكى واحد منهم «عندما عدت إلى البيت من العمل في تلك الليلة، كان أبي هنا ومجموعة من الآخرين وبعضهم يربطون المناشف حول رقابهم كالغطاء، وبعضهم يلبسون وسائد على رؤوسهم. وكان الذين يلبسون الأغطية يطاردون الذين يلبسون أكياس الوسائد على الطريق. ولما سألتهم: ماذا كانوا يفعلون؟ قالوا: إنهم يلعبون لعبة جديدة من العسكر والحرامية، اسمها سوبرمان ضد الجمعية وسموها «كانغ يستتغ» وعرفوا جميع كلماتنا السرية وعرفوا كل شيء. ولم أشعر بهذا السخف الكبير في حياتي كلها. ولنفرض أن طفلي سيجد ثوبي من الجمعية في يوم من الأيام.

وعد الدراغون الكبير بأن يكشف اليهود في وسطهم.

قال أحد رجال الجمعية: الضرر قد حصل.

فأجاب كلاد: إن طقوسنا المقدسة انتهكتها مجموعة من الأطفال بالمذياع (الراديو).

قال الدراغون الكبير: إنهم لم ينشروا اسمها على الهواء.

وقال كلاد: إنما لم يستطيعوا إذاعته فلم يكن يستحق أن يذاع.

وقال دراغون: إنهم غيروا كلمتهم السرية مباشرة من «الدم الأحمر» إلى «الموت للخونة».

وبعد ذلك الاجتماع الليلي هتف كنيدي، مستخدماً الكلمة السرية الجديدة إلى منتجي سوبرمان الذين وعدوه أن يكتبوا ذلك في العرض القادم. وفي اجتماع الجمعية في الأسبوع اللاحق كانت الغرفة فارغة تقريباً، وهبطت طلبات العضوية الجديدة إلى الصفر.

من كل الأفكار التي فكر بها كنيدي ـ وقد يفكر بها في المستقبل ـ محاربة التعصب وكانت حملة السوبرمان بكل بساطة هي الأذكى وربما الأكثرَ إنتاجاً، فقد كان لها الأثر المأمول تماماً: إعادة سرية الجمعية عليها، وتحويل المعرفة الثمينة إلى ذخيرة للسخرية، وبدلاً من أن تعج بملايين الأعضاء، كما كانت قبل جيل واحد، فقدت الجمعية زحمتها وعادت إلى وضع التأسيس. ومع أن الجمعية لم تمت تماماً، ولاسيما في الجنوب فإن ديفيد ديول زعيم الجمعية والمتحدث الناعم من لويزيانا قد تلقى عدداً من العروض لمجلس الشيوخ الأميركي ومراكز أخرى ـ فإنها لم تكن قط هي ذاتها في جريدة فيري كروس، إن جمعية الكوكلوكس كلان في أمريكا، يدعو المؤرخ وين كريغ ويد ستيتون كنيدي العامل الوحيد والمهم في منع انتعاش الجمعية في الشمال بعد الحرب.

لم يحدث ذلك لأن كنيدي كان شجاعاً أو حازماً أو هادئ الروع، ومع أنه كان كل ذلك، فقد حدث ذلك لأن كنيدي فهم القوة الأولية للمعلومات، إذ كانت الجمعية مجموعة ـ تشبه السياسيين أو الوسطاء العقاريين أو المضاربين في ذلك ـ يُسيّر قوتها بشكل كبير حقيقة أنها تكبر المعلومات. وما إن تقع هذه المعلومات في الأيدي الخطأ (أو بالاستناد إلى وجهة نظرك، الأيدي الصحيحة) يختفي الكثير من مزايا الجمعية.

في أواخر التسعينيات، هبط سعر التأمين على الحياة هبوطاً دراميا. وقد

أوجد هذا شيئاً من الغموض، فلم يكن لهذا الهبوط سبب واضح في أنواع التأمين الأخرى بما فيها التأمين الصحي وتأمين السيارة وتأمين البيت التي لم تهبط أسعارها بالتأكيد. كما لم يكن هناك أي تغيرات جذرية بين شركات التأمين، وسماسرة التأمين أو الناس الذين يشترون التأمين على الحياة.

لقد وجدت إنترنت في ربيع سنة 1996 وأصبح (Quotesmith.com) أول موقع من بين بضعة مواقع تمكن الزبون من المقارنة خلال بضع ثوان بين سعر التأمين على الحياة المبيع من قبل عشرات شركات التأمين المختلفة. بالنسبة لمثل هذه المواقع، كان التأمين على الحياة ثمرة جيدة. وخلافاً لعدد من أشكال التأمين، بما فيها التأمين على الحياة بكاملها وهو أداة مالية معقدة جداً ـ فإن بطاقات التأمين المحددة للحياة متجانسة نوعاً ما: شهادة تأمين لثلاثين سنة بمليون دولار تشبه سواها من حيث الجوهر. لذا ما يهم هنا بالفعل هو السعر، وفي البحث عن شراء أرخص بطاقة، وهي عملية ملتوية وتستهلك الوقت، وجرى تبسيطها وتسهيلها. ومع الزبائن الذين يستطيعون أن يجدوا أرخص بوليصة، لم يكن أمام شركات التأمين الأعلى أسعاراً خيار سوى تخفيض أسعارها. وفجأة صارت الزبائن تدفع مليون دولار أقل من التأمين المحدد للحياة.

والجدير بالملاحظة أن هذه المواقع تذكر الأسعار فقط، وهي لا تبيع البطاقات ولذا لم يكن التأمين حقاً ما يشغلهم. مثلهم مثل ستيتون كنيدي كانوا يتعاملون بالمعلومات (لو كانت الإنترنت موجودة عندما تسلل كنيدي إلى الجمعية من المحتمل أنه كان سيسرع إلى البيت بعد كل اجتماع؛ ليخرج ما بذمته) ومن المؤكد، هناك فروق بين كشف جمعية الكوكلوس كلان، وكشف الأسعار العالية لشركات التأمين. فقد كانت الجمعية تتعامل بالمعلومات السرية التي كانت سريتها تولد الخوف، بينما كانت أسعار الشركات أقل سرية من مجموعة الحقائق التي توزع بطريقة جعلت المقارنة صعبة في نشر معلومات خفت قوتها. وكما كتب قاضي المحكمة العليا لويس د. برانديس ذات مرة: «يقال إن ضوء الشمس أفضل معقم».

المعلومات منارة وهراوة وغصن زيتون ومثبط ويعتمد ذلك على من يستمدها وكيف يستخدمها، المعلومات قوية جداً لدرجة أن افتراض المعلومات، وإن لم تكن المعلومات موجودة فعلا، ذات أثر مهدئ، فكر بقضية سيارة عمرها يوم واحد.

كان اليوم الذي أخرجت فيه السيارة من الصالة أسوأ يوم في حياتها، لأنها تفقد ربع قيمتها فوراً عند خروجها. قد يبدو هذا سخيفا ولكنه صحيح، فالسيارة المشتراة بمبلغ 20000 دولار لا يمكن أن تباع ثانية بأكثر من 15000 دولار ،لماذا؟ لأن الشخص الوحيد الذي يرى بيعها منطقياً كسيارة جديدة هو الشخص الذي وجد أنها (معطوبة) وحتى لو كانت السيارة غير معطوبة، فإن المشتري المحتمل يفترض أنها معطوبة، ويفترض أن لدى البائع معلومات عن السيارة لا يعرفها المشتري، وأن البائع يعاقب بسبب هذه المعلومات المفترضة.

وإن كانت السيارة معطوبة يحسن البائع صنعاً بأنه ينتظر سنة حتى يبيعها. وعندها يكون الشك بعُطل السيارة قد بهت، وعندها سيقوم بعض الناس ببيع سياراتهم الجيدة القديمة وتتم مبادلة السيارة المعطوبة بها واحتمال بيعها بسعر أعلى مما تستحق فعلاً.

من الشائع بالنسبة للفريق الذي يعقد عملية أن تكون لديه معلومات أفضل من أي فريق آخر. في المصطلح الاقتصادي تعرف هذه الحالة بحالة عدم التناظر الاقتصادي. وتقبل كنوع من الرأسمالية فتفترض أن شخصاً ما (وهو خبير عادةً) يعرف أكثر من شخص آخر (وهو المستهلك عادةً) لكن المعلومات غير المتناظرة في كل مكان في الواقع ما تكون مصابة بجرح مميت من الإنترنت.

المعلومات هي عملية الإنترنت. والإنترنت وسيلةٌ مجدية بصورة ممتازة في نقل المعلومات من أيدي أولئك الذين يملكونها إلى أيدي من لا يملكونها. وغالباً كما في حالة أسعار التأمين المحدد للحياة، المعلومات موجودة ولكنها بطريقة مفاجئة (في أسئلة كهذه، تعمل الإنترنت كمغناطيس ضخم على شكل حدوة حصان يحرك فوق بحر لا قرار له من أكياس الغش لالتقاط إبرة من كل كيس).

وكما أنجز سيتيتون كينيدي ما لم يستطع إنجازه أي صحفي أو فاعل خير أو محامٍ عام، فقد أنجزت الإنترنت ما لم يستطع إنجازه أي زبون مناصر، فقد قلصت الفجوة بين الخبراء والعامة بصورة كبيرة.

أثبتت الإنترنت أنها مثمرة بصورة خاصة للمؤسسات التي فيها مواجهة (وجهاً لوجه) مع خبير، وقد تزيد في الواقع المشكلة في المعلومات غير المتناظرة، والحالة التي يستخدم فيها الخبير ميزاته المعلوماتية ليجعلنا نشعر بأننا أغبياء أو مندفعون أو من دون قيمة أو جاهلون. فكر بوضعٍ تفقد فيه أحد الأعزاء وبالحوار مع مدير الجنازة ـ الذي يعرف أنك لا تعرف شيئاً عن عمله وأنك تحت ضغط عاطفي لتركله ـ فيوجهك إلى قبعة الماضي بـ 7000 دولار، أو فكر بتجارة السيارات: فالبائع يبذل جهده؛ ليخفي السعر الأساسي للسيارة تحت حيل من الإضافات والحوافز. لكنك فيما بعد وبهدوء وأنت بالبيت، تستطيع استعمال الإنترنت لتكشف بالضبط كم دفع التاجر للصانع لقاء تلك السيارة، أو أنك قد تدخل إلى الموقع www.TributeDirector.com وتشتري تلك القبعة الماهوغني بنفسك لقاء مبلغ 3200 دولار فقط وتسلم على عنوانك بعد يوم. إلا إذا أردت أن تنفق 2995 للثقب الأخير (وهي قبعة بمناظر الغولف) أو مذكرات الصيد (وهي تصور ظباء مكدسة وضحايا أخرى) أو أحد أرخص الأشكال التي فشل مدير الجنازة بشكل ما، حتى في ذكرها.

على الرغم من أن فكرة الإنترنت قوية، إلاّ أنها لم تذبح الدابة التي هي عدم تناظر المعلومات. فكر بما يدعى الفضائح. في أوائل سنوات الألفين شملت الجرائم التي ارتكبتها شركة أنيرون الشركات مع المختبئة، والديون الخفية، واستخدام أسواق الطاقة، كتب سميث بارني من شركة ميريل لينش وجاك غرابا من شركة سلمون سسميث بارني بحثاً رائعاً عن تقارير الشركات التي عرفا أنها حثالة. وغطى فرانك كاترون من شركة كريدت سويس غهرست في بوسطن تحقيقاً حول الكيفية التي قامت بها شركته بتوزيع أسهم من عروض

أولية عامة وحارة. ولقد سحب سام والحال مخزونه من (ImClone) عندما حصل على كلمة مبكرة عن التقرير المدمر من إدارة الطعام والدواء: وكذلك سحبت صديقته مارثا ستيورات أسهمها، ثم كذبت حول السبب، واختلقت وولدكوم وغوبال كروسنغ بلايين الدولارات من الدخل لضخ أسعار مخزونهم. مجموعة من شركات أموال مشتركة سمحت لزبائنها المفضلين بأن يتاجروا بأسعار مفصلة، ومجموعة أخرى ثم اتهامها برسوم إدارية خفية.

إن الممارسين لهذه الأعمال، ولاسيما في عالم الأموال الكبيرة، تقدم بالضرورة هذا الدفاع إن كل شخص آخر كان يمارسها، وهذا قد يكون صحيحاً على نطاق واسع، فإحدى سمات جرائم المعلومات هي أن القليل جداً منها يتم اكتشافه خلافاً لجرائم الشوارع، فإنها لا تترك وراءها جثة أو نافذة مكسورة ولا تخالف مجرم الأرغفة ـ أي الشخص الذي يأكل رغيفا من أرغفة بول فيلدمان لكنه لا يدفع ثمنه ـ فمجرم المعلومات المتملص ليس شخصاً مثل فريدمان الذي يحسب كل قرش. فالنسبة لجريمة المعلومات حتى تصل إلى السطح يجب أن تحدث في الجذر، وعندما يحصل، تميل النتائج لأن تكون موحدة بشكل جيد، وفوق ذلك، لم يكن المقترفون يفكرون بأعمالهم الخاصة بتحولها إلى عامة، فكر بأشرطة إيترون، فتم تسجيل محادثات العاملين في إيترون بشكل سري، ومن ثم طفت على السطح بعدما انخسفت الشركة، وفي محادثة هاتفية في الخامس من آب من سنة 2000، تحادث فيها تاجران حول الطريقة التي يمكن لحريق في كاليفورنيا السماح لإييزون برفع أسعار كهربائها، وكانت الكلمة السحرية في ذلك اليوم كما قال أحدهم «احترق حبيبي، احترق». وبعد أشهر قليلة، تحادث اثنان من تجار إيترون، وهما كبفن وتوم حول آراء الموظفين في كاليفورنيا بأن تعيد شركة إيترون أموال أرباحها من انخفاض سعرها.

كيفين: إنهم يستعيدون كل المال منكم يا جماعة، كل الأموال التي سرقتموها من أولئك الجدات الفقيرات في كاليفورنيا.

بوب: نعم، الجدة ميلي، يا رجل.

كـيـفـين: نعم، إنها الآن تريد استعادة كل أموالها لكل تلك القوة التي ضغطها عند قفاها من أجل 250 دولاراً لقاء مليون واط بالساعة.

إن كنت تفترض أن العديد من الخبراء يستخدمون معلوماتهم للإضرار بك، فإنك محق. يعتمد الخبراء على حقيقة أنك لا تملك المعلومات التي يملكونها، أو إنك ستدوخ من تعقيد عمليتهم، لدرجة لا تعرف معها ماذا ستفعل بالمعلومات إن كانت لديك، أو أنك ستخاف من خبرتهم لدرجة لن تجرؤ معهاعلى تحديهم. وإن أشار طبيبك إلى إجراء عملية في الأوعية الدموية تفيد قليلاً في منع النوبات القلبية فليس من المحتمل أن تظن أن طبيبك يستخدم ميزة معلوماته ليكسب بضعة آلاف من الدولارات لحسابه أو لحساب صديقه. ولكن كما شرح ديفيد هيليس، وهو طبيب قلب وأوعية دموية في المركز الطبي في جامعة جنوب غرب تكساس في دالاس إلى جريدة نيويورك تايمز، بأن الطبيب قد يكون لديه الحوافز الاقتصادية التي لدى بائع السيارات أو مدير الجنازة أو مدير الأموال المشتركة: «فإن كنت طبيب قلب مشهور، وأرسل لك جو سميث، وهو طبيب داخلي محلي، مرضى، وقلت لهم: إنهم لا يحتاجون إلى ذلك الأجراء، فإن جو سميث لن يرسل لك أي مرضى آخرين».

يستطيع الخبراء بعد تسلحهم بالمعلومات من ممارسة عمل ضخم للتقوية: الخوف، الخوف من أن أولادك قد يجدونك ميتاً على أرض الحمام من نوبة قلبية إن لم تجرِ عملية جراحية في الأوعية الدموية، والخوف من أن القبعة الرخيصة ستعرض جدتك إلى مصير رهيب تحت الأرض، والخوف من أن السيارة لقاء 25000 دولار ستتكسر مثل اللعبة في الحادث، بينما السيارة ذات السعر الأعلى 50000 دولار ستحمي الذين تحبهم في شرنقة من الفولاذ القوي، والخوف الذي يختلقه خبراء التجارة قد لا ينافس الخوف الذي يخلفه الإرهابيون مثل/كوكلوكس كلان، لكن المبدأ واحد.

فكر بعملية تجارية لا تبدو على السطح أنها ستخلق خوفاً كبيراً: بيع بيتك، ما الذي يجعل هذا الأمر ضرباً من الجنون، بغض النظر عن حقيقة أن البيت هو في العادة أكبر عملية مالية في حياتك، وأنك قد تكون لديك خبرة قليلة في العقارات، وأن لديك عاطفة ارتباط قوي ببيتك، فهناك على الأقل نوعان من الخوف مضاعفان: الخوف من أنك ستبيع البيت بسعر دون قيمته وأنك لن تتمكن من بيع البيت مطلقاً.

في الحالة الأولى، تخاف من وضع سعر منخفض جداً، وفي الحالة الثانية تخشى من وضع سعر مرتفع جداً، فوظيفة وسيطك العقاري طبعاً أن يجد لك المتوسط الذهبي، فهو الوحيد الذي يملك المعلومات جميعاً: فقد جرد البيوت المماثلة، والاتجاهات الأخيرة في المبيعات، والتغيرات في سوق الرهن، بل إن له تأثيراً في المشتري المهتم، وتشعر بأنك محظوظ؛ لأن لديك مثل ذلك الخبير ببواطن الأمور، حليفاً لك في أكثر الأعمال تشويشاً.

والشيء السيء جداً أن الوسيط العقاري يرى الأمور بطريقة مختلفة، فقد يرى فيك أنك لست الحليف تماماً وإنما يراك كعلامة، فكر مرة ثانية بالدراسة الموضوعة في أول الكتاب، وهي التي تقيس الفرق بين أسعار البيوت التي تخص الوسطاء العقاريين وأسعار البيوت التي باعوها بالنيابة عن زبائنهم، إذ وجدت الدراسة أن الوسيط العقاري يترك بيته في السوق مدة إضافية تبلغ عشرة أيام ينتظر خلالها عرضاً أفضل، ومن ثم بيعه بزيادة تبلغ 3% عن بيتك أو 10000 دولار زيادة عن سعر المبيع 300000 دولار، أي 10000 دولار تذهب إلى جيبه ولا تذهب إلى جيبك، ربح جيد أنتجه استغلال المعلومات وفهم عميق للحوافز، والمشكلة هي أن الوسيط العقاري فقط يقف مكسبه الشخصي الإضافي والبالغ 150 دولاراً إذا باع بيتك بزيادة 10000 دولار، وهذا ليس مكافأة على عمل إضافي كثير، لذا فإن عمله هو إقناعك بأن عرض 300000 دولار هو بالواقع عرض جيد جداً، بل وحتى عرض سخي، وبأن الأحمق فقط يمكن أن يرفضه.

يمكن أن يكون هذا دقيق الصنع، لا يريد أن يأتي الوسيط ليدعوك أحمقَ، لذا فإنه يخبئ ذلك فقط ـ وربما بقوله لك عن بيت أكبر وأجمل بل وأكثر جِدةً وغير بعيد عن بيتك وقد بقي معروضاً سنة أو أشهراً دون أن يباع. وهذا هو السلاح الوحيد لدى الوسيط: تحويل المعلومات إلى خوف. فكر في هذه القصة الحقيقية التي رواها جون دونيو وهو أستاذ القانون، فقد كان يعمل في سنة 2001 في جامعة ستانفورد «كنت على وشك أن أشتري بيتاً في حرم جامعة ستانفورد وظل وسيط البائع يخبرني عن جودة الصفقة التي أنوي الحصول عليها؛ لأن أسعار السوق على وشك أن تصعد صعوداً شديداً، وحالما وقعت عقد الشراء سألني إن كنت أريد وكيلاً لبيع بيتي السابق في ستانفورد، فأخبرته أني قد أحاول بيع بيتي من دون وكيل، فأجابني جون: قد ينجح ذلك في ظروف طبيعية، ولكن في سوق يهبط الآن، فإنك تحتاج حقاً لمساعدة وسيط».

خلال خمس دقائق هبط السوق الصاعد. هذه هي الأعاجيب التي يمكن أن يختلقها الوسيط العقاري في بحثه عن الصفقة الآتية.

فكر الآن في قصة حقيقية أخرى من استغلال معلومات الوسيط العقاري، القصة تشمل «ك» وهو صديق حميم لأحد مؤلفي هذا الكتاب أراد «ك» أن يشتري بيتاً بسعر 469000 دولاراً وكان على استعداد لعرض 450000 دولار، لكنه اتصل أولاً بوكيل البائع وسأله أن يذكر أخفض سعر يعتقد أن صاحب البيت يمكن أن يقبله. فوبخ الوكيل «ك» فوراً «يجب عليك أن تخجل من نفسك» فهذا خرق لأخلاقيات الوساطة العقارية.

فاعتذر (ك)، وانتقل الحديث إلى قضايا أخرى تتعلق بالدنيا، وبعد عشر دقائق وبينما كان الحديث ينتهي، أخبر الوسيط «ك» اسمح لي بأن أقول شيئاً أخيراً: «إن زبوني راغب ببيع بيته لقاء مبلغ أقل مما قد تعتقد».

وبناء على هذا الحديث عرض (ك) 425000 دولار مقابل البيت بدلاً من 450000 دولار الذي كان يخطط لأن يقدمه في العرض. وفي نهاية الأمر قبل

البائع مبلغ 430000 دولار، وبسبب تدخل وسيطه فَقَدَ البائع على الأقل مبلغ 20000 دولار. بينما فقد الوسيط مبلغ 300 دولار وهو مبلغ صغير يدفع للتأكد من أنه سيغلق عملية البيع بسرعة، وقد تحققت العمولة البالغة 6450 دولاراً. قد يبدو أن جزءاً كبيراً من عمل الوسيط العقاري هو إقناع مالك البيت بأن يبيع بمبلغ أقل مما يريد، بينما في الوقت ذاته يجعل المشتري الممكن يعرف أن البيت يمكن أن يشترى بمبلغ أقل من السعر المذكور، وللتأكد، هناك وسائل أكثر ذكاء لفعل ذلك من الخروج وإعلام المشتري بأن يعرض سعراً أدنى. إن دراسة الوسطاء العقاريين المذكورة أعلاه تشمل معطيات تكشف كيف ينقل الوسطاء المعلومات من خلال الإعلانات التي يكتبونها. فعبارة مثل «جيد للصيانة» مثلاً، ذات معنى للوسيط يشبه «السيد آياك» الذي كان رجل الجمعية، وهي تعني أن البيت قديم ولكن لن يتداعى. والمشتري الحاذق سيعرف هذا (أو يكتشف بنفسه حالما يرى البيت)، ولكن بالنسبة للمتقاعد في الخامسة والستين من العمر ويريد أن يبيع بيته، قد تعني عبارة «جيد للصيانة» مثل تحية إطراء، وهذا ما يقصده الوسيط فقط.

يظهر تحليل اللغة المستخدمة في إعلانات الوسطاء العقاريين أن بعض الكلمات مترابطة بقوة مع سعر البيع النهائي للبيت، وهذا لا يعني بالضرورة أن وصف البيت بأنه (جيد الصيانة) يسبب بيعه بسعر أقل من بيت مكافئ، لكنه يشير إلى أنه عندما يصف الوسيط العقاري بيتاً بقوله «جيد الصيانة» فهو يشجع المشتري لتقديم عرض أدنى. فيما يلي أدناه عشر عبارات تستخدم عموماً في إعلانات الوسطاء العقاريين، لخمس منها ترابط إيجابي قوي مع سعر البيع النهائي، وخمس منها ذات ترابط سلبي. خمّن أياً منها!

عشر عبارات شائعة في الإعلانات العقارية

رائع

غرانيت محبب

واسع

آخر ماجدًّا!

Corian

ساحر

خشب القيقب Maple

جوار رائع

متميز Gourmer

البيت الرائع هو بالتأكيد رائع بدرجة كافية لضمان سعر عال أليس كذلك؟ وماذا يقال عن البيت «الساحر» في «جوار رائع»؟ لا. لا. لا. وألف لا. وها هنا التحليل:

خمس عبارات ترتبط بأسعار بيت عالٍ

غرانيت

آخر ما جد

Corian

خشب القيقب Maple

متميز Gourmer

خمس عبارات بأسعار بيت متدنٍ

رائع

واسع !

ساحر

جوار رائع

إن الصفات الثلاث من أصل خمس التي ترتبط بسعر مبيع عال هي أوصاف مادية للبيت نفسه: الغرانيت ولوكريان وخشب القيقب. وكما هي المعلومات، فإن مثل هذه الصفات هي معينة ومباشرة ـ ولذلك فهي مفيدة جداً. فإن كنت تحب الغرانيت فقد يعجبك البيت، ولكن حتى وإن كنت لا تحبه، فإن «الغرانيت» لا تعني طبعاً التثبيت العلوي، ولا تعني كذلك كلمة «متميز» أو «أحدث ما جدّ» وكلاهما يخبران المشتري بأن البيت في بعض الأحيان ساحر حقاً.

بينما تبقى صفة «رائع» غامضة بصورة خطرة، وكذلك صفة ساحر، يبدو أن

الكلمتين هما رمز للوسيط العقاري حول البيت الذي ليس له صفات كثيرة تستحق الوصف. لكن البيوت «الواسعة» غالباً ما تكون متداعية أو غير عملية. وإشارة التعجب في إعلان الوساطة العقارية هي خبر سيء طبعاً، وهو أمر يغطي كل الأخطاء الحقيقية بحماس كاذب.

إذا درست كلمات إعلان الوسيط العقاري عن بيته، فإنك سترى طبعا أنها تؤكد على وصفه ولاسيما «جديد»، و«غرانيت»، « وخشب القيقب» و(جاهز للانتقال إليه») ويتجنب الصفات الفارغة (بما فيها «رائع» «وحتى كم العيوب»، وإشارة!)» ثم ينتظر مجيء أفضل مشترٍ. وقد يخبر المشتري عن البيت المجاور الذي بيع لقاء 25000 دولار فوق السعر المطلوب، أو عن بيت آخر هو موضوع تنافس عروض، وهو حريص على ممارسة كل مزايا عدم تناظر المعلومات التي يحبها.

ولكن مثله مثل مدير الجنازة وبائع السيارات وشركة التأمين على الحياة فقد رأى الوسيط العقاري المزايا التي تأكلها الإنترنت، وفوق كل شيء، أن أي شخص يبيع بيته يستطيع الآن الوصول إلى موقع ويجمع المعلومات حول اتجاهات البيع وجرد البيوت ومعطيات الرهن. لقد تركت المعلومات فضفاضة. وتظهر معطيات المبيعات الحديثة الناتج، ويحصل الوسطاء العقاريون على أعلى الأسعار لبيع بيوتهم الخاصة مقارنة مع البيوت التي يملكها زبائنهم. ولكن لأن مواقع الوسطاء العقاريين تتكاثر، فإن الفجوة ما بين السعر قد تقلص بسبب سعر ثالث.

من السذاجة الافتراض بأن الناس يستغلون المعلومات فقط عندما يتصرفون كخبراء أو وكلاء تجاريين. فالوكلاء والخبراء هم بشر أيضاً، وهذا يعني أننا يحتمل أن نستغل المعلومات في حياتنا الشخصية أيضاً، سواء عن طريق التمسك بمعلومات حقيقية أم بتعديل المعلومات التي نختارها للتقدم بها. والوسيط العقاري قد يغمز ويهز رأسه عندما يذكر أن البيت «جيد الصيانة» ولكننا جميعا لنا حركات مساوية.

فكر بالطريقة التي تصف بها نفسك في مقابلة لعمل ما والطريقة التي تصف بها نفسك في أول موعد غرامي. (وللتسلية الأكبر، قارن محادثة اللقاء الأول بالمحادثة مع الشخص ذاته خلال الذكرى السنوية العاشرة للزواج)، أو فكر بالطريقة التي تقدم فيها نفسك إذا كنت ستظهر على تلفاز قومي للمرة الأولى. أي صورة تريد أن تظهر بها؟ ربما أنك تريد أن تبدو ذكياً أو لطيفاً أو وسيماً، ربما لا تريد أن تظهر قاسياً أو متعصباً. في يوم القش لجمعية الكوكلوكس كلان، افتخر أعضاؤها أمام الناس باحتقارهم لكل شخص لم يكن مسيحياً محافظاً أبيض. لكن التعصب العام قد أوقف على نطاق واسع. (سيستون كنيدي، وهو الآن في الثامنة والثمانين من العمر يعزو هذا التطور إلى بعض أجزاء من حملته القديمة «قوة العبوس»). وحتى عروض التعصب الذكي (إذا ما صارت عامة) هي الآن مكلفة. وعرف ترنيت لوت قائد الأغلبية في مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة هذا في 2002 بعد ما قدم نخباً في حفل الميلاد السنوي المئوي للحزب لستروم ثيرنموند) وهو زميله في مجلس الشيوخ وزميله الجنوبي. أشار لوت في نخبه إلى حملة ثيرموند 1948 لرئاسة الجمهورية التي قامت على أرضية من التمييز في مسيسبي ـ وطن لوت ـ إذ كانت واحدة من أربع ولايات حملها ثيرموند. قال لوت للمتعصبين: «إننا فخورون بذلك، ولو تبعت باقي البلاد طريقتنا ما كنا لنواجه كل هذه المشكلات في كل هذه السنين». وكان المضمون بأن لوت مشجع للتمييز مما أثار غضباً كافياً لإجباره على ترك مركز رئاسة مجلس الشيوخ.

إن كنت مواطنا خاصاً، فإنك بالتأكيد لا تريد أن تظهر متعصباً عندما تظهر أمام الناس. هل هناك طريقة لفحص التمييز في الوضع أمام العامة ؟

ليس من المحتمل كما يبدو، أن يقدم البرنامج التلفازي لعبة الحلقة الأضعف كمختبرٍ فريدٍ لدراسة التمييز، مستورداً من المملكة المتحدة، أصبح برنامج الحلقة الأضعف في وقت قصير مألوفاً ومشهوراً في الولايات المتحدة. إذ تشمل اللعبة

ثمانية متسابقين (أو في النسخة النهارية فيما بعد ستة متسابقين) يجيب كل منهم عن أسئلة تافهة وينافس من أجل جائزة ربح نقدية واحدة. لكن اللاعب الذي يجيب عن معظم الأسئلة إجابات صحيحة ليس بالضرورة هو الذي يتقدم. فبعد كل جولة يصوت المتسابقون جميعا من أجل إلغاء متسابق واحد آخر. وقدرة المتسابق على الإجابات التافهة من المفترض العامل الذي هو مدير باعتبار: العرق، والجنس، والعمر لا يبدو أنها أمور مهمة. ولكن هل هذا صحيح، بقياس الأصوات الحقيقية للمتسابقين ضد الأصوات التي يبدو حقا أنها تستحق أن تخدم مصلحة من الممكن أن تقول إذا كان التمييز يعمل عمله.

تتغير إستراتيجية التصويت بينما تتقدم اللعبة، وفي الجولات الأولى القليلة، يتم إلغاء اللاعبين السيئين لأن الجائزة تكبر عندما تعطى الإجابات الصحيحة، وأما في الجولات الأخيرة فتنقلب الحوافز الإستراتيجية. فقد يقلب الآن قيمة بناء الجائزة الرغبة الثابتة لكل من المنافسين أن يكسب الجائزة. ومن الأسهل في هذا أن يلغى اللاعبون الجيدون الآخرون. لذا على وجه التقريب، إن المتنافس الذي سيصوت على إلغاء أسوأ اللاعبين في الجولات الأولى وأفضل اللاعبين في الجولات المتأخرة.

إن المفتاح في قياس معطيات الحلقة الأضعف هو إخراج قدرة المتنافس على اللعب من عرقه وجنسه وعمره. فإذا أجاب شاب أسود عن كثير من الأسئلة إجابات صحيحة، لكنه أخرج باكراً، يبدو أن العامل هنا هو التمييز. بينما إن لم تجب امرأة بيضاء جواباً صحيحاً واحداً ولا تزال تلعب، فإن نوعاً من التمييز هنا يبدو أنه يقوم بدوره.

مرة أخرى لا يغرب عن بالك أن ما يحدث هنا يكون أمام آلة التصوير. ويعرف المتسابق أن أصدقاءه وعائلته وزملاء العمل يشاهدون البرنامج. إذن من الذي يميز ضد من في الحلقة الأضعف؟ ليس السود كما تبين. فإن تحليل أكثر من 160 حلقة يكشف أن المتنافسين السود في كل من الحلقات الأولى والأخيرة من اللعبة،

تم إلغاؤهم بنسبة تساوي قدرتهم على الإجابات التافهة. وينطبق هذا على المنافسات من النساء. فبطريقة ما، إن هذه النتائج لا تدهش. واثنتان من أقوى الحملات الاجتماعية في نصف القرن الماضي كانتا حركة حقوق وحركة مساواة النساء، وكلاهما جعلت التمييز ضد السود والنساء شيطانية على التوالي.

لذا ربما يمكن إن نقول بصورة كاملة: إن التمييز قد اجتث خلال القرن العشرين كما اجتث شلل الأطفال.

أو يحتمل أكثر، أصبح من الموضة القديمة التمييز ضد بعض المجموعات، حتى إن جميع الناس ما عدا أكثرهم عدم حساسية يجهدون لأن يظهروا على الأقل أصحاب عقول عاملة، على الأقل أمام العامة، وهذا يكاد يعني أن التمييز نفسه قد انتهى، أو يحرج الناس إظهاره. كيف يمكنك أن تقرر ما إذا كان نقص التمييز ضد السود والنساء يمثل غياباً حقيقياً أم أن الأمر لا يزيد عن كونه تمثيلية. يمكن أن يوجد الجواب بالنظر إلى المجموعات الأخرى التي لا يحميها المجتمع أيضا. وبالفعل إن معطيات تصويت الحلقة الأضعف تشير إلى نوعية من المتنافسين الذين يميزون ضد الآخرين بصورة ثابتة: وهم المسنون والعرق الإسباني.

بين الاقتصاديين، توجد نظريتان رئيستان من التمييز. ومن المهم أن المتنافسين الأكبر سناً في الحلقة الأضعف يبدو أنهم يعانون من نوع واحد، بينما يعاني الإسبانيون من الآخر. والنوع الأول يدعى تمييز يقوم على الذوق، وهذا يعني أن الشخص الواحد يميز ببساطة، لأنه يفضل ألا يتفاعل مع نوع خاص من شخص آخر. وفي النوع الثاني، معروف بأنه تمييز يعتمد على المعلومات، ويعتقد شخص واحد أن النوع الآخر من الأشخاص لديه مهارات ضعيفة ويتصرف بحسب ذلك.

وفي الحلقة الأضعف يعاني الإسبانيون من التمييز القائم على المعلومات. ويبدو أن المتنافسين الآخرين ينظرون إلى الإسبانيين كلاعبين ضعاف، حتى عندما لا يكونون كذلك. ينقل هذا الفهم إلى كون الإسبانيين تم إلغاؤهم في

الجـولات الأولى حـتى وإن لم يتم إلغـاؤهم في الجـولات المتـأخـرة، بينمـا يـريد المتنافسون الآخرون أن يحافظوا على وجود الإسبانيين لإضعاف الميدان.

بينمـا يكون اللاعـبون الكبـار سناً ضـحـايا التـمـيـيـز القـائم على الذوق: في الجولات الأولى والجـولات الأخيرة يتم إلغاؤهم بما لا يتناسب مع مهاراتهم ويبدو وكأن المتنافسين الآخـرين ـ وهذا برنامج فيه متوسط العمـر أربع وثلاثون سنة ـ ببساطة لا يرغبون بوجود اللاعبين الكبار سناً.

من الممكن تمـامـا أن المتنافس الطبيعي في الحلقة الأضعف لا يدرك تمييـزه ضـد الإسبـانيين والناس الكبـار سناً (أو، في حالة السـود والنسـاء، عـدم وجـود التمييز لديه) فهو مجبر لأن يكون عـصبياً وبعد ذلك منفعلاً يلعب لعبـة سريعة الحـركة تحت أضـواء التلفاز المبهرة. وهذا يشيـر بصـورة طبيعيـة إلى سؤال آخـر، كيف يمكن أن يعبر الشـخص ذاته عن أفضلياته ـ ويكشف المعلومات عن نفسه ـ وخصوصيته في بيته؟.

في سنة معينة ما يقـارب أربعين مليون أمـريكي تبـادلوا حقـائق صـحيحـة عن أنفـسـهم مع غـرباء بالـكامل. وحـدث كل ذلك في مـواقـع التـواعـد على الإنتـرنت وبعـدهم يحـيـون Yahoo signles, Harmony.com, Match. Com وكلهـا تـروق إلى جـمـهـور عـريض. ويهـتم آخـرون بأذواق مـعـينة أكـثـر: Eatin Mab char.com, JD. ate.com, Christian Signle.com, Black Signle.com, Gay.com ومـــــواقـع ترتيب اللقـاء هي عمل قـائم على الاشتـراك وأكثـر الأعمـال تجعلنا على الشبكة العالمية (الإنترنت).

إن كل مـوقع يعمل بصـورة مـختلفـة قليـلا، لكن الجـوهـر هـو: أنت تؤلف إعـلاناً شـخصيـاً عنك، ويشـمل بشكل طبيعي صـورة شـخصية وإحصـاءات حيوية، ومـدى دخلك ومسـتوى تعليـمك وما تحـب وما لا تحـب، وهكذا فإن جـذب اللاعب انتبـاه شخص ما، فإنه سيرسل لك رسـالة بالبريد الإليكتروني وربما يحدد موعداً. وفي

كثير من المواقع تقوم بتحديد أهداف مواعيدك: «علاقة طويلة الأمد» أو «محب عابر سبيل»، أو «تبحث فقط».

وهكذا توجد طبقتان كبيرتان من المعطيات للدراسة هنا: المعلومات التي تضمنها الناس في إعلاناتهم ومستوى الإجابات التي يجتذبها أي إعلان خاص. ويمكن سؤال كل طبقة من المعطيات سؤالها الخاص. ففي حالة الإعلانات إلى أي مدى يكون الناس مخلصين وأمناء عندما يشاركون بمعلوماتهم الشخصية؟ وفي حالة الإجابات، ما هو نوع المعلومات في الإعلانات الشخصية التي تعتبر أنها مرغوبة أكثر على الأقل؟.

قام عالمان اقتصاديان وعالم في علم النفس مؤخراً بجمع هذه الأسئلة مع العنوان. وحلل علي هورتاسو، وغونترج هيتش، ووان آريلي المعطيات من موقع واحد «تحديد المواعيد»، وهم يركزون على 30000 مستخدم، نصفهم في بوسطن والنصف الآخر في سان ديغو. وكان 75% من المستخدمين رجالاً والعمر الوسطي بالنسبة لجميع المستخدمين من 26 إلى 35 سنة، مع أنهم مثلوا خليطا عرقياً كافياً للتوصل إلى بعض الاستنتاج حول الأعراق، كان من البيض بشكل مسيطر.

وكانوا أيضا أغنى كثيراً وأطول وأنحف وأكثر وسامة من المعدل الوسطي. وهذا على الأقل ما كتبوه حول أنفسهم. وأكثر من 4% من المواعدين على الإنترنت ادعوا أنهم يكسبون أكثر من 200000 دولار في السنة، بينما أقل من 1% من مستخدمي الإنترنت من المستوى الأدنى يكسبون هذا القدر من المال بالفعل، وهذا يشير إلى أن 3 من 4 من المشاركين كانوا يبالغون. وذكر مستخدمو الإنترنت من الرجال والنساء أنهم أطول بمقدار 1 إنش من المتوسط القومي، وأما ما يخص الوزن فكان الرجال يقتربون من المتوسط القومي، لكن النساء ذكرن بشكل خطي أن وزنهن أقل من الوزن الوسطي القومي بعشرين رطلاً.

والمؤثر أكثر من أي شيء آخر هو أن 70% من النساء زعمن أن جمالهن «فوق المتوسط» بما في ذلك 24% يزعمن أنهن جميلات جداً. وكذلك كان الرجال على

الإنترنت رائعين: فقد زعم 67% منهم أن وسامتهم «فوق الوسط بما في ذلك 21%» فهم وسيمون جداً وهذا يترك 30% من مستخدمي الإنترنت متوسطي الوسامة بما في ذلك وسامة أقل من الوسط ـ ويشير إلى أنه ـ من مواعيده على الإنترنت هو إما خارق وإما نرجسي أو ببساطة مقاوم لمعنى «متوسط» (أو ربما كانوا جميعاً واقعيين: كما يعرف أي وسيط عقاري، البيت العادي (النمطي) ليس ساحراً أو رائعا، ولكن إذا لم تقل: إنه كذلك فما من شخص سيزعج نفسه بإلقاء نظرة) وقال 28% من النساء في الموقع: إنهن جميعاً شقراوات وهو عدد أبعد أكثر من المتوسط القومي، وهذا يبين أن هناك كثيراً من عمليات الصباغ أو من الكذب أو من غيرهما.

لكن بعض المستخدمين كانوا أمناء بصورة قوية 8% من الرجال ـ أي حوالي 1 من كل 12 ـ ذكروا أنهم متزوجون، ونصف هؤلاء 8% يذكرون أنهم كانوا سعداء بزواجهم، الحقيقة أنهم كانوا أمناء لا تعني أنهم متهورون. فمن 258 رجلاً «السعداء بزواجهم» في العيد اختار 9 منهم إرسال صورة شخصية. وكانت المكافأة الفوز بامرأة قد تفوق عليها خطراً إن تكتشف زوجتك إعلانك الشخصي (وما كنت تفعل على الموقع) فقد يغضب الزوج، ولكن هذا لا يفيد إلا قليلا من دون شك.

من الطرق العديدة التي تفشل في تأمين اللقاء عبر الموقع، عدم وضع صورتك، وربما تكون هي الطريقة المؤكدة أكثر من غيرها. (وليس ضرورياً أن تكون الصورة صورتك، فقد تكون صورة شخص غريب أكثر وسامة، لكن هذا الخداع قد يلقى رداً في وقتها بصورة واضحة). فالشخص الذي لا يضع صورته يحصل على ربع حجم رد بريد إلكتروني لرجل يضع صورته، والمرأة التي لا تضع صورتها تحصل على سدس حجم الرد فقط، فرجل ذو دخلٍ منخفض وذو تعليم متدنٍ وموظف غير سعيد وهو غير جذاب كثيراً وبدين نوعاً ما وأصلع ويقوم بوضع صورته، له فرصة أفضل في استقدام بعض الرسائل الإلكترونية أكثر من رجل يقول: إنه يكسب 200000 دولار وهو جميل جداً، لكنه لا يرسل صورته.

هناك أسباب كثيرة تجعل الشخص لا يضع صورة، فإما أنه يلقى تحدياً فنياً، وإما أنه يخجل من أن يعرفه أصدقاؤه، وإما أنه غير جذاب فقط، ويمكن كما في حالة السيارة الجديدة والإعلان بأنها للبيع، فالزبائن المحتملون يفترضون أن خطأً كبيراً فيها تحت غطاء المحرك.

إن الحصول على وعد صعبٌ جداً فَـ 57% من الرجال الذين يضعون إعلاناً لا يتلقون أي رسالة إلكترونية، و23% من النساء لا يتلقين إجابة واحدة. الاتجاهات التي تجذب إجابات كثيرة لن تشكل دهشة كبيرة لأي شخص ذي معرفة عرضية عن الجنسين. فالواقع، إن الأفضليات التي يعبر عنها المواعدون على الإنترنت تتناسب بصورة الأنماط العامة من الرجال والنساء.

على سبيل المثال، فالرجال الذين يرغبون في علاقة طويلة الأمد يفلحون أكثر من الرجال الذين يبحثون عن علاقة مؤقتة، لكن النساء الباحثات عن حبيب مؤقت يفلحن تماما. وبالنسبة للرجال، فإن شكل المرأة أمر مهم، وكلما كان الرجل أغنى، كلما زادت الرسائل الإلكترونية التي يتلقاها. لكن جاذبية دخل المرأة هو على شكل خط بياني كالجرس، والرجال لا يريدون مواعدة النساء ذوات الدخل المنخفض، ولكن عندما تبدأ المرأة بكسب دخلٍ كبيرٍ، يبدو أنهن سيتعرضن للخوف. ويريد الرجال مواعدة الطالبات والفنانات والموسيقيات والشهيرات (بينما يتجنبون السكرتيرات والمتقاعدات والنساء اللواتي في الجيش والعاملات على فرض القانون). وترغب النساء في مواعدة العسكريين ورجال الشرطة ورجال الإطفاء (ومن الممكن أن يكون ذلك نتيجة لأحداث 11/9 وتحب الدفعات الكبيرة لقاء رغيف بول فيلد مان) إلى جانب المحامين والمديرين التنفيذيين الماليين. وتتجنب النساء العمال والممثلين والطلاب والرجال العاملين في خدمات الأغذية أو الضيافة، بالنسبة للرجال إذا كانوا قصار القامة، فهذا أمر سيء (وهذا هو السبب الذي يجعلهم يكذبون بهذا الخصوص)، لكن الوزن ليس مهما كثيراً، وبالنسبة للنساء إذا كان وزنهن مرتفعاً فهو أمر قاتل (ولهذا السبب ربما

يكذبن)، وبالنسبة للرجل إذا كان شعره أحمر اللون أو مجعداً، فهو أمر مخفض مثله مثل الصلع ـ ولكن إن كان خليفة الرئيس فهذا لا بأس، وبالنسبة للمرأة إذا كان شعرها يختلط بالسواد والبياض فهذا أمر سيء، بينما إذا كان شعرها أشقر اللون فهذا شيء جيد. في عالم المواعدة على الإنترنت يعادل الشعر الأشقر في رأس المرأة امتلاكها درجة جامعية ــ وإن كان الشعر مصبوغاً لقاء 100 دولار فهو يعادل فاتورة تعليم 100000 دولار، وهذا أمر خطر جداً.

إضافة إلى كل المعلومات حول الدخل والتعليم والشكل يضع الرجال والنساء في موقع المواعدة مسألة العرق، ويطلب منهم أيضا أن يبنوا أفضلية فيما يتعلق بالعرق من رفاقهم المحتملين. فالأفضليتان «أن يكون العرق مثل عرقي» أو «أن الأمر لا يهم» مثل متسابقي الحلقة الأضعف، كان مستخدمو الموقع يلعبون على العامة كيف شعروا تجاه الناس الذين لا يشبهونهم. إنهم يتصرفون على أفضليتهم الحقيقية فيما بعد في رسائل إلكترونية سرية إلى الناس الذين يريدون أن يواعدوهم.

إن نصف النساء البيضاوات تقريبا على الموقع و80% من الرجال البيض صرحوا بأن العرق لا يهم ولكن معطيات الإجابة تحكي قصة مختلفة، فالرجال الذين قالوا: إن العرق لا يهم أرسلوا 90% من استفساراتهم الإلكترونية إلى نساء بيضاوات، والنساء اللواتي قلن: إن العرق لا يهم أرسلن 97% من رسائلهم الإلكترونية إلى رجال بيض.

ومن الممكن أن العرق لا يهم كثيراً بالنسبة لهؤلاء النساء والرجال البيض، وهم لم يحدث أن بحثوا عن حبيب غير أبيض أثار اهتمامهم أو الاحتمال الأكثر أنهم لم يقولوا: إن العرق لا يهم؛ لأنهم أرادوا أن يصدقوا ـ ولا سيما إلى شركاء محتملين من عرقهم ـ كالمنفتحين عقلياً.

إن الفجوة بين المعلومات التي تصرح بها بصورة عامة والمعلومات التي تعرف أنها الحقيقة فجوة واسعة. (أو لنقل ذلك بطريقة معروفة أكثر) إننا نقول شيئاً

ونفعل شيئاً آخر) يمكن رؤية هذا في العلاقات الشخصية وفي العمليات التجارية وطبعا في السياسة. وإننا الآن معتادون تماماً على التصريحات العامة والكاذبة للسياسيين أنفسهم. لكن الناخبين يكذبون أيضا. فكر بالانتخاب بين مرشح أسود ومرشح أبيض. هل يمكن للناخبين البيض، أن يكذبوا في استطلاعات الرأي، فيدعون أنهم سيصوتون للمرشح الأسود حتى يبدو أنهم غير مهتمين للون أكثر مما هم بالواقع؟ بالظاهر هم هكذا. في مدينة نيويورك كانت انتخابات العمدة في سنة 1989 ما بين ديفيد دينكنز (وهو مرشح أسود) ورودولف غويلياني (وهو مرشح أبيض). فاز دينكنز بنقاط قليلة، ومع أن ديكينز أصبح أول عمدة أسود للمدينة، فهامش فوزه البسيط كان مفاجأة؛ لأن استطلاعات الرأي قبل الانتخابات أظهرت أن ديكينز سيفوز بفارق ما يقارب من 15 نقطة. وعندما ترشح ديفيد ديوك المتعصب لسيادة البيض لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة في 1990 جمع ما يقرب من 20% زيادة، حسبما قدّرت استطلاعات الرأي التي أجريت قبل الانتخابات، وهذا إشارة إلى أن آلاف الناخبين من لويزيانا كانوا يريدون القول بأنهم يفضلون مرشحاً يهتم بالتمييز العنصري.

لقد أثبت ديوك مع أنه لم ينجح بالفوز في المركز السياسي أنه كان غالباً فيما يسعى إليه هو نفسه السيد باستغلال المعلومات، وأنه كالساحر العظيم في جمعية الكوكلوكس كلان فاستطاع أن يجمع قائمة بريد لآلاف من أعضاء الجمعية (من المراتب والملفات) والمؤيدين الآخرين الذين أصبحوا في النهاية قاعدته السياسية. ولم يقتنع باستخدام القائمة فقط لنفسه، لكنه باعها مقابل 150000 دولار إلى حاكم لويزيانا. وبعد سنوات سيستخدم ديوك القائمة شخصياً، لذلك ترك مؤيديه يعرفون بأنه عانى من أوقات عصيبة وافتتاح تبرعاتهم. وبهذه الطريقة تمكن ديوك من جمع مئات الآلاف من الدولارات لاستمرار عمله في مجال سيادة اللون الأبيض، وشرح ذلك إلى مؤيديه برسالة يقول فيها: إنه مفلس جداً إلى درجة كان فيها البنك يحاول امتلاك بيته.

في الحقيقة كان ديوك قد باع بيته بربح كبير (ولا يعرف إن كان قد استخدم وسيطا عقارياً) ومعظم المال الذي جمعه من مؤيديه كان يستخدم لإرضاء عادة لعب القمار عند ديوك، وليس لترويج قضية سيادة اللون الأبيض. وكان ترشحه لعبة صغيرة حلوة للكسب، إلى أن اعتقل وأودع السجن الاتحادي في بيغ سبرينغ، تكساس.

ليفيت مناسب لكل مكان ولايناسب أي مكان. فهو فراشة عقلية لم يمسك بها أحد (فقد عرض عليه ذات مرة وظيفة في فريق كلينتون الاقتصادي، وطلبت منه حملة بوش لسنة 2004 أن يكون مستشاراً جنائياً)، ولكن الجميع ينادون به. فقد عرف كأستاذ الحل البسيط والذكي. إنه الشخص الذي يرى، في سيناريو تمثيلية هزلية، كل المهندسين يضيعون الوقت والجهد في إصلاح آلة معطلة، ومن ثم يدرك أنه لم يكلف أحد نفسه بوصلها بالكهرباء.

مجلة النيويورك تايمز،3 آب 2003



لماذا لا يزال تجار المخدرات يعيشون مع أمهاتهم؟

لقد بني الفصلان السابقان على زوج من القضايا المعترف بأنها مليئة بالتقلبات: ما هي الأشياء المشتركة بين معلمي المدارس ومصارعي السومو؟ وكيف تتشابه جمعية الكوكلوكس كلان مع الوسطاء العقاريين؟ ولكنك إن سألت أسئلة كافية، مهما تبدو غريبة في حينها، فإنك قد تتعلم في النهاية شيئاً جديراً بالمعرفة.

إن الحيلة الأولى في طرح الأسئلة أن تقرر إن كان سؤالك سؤالاً جيداً. ولمجرد أن يكون السؤال لم يطرح من قبل لا يجعله ذلك سؤالاً جيداً. فقد كان الناس الأذكياء يطرحون أسئلة خلال عدد من القرون، ولايزال هناك أسئلة كثيرة لم تسأل، وهي مصممة لأن تعطي إجابات غير مهمة.

ولكنك إن استطعت أن تسأل عن شيء يهتم به الناس حقاً وتجد إجابة قد تدهشهم ـ أي، إن استطعت أن تقلب الحكمة التقليدية ـ فإنك قد تحظى ببعض الحظ.

كان جون كينيث غالبريث، وهو مثقف كبير وعالم اقتصادي، أول من صاغ عبارة «الحكمة التقليدية»، ولم يعتبر ذلك مدحاً. وكتب: «إننا نربط الحقيقة مع ما يناسب، ومع ما يوافق بصورة وثيقة الاهتمام بالذات وحسن الأحوال الشخصية أو مع ما يعد بصورة أفضل تجنّب الجهد المحرج أو اختلال الحياة غير المرغوب فيها. ونجد أيضاً من المقبول بصورة عالية ما يسهم في تقدير الذات أكثر من أي شيء آخر». فالسلوك الاقتصادي والاجتماعي -يتابع غالبيرث- «معقد، وفهم شخصيته متعب فكرياً. ولذلك نلتصق بتلك الأفكار التي تمثل فهمنا، كما نلتصق بالجدار».

ولذلك فإن الحكمة التقليدية برأي غالبيرث يجب أن تكون بسيطة ومناسبة ومريحة ومواسية ـ على الرغم من أنها ليست صحيحة بالضرورة. وقد يكون من السخف أن نناقش أن الحكمة التقليدية ليست حقيقية أبداً، ولكن بملاحظة أين تكون الحكمة التقليدية غير صحيحة ـ وربما بملاحظة أن المجرى الزلق أو التفكير المهتم بالذات، فإنه مكان مناسب للبدء بطرح الأسئلة.

فكر في التاريخ الحديث للمشردين الذين لامأوى لهم في الولايات المتحدة. في أوائل التسعينيات راح المدافع عن المشردين وهو بيتس سنايدر يقول: يوجد ثلاثة ملايين مشرد أمريكي. وراح الناس يهتمون بذلك، أكثر من شخص من كل مئة شخص هو مشرد، إنها نسبة عالية بالطبع.. ولكن الخبير قال ذلك: لقد ألقيت هذه المشكلة الهادئة إلى الآن فجأة على الوعي القومي.

وشهد سنايدر أمام مجلس الشيوخ حتى حول حجم المشكلة. وذكر ذلك أيضاً مراراً أمام طلاب الكلية أن 45 مشرداً يموتون كل ثانية ـ وهذا يعني أن 1.4 بليون شخص يموتون كل سنة. (وكان عدد سكان الولايات المتحدة حينذاك 225 مليون) وبفرض أن سنايدر قد أخطأ بحديثه أو أنه تم نقل حديثه بصورة خاطئة، وأنه كان يعني أن شخصاً مشرداً واحداً يموت كل 45 ثانية، فيبقى الرقم 701000 شخص يموتون كل سنة وذلك ما يقارب ثلث الوفيات في الولايات المتحدة. وفي النهاية، عندما واجه سنايدر ضغطاً بخصوص عدد المشردين البالغ 3 ملايين. اعترف بأن الرقم مختلق قال: كان الصحفيون يلاحقونه من أجل عدد محدد. ولم يرد أن يدعهم يذهبون خالي الوفاض.

قد يكون من المؤسف، ولكن ليس من المفاجئ أن يستطيع الخبراء مثل سنايدر أن يهتموا بأنفسهم إلى درجة الخداع. لكنهم لايستطيعون أن يخدعوا من تلقاء أنفسهم، فالصحفيون بحاجة ماسة للخبراء، كما يحتاج الخبراء إلى الصحفيين. فهناك صحف ونشرات أخبار تلفازية كل يوم ويجب تعبئتها، والخبير الذي يستطيع أن يقدم شيئاً صارخاً من الحكمة مرحَّب به دائماً. فإذا ما عملوا معاً يكون الصحفيون والخبراء هم المهندسين للحكمة التقليدية.

والإعـلان أيضـاً أداة ذكـيـة لخلق حكمـة تقليـدية، فـعلى سـبـيل المثـال، اختـرع الليسـترين في القرن العشرين على اعتبـاره معقمـاً جراحياً قـوياً. وتم بيعـه فيـما بعـد كـشكل مـقطـر لتنظيف الأرض ولمعـالجة داء السيـلان. ولكنه لم يكن نجـاحـاً سـريعاً حتى العشـرينيات من القـرن العشـرين عندمـا برز كمـحلول «للبخـر المزمن» وهي عـبـارة غـامـضـة لرائحـة الفم الكريهـة. وأظهـرت الإعـلانات الجـديدة لمادة الليسـترين صـوراً لشبـاب مـهـجـورين ويائسين وهم راغـبـون في الزواج لكن رائحـة أفـواه شـركـائهم أبعدتهم. سـألت فـتـاة نفسـهـا: «هل أسـتطيع أن أكـون سـعيـدة معـه بالرغم من ذلك؟ حتى ذلك الحين، كانت رائحـة النفس الكريهـة لا تعتبـر تقليـدياً بأنهـا كـارثـة. لكن الليـسـتـرين غيـر ذلك، وكـمـا يكتب عـالم الإعـلان جيـمس ب. تويتشل، «لم يصنـع الليسـترين غسـول الفم بقـدر مـا صنع رائحـة الفم الكريهـة». ففي خلال سبع سنوات فقط، ارتفع دخل الشركة من 115000 دولار إلى أكثر من 8 مليون دولار.

تصعب زحزحـة الحكمـة التقليـدية مهمـا تكن الطريقـة التي أوجدت بهـا. فقـد تحسـر بول كـروغـمـان وهو كـاتب عـمـود في النيـويورك تايمـز، والناقـد المخلص لجـورج بوش، على هـذه الحـقيـقـة عندمـا بدأت حملة إعـادة انتخـاب الرئيس في أوائل سنة 2004 فقال: «إن القصـة المقبولة حول السيد بوش أنه شـخص مخادع وأمين ويتكلم ببسـاطة، وننقل القـصص التي تناسب ذلك: ولكن إن كـانت الحكمـة التقليـدية بدل ذلك، فإنه زائف ومـحتـال، إنـه طفل ولد بملعقـة فضيـة في فمـه يتظاهر بأنه راعي بقر، يكون لدى الصحفيين مادة كبيرة للتعامل معها.

في الأشهـر التي سبقت غـزو الولايات المتحـدة للعراق سنة 2003، كان الخبـراء المتصـارعون يؤيدون نبـوءات مـضـادة حول أسلحـة الدمـار الشـامل مـوجـودة عند العـراق، ولكن فـي مـعظـم الأحـيـان لابد من أن يفـوز جـانب في حـرب الحكمـة التقليـدية كما حصل مع «إحصـائيات» سنايدر حول المشـردين، ودعـاة حقوق المرأة، فهم مثـلاً، قاموا بتأجيج حادثة التحرش الجنسـي، مـدعين أن واحدة من كل ثلاث

نسوة أمريكيات ستكون ضحية اغتصاب أو محاولة اغتصاب في حياتها، (الرقم الحقيقي هو أقل من 1 من أصل ثمانية ـ لكن الدعاة يعرفون أن مخالفة ادعاءاتهم علناً تحتاج إلى شخص صلب وقاسٍ). والدعاة الذين يعملون لمعالجة الأمراض المأساوية المختلفة يقومون بمثل هذه الأعمال بشكل منتظم. ولم لا؟ إن كذبة صغيرة تستطيع لفت الانتباه والسخط و- ربما المهم أكثر ـ المال ورأس المال السياسي لمعالجة المشكلة الحقيقية.

طبعاً، يميل الخبير، سواء أكان داعية لصحة النساء أم مستشاراً سياسياً أم مديراً تنفيذياً للإعلان، لأن يكون حوافز تختلف عن باقي الناس.

اعتَبِرْ بالشرطة، فقد اكتشف مدقق أن الشرطة في أتلانتا قلما نقلت الجريمة بصورة جذرية منذ أوائل التسعينيات. وبدأت هذه الممارسة بصورة ظاهرة عندما كانت أتلانتا تستعد لاستضافة الألعاب الأولمبية لعام 1996. واحتاجت المدينة لإخفاء صورتها العنيفة والسريعة، ولذا في كل سنة كانت آلاف الجرائم تنخفض إلى درجة أدنى من العنيفة إلى غير عنيفة، أو ببساطة تهمل بعيداً، (وعلى الرغم من الجهود المستمرة ـ فقد أكثر من 22000 تقرير شرطي في سنة 2002 وحدها ـ وبصورة منتظمة كانت أتلانتا تأتي بين أكثر المدن عنفاً).

في ذلك الوقت، كانت الشرطة في المدن الأخرى تنسج قصة خلال سنوات التسعينيات. فقد جعل الظهور المفاجئ والعنيف للاتجار بالكوكائين مديريات الشرطة في أنحاء البلاد تبحث عن المصادر. فجعلوا من المعروف أن تلك لم تكن معركة عادلة: فتجار المخدرات كانوا مسلحين بأسلحة حديثة وموارد لا قاع لها من النقود. وهذا التأكيدُ على النقود أثبت أنه جهد رابح، ولاشيء أغضب الناس الممثلين للقانون أكثر من صورة تاجر المخدرات المليونير. ووسائل الإعلام التي تخطف بلهفة هذه القصة، إذ يصورون التعامل بالمخدرات كعمل أكثر ربحاً في أمريكا.

ولكن إن كان لابد من أن تمضي بعض الوقت حول مشروع سكني، حيث تباع المخدرات، فإنك قد تلاحظ شيئاً غريباً: لايزال معظم تجار المخدرات يعيشون

في المشاريع، وليس هذا فحسب، ولكن معظمهم لايزالون يعيشون في البيت مع أمهاتهم، ومن ثم يحتمل أنك حككْت رأسك وقلت: «ما هذا؟».

ويكمن الجواب في إيجاد المعطيات الصحيحة، والسر في إيجاد المعطيات الصحيحة عادة يعني إيجاد الشخص الصحيح، وهذا أسهل أن يقال من أن يفعل. ومن النادر أن يتدرب في الاقتصاد، ونادراً ما يتطرق الاقتصاديون إلى تجار المخدرات. لذا فإن الإجابة عن هذا السؤال تبدأ بإيجاد الشخص الذي يمكن أن يعيش بين تجار المخدرات وينجح بالخروج، ومعه أسرار مهنتهم.

ولد سودير فينكاتيش Sudhir venkatesh ـ وكان أصدقاء طفولته ينادونه: سيد، ولكنه استعاد منذ ذلك الحين اسم سودير ـ في الهند، وترعرع في ضواحي شمالي نيويورك وجنوبي كاليفورنيا، وتخرج في جامعة كاليفورنيا في سانديبغو بإجازة في الرياضيات. وبدأ في عام 1989 بمتابعة شهادة الدكتوراة في علم الاجتماع في جامعة شيكاغو. وكان مهتماً بفهم كيف يشكل الشباب هوياتهم (شخصياتهم)؛ ومن أجل ذلك، أمضى ثلاثة أشهر فقط يلاحق (الميت الممتن Dead Grateful) في البلاد. وما لم يكن مهتماً به هو ميدان العمل القاسي الذي يحدد علم الاجتماع.

لكن أستاذه المشرف، كان العالم ويليام جوليوس ويلسون، أرسل فينكاتيش إلى هذا الحقل، وكانت مهمته: زيارة أفقر منطقة سوداء في شيكاغو ومعه دفتر ملاحظات ومعه سبعون سؤالاً، واستطلاع فيه خيارات متعددة. وكان هذا أول سؤال في هذا الاستطلاع:

ما هو شعورك حول كونك أسود وفقيراً؟

أ ـ سيء جداً.

ب ـ سيء.

ج ـ لاسيء ولا جيد.

د ـ جيد نوعاً ما.

هـ ـ جيد جداً.

في أحد الأيام مشى فينكاتيش حوالي عشرين شارعاً فرعياً من الجامعة إلى مشروع سكني يقوم على شاطئ كبير لبحيرة ميتشيغان، ليجري استبيانه. وكان المشروع مؤلفاً من ثلاثة أبنية في كل منها ستة عشر طابقاً مبنية من الآجر الأصفر. وسرعان ما اكتشف فينكاتيش أن الأسماء والعناوين المعطاة له قد عفى عليها الزمان تماماً، فهذه الأبنية غير صالحة وهي مهجورة عملياً. كانت بعض العائلات تسكن الطوابق السفلية وتسرق الماء والكهرباء، لكن المصاعد لم تكن تعمل. وكذلك لم تعمل أنوار بيت الدرج. وكان الوقت بعض الظهر في أوائل الشتاء، وبدأ الظلام يحل في الخارج.

شق فينكاتيش وهو شخص وسيم ومفكر وجسمه مبني جيداً وبطريقة طبيعية وشجاع، طريقه إلى الطابق السادس، وهو يحاول أن يجد شخصاً ما؛ ليأخذ الاستبيان.

وفجأة، أدهش على المشى في بيت الدرج، مجموعة من المراهقين يرمون بالزهر، وتبين أنهم عصابة من صغار تجار المخدرات الذين يعملون في خارج البناء، ولم تسعدهم رؤيته.

وتمتم فينكاتيش وهو يتمسك بنص استبيانه: «إنني طالب في جامعة شيكاغو، وأجري.. «اغرب عنّا أيها الزنجي، ماذا تفعل هنا في بنائنا؟»».

وكانت تدور حرب عصابات في شيكاغو. وكانت الأمور عنيفة في المدة الأخيرة، مع إطلاق نار في كل يوم تقريباً. وكانت هذه العصابة، وهي فرع من «عصابة مريد الأمة الأسود» مهتاجة وسريعة الغضب، ولم يعرفوا ماذا يفعلون بفينكاتيش، إذ لا يبدو عليه أنه من عصابة منافسة، ولكنه قد يكون جاسوساً؟ وبالتأكيد لم يكن شرطياً، ولم يكن أسودَ ولم يكن أبيض، ولم يكن مهدداً بمعنى الكلمة ـ كان مسلحاً ولكن بمسند للكتابة فقط ـ ولكنه لم يكن يبدو أنه ليس خطراً

أيضاً. وبسبب متابعته لعصابة «الميت الممتن» لمدة ثلاثة أشهر، لا يزال يبدو، كما قال فيما بعد، (مثل غريب أصيل ذي شعر منسدل على ظهره حتى قفاه).

بدأ أعضاء العصابة يناقشون ماذا يجب فعله مع فينكاتيش، أنتركه يذهب؟ لكنه إن أخبر العصابة المنافسة عن هذا المكان في بيت الدرج، فيحتمل أن تقوم بهجوم مفاجئ. وقد كان أحد الأعضاء عصبياً ويهز بيده شيئاً إلى الأمام والخلف ـ في الضوء الخافت وعرف فينكاتيش أخيراً أن بيده مسدساً ـ وتمتم: «اتركوه لي ـ اتركوه لي». وكان فينكاتيش خائفاً جداً.

وازداد الجمع وأصبح أكبر، ويصدر أصواتاً أعلى. ومن ثم ظهر عضو عصابة كبير، وأخذ مسند الكتابة من يدي فينكاتيش، وعندما رأى أنها استمارة مكتوبة نظر محتاراً.

قال: لا أستطيع أن أقرأ شيئاً من هذا الهراء.

ورد عليه أحد المراهقين: «ذلك لأنك لاتستطيع القراءة» وضحك الجميع من العضو الكبير.

وطلب من فينكاتيش أن يتابع ويطرح سؤالاً عليه من الاستبيان، فبدأ فينكاتيش بسؤال ما هو شعورك وأنت أسود وفقير؟ وقوبل السؤال بجولة من القهقهة، وبعضهم أكثر غضباً من بعضهم الآخر. وكما سيخبر فينكاتيش زملاءه في الجامعة فيما بعد، أدرك أن الخيارات المتعددة للإجابات من أ إلى د لم تكن كافية. وبالواقع لقد عرف الآن أن الإجابات يجب أن تكون كما يلي:

أ ـ سيء جداً.

ب ـ سيء.

ج ـ لاسيء ولا جيد.

د ـ جيد نوعاً ما.

هـ- جيد جداً.

و- اعزب عنا.

وعندما كانت الأشياء تبدو في أسوأ حال بالنسبة لفينكاتيش ظهر رجل آخر. وكان هذا جي تي رئيس العصابة. أراد جي تي رئيس العصابة أن يعرف ماذا كان يجري. وبعد ذلك طلب من فينكاتيش أن يقرأ عليه سؤال الاستبيان. وأصغى لكنه قال بعد ذلك: إنه لايستطيع الإجابة؛ لأنه لم يكن أسود.

فقال فينكاتيش: «حسناً إذن، ما هو شعورك لكونك إفريقياً أمريكياً فقيراً؟».

فأجاب جي تي: «إنني لست إفريقياً أمريكياً أيضاً، أيها الأحمق، إنني زنجي» ومن ثم قدم جي تي درساً حيوياً وودياً بالتصنيف: «الزنجي» مقابل «الأمريكي الإفريقي» وضد «الأسود». وعندما انتهى خيم صمت محير، وظل الأمر، إذ لايعرف أحد ماذا سيفعلون بفينكاتيش. وهدأ جي تي، الذي كان في أواخر العشرينيات من العمر: الذين كانوا دونه، لكنه لم يكن يريد أن يتدخل مباشرة بأسيرهم. خيم الظلام وذهب جي تي. وقال المراهق العصبي: «لايخرج الناس من هنا أحياء» ومسدسه بيده وقال لفينكاتيش: «إنك تعرف ذلك، أليس كذلك؟».

وعندما اشتد الظلام، تساهل الآسرون. فأعطوا فينكاتيش واحداً من مشروبهم (البيرة) ومن ثم أعطوه شراباً آخر، ومن ثم آخر. وعندما أراد أن يتبول، ذهب إلى حيث يذهبون، على شرفة بيت الدرج في الطابق الأعلى. وتوقف جي تي بضع مرات خلال الليل، لكنه لم يكن لديه الكثير ليقوله. وجاء الفجر، ومن ثم الظهيرة. ويحاول فينكاتيش بين الفينة والأخرى مناقشة استبيانه، لكن تجار المخدرات الصغار كانوا يضحكون فقط ويخبرونه عن غباء أسئلته. وأخيراً، مر ما يقرب من أربع وعشرين ساعة على تعثر فينكاتيش بهم، فأطلقوا سراحه.

ذهب إلى البيت واستحم. فقد شعر بالخلاص لكنه كان قلقاً ؛ وخطر لفينكاتيش أن معظم الناس، بمن فيهم هو ذاته، لم يفكروا قط بالحياة اليومية لمجرمي الأقليات المحرومة. وكان الآن تواقاً لمعرفة كيف يعمل «المريدون السود» من القمة إلى أسفل الهرم.

وبعد بضع ساعات، قرر أن يعود إلى مشروع المساكن. وفي هذا الوقت قد فكر في بعض أسئلة أفضل ليطرحها، بعد ما رأى أولاً أن الحكمة التقليدية لجمع المعطيات في هذه الحالة سخيفة، أقسم فينكاتيش أن ينبذ استمارته وأن يثبت نفسه مع العصابة. فراح يتابع جي تي وأبلغه مخططاً لمشروعه. وظن جي تي أن فينكاتيش مجنون، بصورة حرفية ـ طالب جامعة يريد أن ينتقل إلى عصابة مخدرات! لكنه في الوقت نفسه أعجبه ما يريده فينكاتيش. وكما جرى الأمر، فقد كان جي تي نفسه خريج جامعة من قسم الأعمال، وبعد الكلية التحق بشركة لوب وعمل في قسم التسويق في الشركة التي تبيع معدات مكتبية، لكنه شعر أنه غريب في ذلك المكان ـ كونه رجلاً أبيضاً يعمل في قيادة أفروشاهين، وكان يجب أن يقول لدرجة أنه ترك العمل. لكنه لايزال يذكر ما تعلمه، وعرف أهمية جميع المعطيات وإيجاد أسواق جديدة، وكان دائم البحث عن إستراتيجيات إدارية أفضل. فلم يكن من المصادفة، بعبارة أخرى، أن جي تي كان رئيس عصابة المخدرات هذه. فقد تربى ليكون رئيساً.

وبعد جدال وعد جي تي فينكاتيش بالوصول إلى معلومات مريحة وخالية من المسؤولية مادام جي تي يحتفظ بحق النقض حول أي معلومات لن تكون ضارة إذا ما نشرت.

وعندما هدمت الأبنية الرمادية الصفراء على شاطئ البحيرة بعد زيارة فينكاتيش بوقت قصير، انتقلت العصابة إلى مشروع مساكن آخر أعمق في جنوب مدينة شيكاغو. وفي السنوات الست المقبلة، عاش فينكاتيش هناك تقريباً، وتحت حماية جي تي راقب أعضاء العصابة عن قرب وهم يعملون، وفي بيوتهم. وسأله أسئلة لانهاية لها. وكان أعضاء العصابة في بعض الأحيان يساورهم القلق من فضوله؛ وفي معظم الأحيان كانوا يستغلون رغبته بالاستماع. فأخبره أحد التجار: «هناك حرب في الخارج يارجل. وأقصد أن الناس في كل يوم يصارعون من أجل العيش، كما تعلم، فإننا نعمل ما نستطيع

عمله فليس أمامنا أي خيار، وإن كان هذا يعني أننا قد نقتل، فلا يهم، فهذا ما يفعله الزنوج هنا ليعيلوا عائلاتهم».

وكان فينكاتيش ينتقل من عائلة إلى أخرى وهم يغسلون أطباق الطعام وينامون على الأرض. وكان يجلب الألعاب لأطفالهم؛ وشاهد ذات مرة امرأة تستخدم صدارة طفل لتمسح دم تاجر مخدرات مراهق، وقد أعدم أمام فينكاتيش. وكان وليام جوليوس ويلسون من جامعة شيكاغو يحلم بكوابيس منتظمة بالنيابة عن فينكاتيش.

ومع مرور السنين تحملت العصابة حروباً دموية واتهاماً اتحادياً في النهاية. وكان عضو اسمه بوتي ورتبته أدنى من رتبة جي تي قد جاء بقصة. إذ وجهت العصابة اللوم إلى بوتي، لأنه سبب الاتهام، وأخبر فينكاتيش، ولذلك يشك في أنه سيقتل قريباً. ولأن كل أحاديث العصابة حول كيفية المتاجرة بالمخدرات لم تجلب أي ضرر وهم يحبون التفاخر بأنهم احتفظوا بمال السود في مجتمع السود فكان بوتي يشعر أنه مذنب. وأراد أن يترك وراءه شيئاً قد يفيد بطريقة ما الجيل الآتي.

وسلم فينكاتيش كومة من دفاتر الملاحظات السلكية البالية باللون الأزرق والأسود وهذا هو شعار العصابة. وتمثل هذه الدفاتر سجلاً كاملاً للعمليات المالية للعصابة خلال أربع سنوات. وبتوجيه من جي تي تم جمع السجلات بشكل صحيح: المبيعات، والأجور والرسوم وحتى مكافآت الموت التي دفعت إلى عائلات الأعضاء الذين قتلوا.

في البداية، لم يكن فينكاتيش يريد هذه الدفاتر. ماذا سيحدث لو اكتشفها الاتحاديون، ربما يوجه إليه اتهام أيضاً، وإضافة إلى ذلك، ماذا يفترض أن يفعل بهذه المعطيات؟ فعلى الرغم من خلفيته الجيدة في الرياضيات، إلا أنه قد توقف منذ زمن طويل عن التفكير بالأرقام.

بعد استكمال أعمال التخرج في جامعة شيكاغو، منح فينكاتيش البقاء في جمعية زملاء هارفارد لمدة ثلاث سنوات. فبيئتها التفكير الحاد وسلامة الطوية ـ فطبقات خشب الجوز وعربة الشيري التي امتلكها ذات مرة أوليفر ويندل هولمس ـ جعلت فينكاتيش مسروراً.

وراح يتقدم إلى أن يصبح مضيف نبيذ الجمعية. لكنه كان يغادر كامبريدج بانتظام ويعود المرة تلو الأخرى إلى عصابة المخدرات في شيكاغو وجعل هذا البحث الميداني (في الشارع) فينكاتيش شيئاً ذا غرابة. فمعظم الزملاء الشباب الآخرين كانوا يتصفون بأنهم عقلانيون ويحبون التلاعب بالألمانية.

كان أحد أهداف الجمعية جمع العلماء من الميادين المختلفة الذين قد لايجدون فرصة للاجتماع لولا هذا. فقابل فينكاتيش زميلاً غريباً آخر لا ينطبق عليه نمط الجمعية. وصادف أن هذا الزميل اقتصادي يفضل قائمته الخاصة غير العادية من الفضول، عوضاً عن التفكير بالأفكار العظيمة في الاقتصاد الكبير، وعلى قمة قائمته هذه تأتي الجريمة. وهكذا، خلال عشر دقائق من اجتماعهم، أخبر سودير فينكاتيش ستيفن ليفيت عن دفاتر الملاحظات السلكية من شيكاغو، فقررا التعاون على ورقة عمل. فتكون المرة الأولى التي يقع فيها مثل هذه المعطيات الثمينة بين يدي اقتصادي، ليقدم تحليلاً للعمل الجنائي المجهول حتى الآن.

إذن، كيف تعمل العصابة؟ عدد مخيف من الناس يحبون معظم الشركات الأمريكية، وبالفعل على الرغم من أنه ما من شركة أكثر شهرةً من ماكدونالد، إلا أنك إذا أمسكت بمخطط تنظيمي لشركة ماكدونالد وبمخطط تنظيمي لعصابة للمزيد من السود جنباً إلى جنب، فإنك قد لا تستطيع أن تجد الفرق.

والعصابة التي وقع فيها فينكاتيش كانت ذات مئة فرع ـ وهي شركات بامتياز حقاً ـ وهي منظمة أكبر من المريدين السود. جي تي وهو رئيس ذو ثقافة جامعية لشركة بامتياز، مسؤول أمام قيادة مركزية مؤلفة من عشرين رجلاً وكان يسمى،

دون أي سخرية، مجلس المديرين. (وفي الوقت ذاته كان سكان الضواحي البيض يقلدون بصورة جدية ثقافة أحياء الأقلية الطوارق السوداء، وكان مجرمو حي الأقلية السوداء يقلدون بصورة جدية آباء سكان الضواحي). ودفع جي تي لمجلس المديرين ما يقرب من 20٪ من دخله مقابل حق بيع المخدرات في منطقة مؤلفة من 12 مجمعات مربعة. وباقي المال كله؛ ليقوم بتوزيعه كما يرى مناسباً.

وكان ثلاثة مسؤولين أمام جي تي: المنفذ (وهو الشخص الذي يضمن سلامة أعضاء العصابة)، والخازن (وهو الشخص الذي يشرف على الأموال السائلة للعصابة)، والعداء (وهو من ينقل كميات كبيرة من المخدرات والمال من المورد وإليه). ويأتي تحت المسؤولين البائعون في الشارع وكانوا يعرفون بجنود المشاة. وكان هدف جندي المشاة إلى يوم ما أن يصبح مسؤولاً. وقد يكون لدى جي تي ما بين خمس وعشرين وخمس وسبعين من جنود المشاة في جدول رواتبه في أي وقت، ويعتمد ذلك على فصل السنة (كان الخريف هو الموسم المفضل لبيع المخدرات؛ وكان موسم الصيف وأعياد الميلاد موسماً منخفضاً)، وعلى حجم أرض العصابة (وقد تتضاعف هذه الأرضية عندما يخطط المريدون السود لاحتلال أرض عصابة منافسة). وفي قاع منظمة جي تي وجد ما يقرب من مئتي عضو يعرفون باسم المرتبة والملف. لم يكونوا مستخدمين قط. لكنهم دفعوا الرسوم (الإتاوة) إلى العصابة، بعضهم للحماية من العصابات المنافسة، وآخرون لفرصة الحصول على مهمة جندي مشاة في النهاية.

والسنوات الأربع المسجلة في دفاتر العصابة تصادفت مع سنوات القمة في ازدهار المخدرات، وكان الشغل ممتازاً. ولقد ازداد دخل الشركة بامتياز أربع مرات خلال هذه المدة. ففي السنة الأولى، حصلت على معدل وسطي بلغ 18500 دولار في كل شهر؛ وفي السنة الأخيرة كانت تجمع 68400 دولار شهرياً. وفيما يلي نظرة على المداخيل الشهرية في السنة الثالثة:

مبيعات المخدرات	24800 دولار
رسوم	5100
ضرائب فوق العادة	2100
مجموع الدخل الشهري	32000 دولار

وتمثل «مبيعات المخدرات» الأموال من تجار الكوكائين. وسمحت العصابة لبعض أعضاء الرتبة والملف لأن يبيعوا الهيروين في منطقتهم، لكنها قبلت برسم ترخيص ثابت مقابل حصة من الأرباح. (وكانت هذه أموال خارج الدفاتر وراحت مباشرة إلى جيب جي تي؛ وربما أخذت من مصادر أخرى أيضاً).

وجاءت الرسوم 5100 دولار من الأعضاء المرتبة والملف فقط، ذلك لأن أعضاء العصابة الكاملين لم يدفعوا أي رسوم والضرائب فوق العادة دفعتها شركات أخرى عملت في منطقة العصابة، بما في ذلك محلات البقالة وعربات الغجر، والقوادون والأشخاص الذين يبيعون السلع المسروقة أو يصلحون السيارات في الشارع.

والآن هاهنا تكاليف جي تي بعد استبعاد الأجور لإدخال 32000 دولار شهرياً.

كلفة المخدرات مبيع بالجملة	5000 دولار
رسم مجلس المديرين	5000 دولار
مقاتلون مرتزقة	1300 دولار
أسلحة	300 دولار
متفرقات	2400 دولار
مجمل التكاليف الشهرية من غير الأجور	14000 دولار

لم يكن المقاتلون المرتزقة أعضاء ويستأجرون بعقود لمدة قصيرة؛ ليساعدوا في خوض حروب العصابة، دفاعاً عن أراضيها وكلفة السلاح هنا قليلة؛ لأن عصابة المريدين السود تعقد صفقة جانبية مع موردي الأسلحة المحليين الذين

يساعدون في تفتيش الجوار؛ لقاء أسلحة مجاناً أو محسومة حسماً كبيراً. والنفقات المتفرقة تشمل رسوماً قضائية وحفلات ورشاوى و «أحداث المجتمع» التي تشرف عليها العصابة. (بذلت عصابة المريدين السود جهداً كبيراً؛ لتبدو عموداً لمجتمع المشروع السكني، بدلاً من سوط). وشملت النفقات المتفرقة أيضاً النفقات المتعلقة بمقتل عضو العصابة. فلم تدفع العصابة نفقات الجنازة فقط، لكنها تدفع نفقة تبلغ أجور ثلاث سنوات إلى عائلة الضحية. سأل فينكاتيش ذات مرة: لماذا تكون العصابة سخية في هذا المجال. فكان الجواب: «هذا سؤال غبي ومزعج؛ لأنه مادمت معنا، فإنك لاتفهم أن عائلاتهم هي عائلاتنا. ولانستطيع تركهم خارجاً، ونحن نعرف هؤلاء الأشخاص طيلة حياتنا، يا رجل، لذا فإننا نحزن عندما يحزنون. فعليك احترام العائلة». وكان هناك سبب آخر لمساعدات الوفاة؛ إذ كانت العصابة تخشى رد فعل معاد (فعملها بكل بساطة عمل تخريبي) ويظن أنها تستطيع شراء بعض النوايا الحسنة؛ لقاء مئات من الدولارات تنفق هنا وهناك.

وباقي الأموال التي أخذتها العصابة تذهب إلى أعضائها، بدءاً من جي تي. وهنا فقرة بسطر واحد في ميزانية العصابة جعلت جي تي أسعد إنسان:

ربح شهري صاف يصرف للقائد	8500 دولار

وبراتب جي تي الشهري 8500 دولار يبلغ راتبه السنوي 100000 دولار من دون ضرائب طبعاً، ولايشمل الأموال التي يتلقاها من خارج الدفاتر. وهذا أكثر من المال الذي كسبه في وظيفته التي لم تطل في مكتب شركة اللوب. وجي تي واحد مما يقرب من مئة قائد بهذا المستوى في شبكة المريدين السود. لذا كان هناك بالفعل بعض تجار المخدرات الذين استطاعوا العيش بهذه السعة الكبيرة ـ في حالة مديري مجلس العصابة ـ، فكل واحد من العشرين رئيس في القمة كانوا يكسبون ما يقرب من 500000 دولار في السنة.

(لكن ثلثهم كانوا يسجنون بشكل طبيعي في أي وقت، وهذا هبوط مهم لوظيفة عالية في أي صناعة مكشوفة).

وهكذا، فإن 120 رجلاً في قمة هرم المريدين السود يدفع لهم بشكل جيد، لكن الهرم الذي يجلسون على قمته ضخم. وإذا أخذنا شركة الامتياز لجي تي كمسطرة ـ فإن ثلاثة مسؤولين ومايقرب من 50 جندي مشاة ـ كان هناك 5300 رجل يعملون لهؤلاء القادة المئة والعشرين. ومن ثم هناك 20000 عضو غير مأجورين من الرتبة والملف، وكثير منهم لم يكونوا يريدون شيئاً أكثر من فرصة ليصبحوا جُنداً مشاة، بل وحتى كانوا يرغبون بدفع رسوم العصابة؛ ليكون لهم فرصهم.

وما هو مدى ما يدفعه العمل الحلم هذا؟ هنا مجموعات شهرية للأجور التي دفعها جي تي لأعضاء عصابته:

مجموعة أجور دفعت للمسؤولين الثلاثة	2100 دولار
مجموع أجور دفعت لجنود المشاة	7400 دولار
مجموع الأجور الشهرية للعصابة (من دون القائد)	9500 دولار

وهكذا؛ فقد دفع جي تي إلى عماله مبلغ 9500 دولار رواتب شهرية مجموعة، وهذا يزيد عن مرتبه الشهري الرسمي بألف دولار فقط. ويبلغ الأجر الساعي لجي تي 66 دولاراً. بينما يأخذ كل من المسؤولين الثلاثة عنده 700 دولار بالشهر الواحد. وهذا يعني مقدار 7 دولارات بالساعة. وكسب جندي المشاة 30.3 دولاراً بالساعة فقط، أي أقل من الحد الأدنى للأجور. وهكذا تكون الإجابة عن السؤال الأصلي، وهو إذا كان تجار المخدرات يكسبون هذا القدر من المال. فلماذا لا يزالون يعيشون مع أمهاتهم؟ ـ هل لأنهم ـ باستثناء القطط الكبار، لا يكسبون مالاً كثيراً، فلا يكون أمامهم خيار آخر سوى أن يعيشوا مع أمهاتهم. فبالنسبة

لكل كاسب كبير، هناك مئات يعيشون على الفتات. يمثل المئة والعشرون شخصاً في قمة عصابة مريدين السود مقدار 2.2 ٪ من الأعضاء الناضجين والمليئين في العصابة، ولكنهم يأخذون معهم أكثر بكثير من نصف المال.

بعبارة أخرى، تعمل عصابة المخدرات بشكل جيد يشبه الشركة الرأسمالية القياسية: وعليك أن تكون قريباً من قمة الهرم؛ لتأخذ أجراً كبيراً. وبغض النظر عن خطاب القيادة حول الطبقة العائلية للعمل، فإن أجور العصابة منحرفة انحراف الأجور في شركة أمريكية، فأشياء مشتركة كثيراً بين جندي المشاة وعامل الهمبرغر لدى ماكدونالد أو عامل صف البضاعة على الرفوف لدى شركة وول ماركت.

وفي الواقع إن معظم جنود المشاة لدى جي تي يأخذون وظائف بالحد الأدنى للأجور في القطاع القانوني لاستكمال معاشاتهم الصغيرة. وقد أخبر قائد عصابة مخدرات آخر ذات مرة فينكاتيش أنه يستطيع أن يدفع أكثر بسهولة لجنود المشاة، ولكن لن يكون ذلك أمراً حكيماً. «فسيبقى كل هؤلاء الزنوج الذين هم دونك يريدون وظيفتك، أليس كذلك؟ لذا، أنت تعرف أنك تحاول أن تهتم بهم، ولكن كما تعرف، عليك أيضاً أن تريهم أنك أنت الزعيم، وعليك أن تأخذ حصتك أولاً، وإلا فإنهم يعتقدون أنك لست القلعة، فإذا بدأت تتحمل الخسارة. فإنهم يرون أنك ضعيف وما تفعله هراء.

وإلى جانب الدفع السيء، يواجه جنود المشاة ظروف عمل خطيرة. فبالنسبة للمبتدئين، يتعين عليهم أن يُنفوا في زاوية الشارع طوال النهار، وأن يقوموا بعمل مع المعتوهين. (ويحذر أعضاء العصابة تحذيراً قوياً من ألاّ يستخدموا المنتج شخصياً، والنصيحة مدعومة بالضرب إذا لزم الأمر.) ويخاطر الجنود المشاة باحتمال الاعتقال والعنف، وهو ما يقلق. وباستخدام الوثائق المالية للعصابة وبقية بحث فينكاتيش، من الممكن إعادة تركيب جدول أحداث معاكسة لعصابة جي تي خلال السنوات الأربع موضوع البحث. إن النتائج كئيبة بشكل مدهش.

فإن كنت عضواً في عصابة جي تي خلال السنوات الأربع كلها فها هو المصير النمطي الذي كنت ستواجهه خلال تلك المدة.

عدد مرات الاعتقال	5.9
عدد الإصابات غير المميتة والجروح (فيما عدا الإصابات التي تأتي من العصابة نفسها لمخالفة قوانينها)	2.4
فرص القتل	1 من 4

إن فرصة أن يقتل المرء هي 1 من 4، قارن هذه الفرص بكون المرء يعمل حطاباً، وهي التي تدعوها إحصائيات مكتب العمل بأخطر عمل في الولايات المتحدة. فخلال أربع سنوات، يحتمل الحطاب فرصة 1 من 200 لأن يقتل. أو قارن تجار المخدرات مع صف نزلاء السجن الذين يموتون في تكساس، وهي الولاية التي تعدم سجناء أكثر من أي ولاية أخرى. ففي 2003 أعدمت تكساس أربعة وعشرين سجيناً ـ أو فقط 5٪ من أصل 500 سجين ينتظرون الإعدام في ذلك الوقت.

وهذا يعني أنك تنتظر فرصة أكبر للموت وأنت تتاجر بالمخدرات في مشروع المساكن في شيكاغو من انتظار في صف الموت في تكساس.

وهكذا إن كانت تجارة المخدرات هي العمل الأكثر خطورة في أمريكا، وإن كان الراتب هو 3.3 دولارات بالساعة، فبحق السماء لماذا يرغب أي شخص باتخاذ هذا العمل؟

حسناً، لهذا السبب نفسه، فإن تلك الفلاحة الجميلة من ويسكانسن تنتقل إلى هوليود، وللسبب ذاته أيضاً يستيقظ لاعب كرة القدم في المدرسة الثانوية الساعة الخامسة صباحاً؛ ليرفع الأثقال.

إنهم جميعاً يريدون أن ينجحوا في ميادين التنافس المتطرف التي يصلون بها إلى القمة، ويدفع لهم ثروات (ولنتوقف عن قول أي شيء من النصر والقوة التي تنتظرهم).

بالنسبة للأطفال الذين يتربون في المشروع السكني في الجانب الجنوبي من شيكاغو، كانت تجارة المخدرات مهنة رائعة. وبالنسبة للكثيرين منهم كانت مهنة رئيس عصابة ـ التي ينظر إليها على أنها عالية ومربحة مالياً ـ بكل بساطة أفضل عمل يظنون أنهم سيصلون إليه. هل كبروا في ظروف مختلفة؟ ربما فكروا في أنهم يصبحون اقتصاديين أو كتاباً. ولكن في المنطقة التي عملت بها عصابة جي تي، كان الطريق إلى عمل قانوني وشريف غير مرئي عملياً. 56٪ من أطفال المنطقة كانوا يعيشون تحت خط الفقر(بالمقارنة مع النسبة 18٪ المعدل الوسطي القومي). 78٪ منهم جاؤوا من بيوت ذات والد واحد. وأقل من 5٪ من بالغي المنطقة يحملون درجة معينة؛ ومجرد واحد من ثلاثة رجال بالغين كانوا يعملون فقط. ومتوسط دخل المنطقة قرابة 15000 دولار بالسنة، وهو أقل من نصف معدل الدخل في الولايات المتحدة. وخلال السنوات التي عاش فينكاتيش مع عصابة جي تي، كان جنود المشاة يطلبون مساعدته في عملهم بما يسمونه «عملاً جيداً» أي يعملون كحارس في جامعة شيكاغو.

ومشكلة العمل في تجارة المخدرات هي ذاتها في أي عمل رائع آخر: فكثير من الناس ينافسون من أجل جوائز أقل قليلاً. فكسب المال الكثير في عصابة المخدرات لم يكن أكثر احتمالاً من الفلاحة التي أصبحت نجمة سينمائية أو لاعب كرة القدم في المدرسة الثانوية يلعب في اتحاد كرة القدم القومي.

لكن المجرمين، مثل أي شخص آخر، يستجيبون لحوافزهم. لذا إن كانت الجائزة كبيرة تماماً، فإنهم سيشكلون خطاً في الشارع ويأملون بفرصة. في الجانب الجنوبي من شيكاغو، الناس الذين يريدون بيع المخدرات يزيد عددهم زيادة كبيرة عن زوايا الشارع الموجودة.

اصطدم أسياد المخدرات بقانون العمل الثابت عندما يوجد عدد كبير من الناس يرغبون في القيام بعمل ما ويستطعون ذلك، فإن ذلك العمل لايدفع أجراً كبيراً بشكل عام. وهذا واحد من العوامل الأربعة التي تقرر الأجر والعوامل الأخرى، وهي المهارات الخاصة التي يتطلبها العمل، وفظاعة العمل، والطلب على الخدمات التي يحققها العمل.

يساعد هذا التوازن الدقيق بين هذه العوامل في شرح السبب، فعلى سبيل المثال، تكسب البغِيّ مالاً أكثر من المهندس العادي. ولايبدو أنها رغم ذلك ينبغي أن تكسبه. ويبدو المهندس أنه أكثر مهارة (كم يظهر من تعريف الكلمة) وأكثر ثقافة (ومرة أخرى كما يبدو من تعريف الكلمة). لكن الفتيات الصغيرات لا تتمون وهن تحلمن بأن يصبحن بغِيّات، لذلك فتوريد البغيات المحتملات يبقى صغيراً نسبياً. ومهاراتهن، وهي غير«اختصاصية» بالضرورة، تتم ممارستها في مجال مختص تماماً. المهنة كريهة ومقززة بطريقتين مهمتين على الأقل: احتمال العنف وضياع فرصة تكوين حياة عائلية مستقرة. وأما بالنسبة للطلب، فدعنا نقل: إن المهندس أكثر احتمالاً للاستئجار أكثر من احتمال استئجار البغي لمهندس.

في المهن المبهرة ـ السينما والرياضة والموسيقى والأزياء ـ هناك تباين دينامي في العمل. وحتى في المهن الرائجة من الدرجة الثانية مثل الطباعة والنشر والإعلان ووسائل الإعلام، فإن مجموعات من الشباب يلقون بأنفسهم في المهن القابعة التي تدفع القليل وتطالب بالمحبة والتكريس غير المحدود. فمساعد رئيس التحرير الذي يكسب 22000 دولار في دار نشر في مانهاتن، ولاعب كرة القدم الذي لايدفع له شيء، وتاجر المخدرات المراهق الذي يكسب 3.30 دولارات بالساعة جميعاً يلعبون اللعبة ذاتها، وهي اللعبة التي ينظر إليها بصورة أفضل على أنها منافسة.

وقواعد المنافسة مباشرة. فيجب أن تبدأ من القاع لتصيب بضربة عند القمة. (تماماً مثل وقفة في الاتحاد الكبير، وربما لعب الاتحاد الصغير، وكالوحش

الكبير في جمعية كوكلوكس كلان الذي بدأ في مرتبة منخفضة كحامل رمح، وهو سيد مخدرات نمطي بدأ (بعمل) المخدرات عند زاوية الشارع). يجب أن تكون راغباً في العمل الطويل والشاق بأجور دون الأجور القياسية. وحتى تتقدم في المنافسة، يجب أن تثبت أنك لست مجرد عامل فوق المعدل ولكنك رائع. (تختلف الطريقة التي تميز بها نفسك من أداء مهنة إلى أخرى، طبعاً راقب جي تي أداء جنود المشاة لديه، وكانت قوة شخصياتهم هي التي أخذت بالحسبان ـ أكثر مما كانت في حمام الإظهار مثلاً).

وأخيراً، تأتي إلى الإدراك الحزين الذي لن يوصلك إلى القمة، فإنك سوف تترك المنافسة (ينتظر بعضهم زمناً أطول من الآخرين ـ انظر الممثلين الذين يقومون بعمل النادل عند الطاولات في نيويورك ـ لكن الناس عموماً يفهمون الرسالة في وقت مبكر تماماً).

كان معظم جنود المشاة لدى جي تي لا يرغبون في البقاء كجنود مشاة زمناً طويلاً بعد إدراكهم أنهم لايتقدمون. ولاسيما، عندما يبدأ الإطلاق. فبعد بضع سنوات سلمية نسبياً، تنخرط عصابة جي تي في حرب على المنطقة مع عصابة مجاورة. وأصبح إطلاق النار الهجومي حدثاً يومياً، فبالنسبة إلى جندي المشاة ـ رجل العصابة في الشارع ـ كان هذا التطور خطيراً بصورة خاصة. فقد تطلبت طبيعة العمل أن يتمكن الزبائن من أن يجدوه بسهولة وبسرعة؛ فإذا اختبأ من العصابة الأخرى، فإنه لا يستطيع بيع مخدراته.

وحتى حرب العصابة، كان جنود المشاة لدى جي تي يرغبون بموازنة العمل الخطير وذي الأجر القليل بجائزة التقدم. ولكن كما قال أحد جنود المشاة لفينكاتيش، إنه يريد الآن أن يعوض عن الخطر الإضافي، «هل تقف هنا حيث كل هذا الهراء يستمر؟ لا، صح؟ لذا إن كان سيطلب مني أن أضع حياتي على هذا الخط عندئذ قدم لي المال، يارجل، ادفع لي أكثر؛ لأن ذلك لا يساوي وقتي الذي أقضيه هنا، حيث يتحاربون».

لم يكن جي تي يريد تلك الحرب. وذلك لشيء واحد، لقد أجبر على دفع أجور أعلى إلى جنود المشاة بسبب هذا الخطر الإضافي. والأسوأ كانت حرب العصابات شيئاً فشيئاً بالنسبة للعمل. فإذا بدأت شركة بيرغركنغ وشركة ماكدونالد حرب أسعار، وذلك لكسب حصة في السوق، فإنهم يعوضون ذلك بصورة جزئية في حجم ما يخسرونه بالسعر. (ولايقتل أحد) ولكن في حرب العصابة، تنخفض المبيعات؛ لأن الزبائن يخافون جداً من العنف إلى درجة لا يخرجون معها إلى مناطق مكشوفة لشراء المخدرات. وفي كل طريقة، كانت الحرب مكلفة جداً لجي تي.

إذن، لماذا بدأ الحرب؟ بالواقع إنه لم يبدأها. فقد بدأ جنود المشاة لديه. وتبين أن رئيس تجارة المخدرات لم يكن لديه سيطرة كبيرة على من هم دونه كما يجب، وذلك لأن لديهم دوافع مختلفة.

بالنسبة لجي تي كان العنف إهمال العمل ؛ إنه يفضل ألا يقوم أعضاؤه بإطلاق طلقة واحدة. لكن بالنسبة إلى جندي المشاة كان العنف يخدم هدفاً. فهو إحدى الطرق التي يميز فيها جندي المشاة نفسه. ويتقدم بالمنافسة، فذلك بإثبات همته بالعنف. فالقاتل يحظى بالاحترام والخوف والحديث عنه. وكان حافز جندي المشاة أن يحقق لنفسه اسماً؛ كان حافز جي تي بالنتيجة، أن يمنع جنود المشاة من القيام بذلك، وقال ذات مرة إليفينكاتيش: نحاول أن نقول لهؤلاء الصغار: إنهم ينتمون إلى منظمة خطيرة. ولا يقوم كل ذلك على القتل وحسب. بل إنهم يرون هذه الأفلام والهراء، ويعتقدون أن كل شيء يدور حول تمزيق ذلك الهراء. لكنها ليست كذلك، إذ عليكم أن تتعلموا أن تكونوا جزءاً من منظمة ؛ لايمكنكم أن تقاتلوا طول الوقت، فهذا شيء سيء للعمل.

وفي النهاية، سيطر جي تي، فقد رأى توسع العصابة وكشف عن عصر جديد من الازدهار والسلام النسبي. كان جي تي هو الفائز، ودفع له جيداً؛ لأن قلة صغيرة من الناس استطاعوا فعل ما فعله. كان رجلاً طويل القامة، وسيم المظهر وأنيقاً وقوياً يعرف كيف يستطيع تشجيع الناس. وكان ذكياً أيضاً، ولم يعط المبرر

لاعتقاله، وذلك بحمل مسدس أو أموال. بينما كانت بقية أفراد عصابته يعيشون في فقر مع أمهاتهم. كان لجي تي بضعة بيوت، وبضع نساء وبضع سيارات. ولديه ثقافة العمل طبعاً، ويعمل باستمرار على اتساع هذه المزية. ولهذا السبب طالب بدفاتر بأسلوب الشركات ووجد هذا طريقه إلى سودير فينكاتيش عندما عرض دفاتره على مجلس المديرين ليثبت، وكأن الإثبات كان ضرورياً، مدى فطنته العملية.

ونجح ذلك. فبعد ست سنوات من إدارته لعصابته المحلية، تم ترفيع جي تي إلى مجلس المديرين. وصار عمره الآن أربعاً وثلاثين سنة. وفاز بالمنافسة، ولكن هذه المنافسة ذات أهمية مثل النشر وتأييد الرياضة وحتى هوليود.. بيع المخدرات عمل غير قانوني، بعد كل ذلك. ولم يمض زمن طويل على دخوله مجلس المديرين، حتى كانت عصابة المريدين السود قد أغلقت في النهاية بأمر اتحادي ـ والحكم نفسه الذي أدى برجل العصابة المسمى بوتي إلى تسليم الدفاتر إلى فينكاتيش ـ وأودع جي تي في السجن.

والآن إلى سؤال آخر غير محتمل: ما هو الشيء المشترك بين مخدر الكوكائين والجوارب النايلون النسائية.

في سنة 1939 عندما قدم دوبونت النايلون شعرت نسوة أمريكيات لايحصى عددهن، كأن معجزة قد حدثت تكريماً لهن. فحتى ذلك الحين، كانت الجوارب النسائية تصنع من الحرير وكان الحرير ناعماً وغالياً ودائماً يتوافر لمدة قصيرة. وفي سنة 1941، تم بيع ما يقرب من أربعة وستين زوجاً من الجوارب النسائية المصنوعة من النايلون ـ جوارب أكثر من عدد النساء البالغات في الولايات المتحدة، فكانت الجوارب تشترى بسهولة وكانت جذابة بشكل كبير وعملياً تضاف إلى addictive.

لقد سحب روبرنت العمل الرائع الذي حلم به كل تاجر: لقد جعلت النساء عامة تبدو من الطبقة العليا. وبهذا الاعتبار، كان اختراع الجوارب النايلون للنساء يشابه بشكل ملحوظ اختراع مخدر الكوكائين.

ففي سنوات السبعينيات، إن كنت من الناس الذين يتعاملون بالمخدرات، لم يكن هناك مخدر أعلى من الكوكائين. وكان يحبه نجوم الروك ونجوم الأفلام ولاعبو الكرة وحتى السياسيين المؤقتين، كان الكوكائين مخدراً ذا قوة وزهو. فقد كان نظيفاً وأبيض وجميلاً، وكان الهيروين كئيباً ومسكراً، وضبابياً، لكن الكوكائين زاهٍ وجميل.

وكان مرتفع الثمن أيضاً. ولم يدم الشعور بالزهو طويلاً. مماجعل مستخدمي الكوكائين يجربون قوة المخدر ـ وكانوا يفعلون هذا مبدئياً بتحرير الأساس ـ فأضافوا النشادر والإثير الأثيلي إلى هيروكربونات الكوكائين، أو جعلوا الكوكائين مسحوقاً ناعماً، وحرقوه لتحرير الكوكائين «الأساسي». لكن هذا يمكن أن يكون خطراً. وكما أثبت ريتشارد بريوت بصورة مشهورة ــ وكان على وشك أن يقتل نفسه وهو يحرر الأساس ـ يجب ترك الكيمياء للكيميائيين.

في هذه الأثناء، كان تجار الكوكائين ومحبوه عبر البلاد، وربما في بلاد الكاريبي وأمريكا الجنوبية يشتغلون على طريقة أسلم لتقطير الكوكائين، ووجدوا أن خلط مسحوق الكوكائين في قدر مع خميرة الخبز والماء، ومن ثم طبخ السائل، فتنتج صخور صغيرة من الكوكائين المدخن. وأصبح اسمه (القرقعة) بسبب صوت القرقعة لخميرة الخبز الصادر عند حرقها، والأسماء المحببة التي أطلقت هي: الروك، وكريبتونيت، وكليز أند بيتس، وسكرابيل وحب. وفي أوائل الثمانينيات أصبح مخدر الطبقة العليا جاهزاً من أجل العامة. والآن أصبح شيئان فقط ضروريين لتحويل (القرقعة) إلى ظاهرة: توريد وافر من الكوكائين الخام وطريقة لإيصال المنتج الجديد إلى سوق العامة.

كان مجيء الكوكائين سهلاً، لأن اختراع الكوكائين تصادف مع إغراق السوق بالكوكائين الكولومبي. وخلال أواخر السبعينيات، هبط سعر الجملة للكوكائين في الولايات المتحدة هبوطاً حاداً، حتى وإن كان نقاؤه يزداد. رجل واحد، مهاجر نيكاراغوي اسمه أوسكار دانيلو بلاندون كان محل شك في استيراده

كوكائين كولومبي أكثر من أي شخص آخر. وأنجز بلاندون عملاً كبيراً مع تجار مخدرات جدد من الجنوب ولوس أنجلوس المركزية، حتى إنه أصبح معروفاً باسم جوني آبل سيد للمخدر (القرقعة). وادعى بلاندون فيما بعد أنه كان يبيع الكوكائين؛ ليجمع المال للكونتر التي تشرف عليها وكالة المخابرات المركزية سي آي إي بالعودة إلى الوطن في نيكارغوا. وكان يجب أن يقول: إن وكالة المخابرات المركزية بدورها تراقب عودته إلى الولايات المتحدة، فترك له المجال لبيع الكوكائين مع الشوائب. وهذا الادعاء قد يثير اعتقاداً لايزال حتى اليوم، ولاسيما بين السود في المدينة، بأن وكالة المخابرات نفسها كانت المشرف الرئيس على تجارة (القرقعات) الأميركية.

إن توضيح هذا الادعاء أبعد من مجال (مراجعة) هذا الكتاب. والصحيح الذي يمكن عرضه هو أن أوسكار دانيلو بلاندون ساعد في تأسيس رابطة ـ بين الكوكائين الكولومبي الكارتلات Cartels وتجار الكوكائين في المدينة ـ التي قد تغير التاريخ الأمريكي. وبوضع كميات كبيرة من الكوكائين بأيدي عصابات الشوارع. بلاندون وآخر مثله أثاروا ازدهار المخدر ازدهاراً كاسحاً. والعصابات مثل عصابة السود في الأمة أعطيت سبباً جديداً للوجود.

وطالما هناك مدن، فهناك عصابات من هذا النوع أو من نوع آخر. ففي الولايات المتحدة، كانت العصابات بصورة تقليدية نوعاً من منزلة في منتصف الطريق للمهاجرين الجدد. ففي العشرينيات كان في شيكاغو وحدها أكثر من 1300 عصابة في الشوارع، يهتمون بكل متكئ عرقي وسياسي وجنائي يمكن تصوره. وكقاعدة، قد تثبت العصابات أنها أفضل كثيراً في كسب جرم من كسب المال. وتخيل بعضهم أنفسهم كشركات تجارية، وتخيل قلة معهم ـ المافيا والأشهر ـ كسبت أمولاً بالواقع (على الأقل بالنسبة للموجودين في القمة). لكن معظم أعضاء العصابات رجال عصابات صغيرة، كما تؤكد الكليشة.

وعصابات الشوراع من السود التي ازدهرت ولاسيما في شيكاغو: والتي كان أعضاؤها بمئات الألوف في سنوات السبعينيات، وتكونت من نوع من المجرمين، الصغار وخلافه، الذين أمضوا الحياة في المناطق المدنية، وكان جزء من المشكلة أن هؤلاء المجرمين لم يبد أنهم اعتقلوا. كانت الستينيات والسبعينيات، كما يذكر، وقتاً عظيماً ليكونوا مجرمين في الشارع في معظم المدن الأمريكية. وكان احتمال العقوبة احتمالاً صغيراً جداً ـ وكان هذا Heyday لنظام قضائي ليبرالي وحركة حقوق المجرمين ـ وذلك ببساطة لم يكلف كثيراً لارتكاب جريمة.

ولكن في الثمانينيات، بدأت المحاكم بقلب ذلك الاتجاه جذرياً. فقطعت حقوق المجرمين ووضعت إرشادات لأحكام أشد في مكانها. وأودع الكثير من العصابات السود من شيكاغو في السجون الاتحادية، وبمصادفة سعيدة، كان بعض زملائهم السجناء من أعضاء عصابات مكسيكية بروابط حميمية مع تجار المخدرات الكولمبيين. وفي الماضي، اشترت عصابات السود مخدراتهم من وسيط، هو المافيا التي -كما حدث- كانت عندئذ تلاحقها قوانين الحكومة الاتحادية الجديدة. ولكن عندما وصلت (القرقعة) إلى شيكاغو، كان رجال العصابات السود قد أوجدوا العلاقات لشراء الكوكائين مباشرة من التجار الكولمبيين.

لم يكن الكوكائين طبيعياً مطلقاً في منطقة الأقلية: فكان باهظاً جداً. لكن هذا كان قبل اختراع الكوكائين. فهذا المنتج الجديد مثالي لأصحاب الدخل المنخفض، للزبون من مستوى الشارع. فإن احتجت إلى ذلك المقدار الصغير من الكوكائين النقي، فإن خبطة من (القرقعة) تكلف القليل من الدولارات فقط. فقوتها العالية تصل إلى المخ في بضع ثوانٍ فقط، ومن ثم تبهت بسرعة؛ فيحتاج المستخدم إلى أكثر من البداية، المخدر المقدر له؛ ليكون نجاحاً كبيراً.

من الذي يبيع المخدر أفضل من آلاف الأعضاء الصغار من كل تلك العصابات في الشارع مثل رجال عصابات السود في الأمة؟ امتلكت العصابات منطقة ـ كان العقار

بالجوهر عملهم الجوهري ـ وكانوا يهددون بإبعاد الزبائن من التفكير بنشره. وفجأة تطورت عصابة شارع المدينة من نادي المراهقين باتجاه شركة تجارية حقيقية.

وقدمت العصابة أيضاً فرصة العمل لزمن طويل، وقبل المخدر، كان من المستحيل كسب العيش في عصابة الشارع. وكان عندما يحين الوقت ليبدأ رجل العصابة في الكسب يبدأ بإعالة عائلة، فإنه قد يجب عليه المغادرة. لم يكن هناك شيء كهذا لرجل عصابة عمره ثلاثون عاماً: كان يعمل إما في وظيفة قانونية وإما ميتاً أو في السجن، ولكن مع المخدر؛ كان هناك مال حقيقي لكسبه. وبدلاً من الانتقال وشق طريق لرجل عصابة شاب حتى يصعد، والمحترفون بقوا. كان هذا يحدث كموضة قديمة لأعمال تدوم طول الحياة ـ عمال مصانع خاصة ـ إلا أنهم كانوا يختفون. في الماضي، استطاع الرجل الأسود ذو المهارة المتوسطة في شيكاغو أن يكسب أجراً شريفاً كأن يعمل في معمل. وعندما يضيق الخيار. تجارة المخدرات تبدو أفضل. إلى أي مدى كان الأمر صعباً؟ كانت المادة تؤدي إلى الإدمان بأن الأحمق يستطيع بيعها.

من يهتم إذا كانت لعبة المخدرات منافسة يستطيع فيها قلة من الناس أن يكسبوا؟ ومن يهتم إن كانت خطرة جداً ـ تبرز هناك على الزاوية، يبيعونه بسرعة وبشكل مجهول، كما يبيع ماكدونالد الهامبرغر، غير عارف أيّاً من الزبائن، ويتساءل من يمكن أن يأتي لاعتقالك أو سرقتك أو قتلك؟ ومن اهتم إن كان منتجك يجعل من هم بعمر اثنتي عشرة سنة والجدات والوعاظ مدمنين جداً، لدرجة يتوقفون معها عن التفكير حول أي شيء ما عدا الجرعة الآتية؟ ومن يهتم إن قتل المخدر المنطقة؟.

بالنسبة للأمريكيين السود كانت العقود الأربعة مابين الحرب العالمية الثانية وازدهار المخدر قد أعطت علامة تحسنٍ درامي، ولاسيما منذ تشريع الحقوق المدنية في منتصف الستينيات، إذ اتخذت إشارات التقدم الاجتماعي المريبة جذورها بين الأمريكيين السود.

كانت الفجوة بين دخل البيض والسود تتقلص. وكذلك كانت الفجوة بين علامات اختبارات الأطفال السود وعلامات الأطفال البيض. وربما كان معظم الكسب المشجع في وفيات الأطفال. وحتى وقت متأخر حتى 1964، كان الطفل الأسود يحتمل أن يموت ضعف ما يقدّر لموت الطفل الأبيض، وغالباً ما يكون ذلك بسبب أساسي هو الإسهال أو التهاب الرئة. وبمستشفيات منفصلة، تلقى العديد من المرضى السود ما توصل بعناية العالم الثالث. ولكن تغير ذلك عندما أمرت الحكومة الاتحادية المستشفيات بألا تميز: وخلال سبع سنوات فقط، كانت نسبة وفيات الأطفال السود قد انخفضت إلى النصف. وفي الثمانينيات كان كل جانب من الحياة يتحسن بالنسبة للأمريكيين السود، ولم يظهر التقدم أي إشارة عن توقفها.

ومن ثم جاء المخدر

بينما كان استخدام المخدر بالكاد ظاهرة سوداء فقط، تصيب المناطق السوداء بشكل أشد من الكل. ويمكن أن يرى الدليل بقياس المؤشرات ذاتها للتقدم الاجتماعي الموضوعة أعلاه. فبعد عقود من التقهقر، بدأت وفيات الأطفال السود بالتحليق في أعوام الثمانينيات، كما فعلت نسبة الوزن المنخفض للأطفال وتخلي الوالدين. واتسعت الفجوات بين طلاب المدارس السود والبيض. وأعداد السود الذين أرسلوا إلى السجن زادت ثلاث مرات، وكان المخدر مدمراً بصورة درامية إلى درجة كانت نتيجتها حول المعدل بالنسبة إلى جميع السود الأمريكيين، وليس بالنسبة لمستعملي المخدر أو عائلاتهم، فإنك سترى أن التقدم للمجموعة بعد الحرب لم تتوقف، ولكن غالباً ما تراجعت بقدر عشر سنوات إلى الوراء.

لقد أصيب الأمريكيون السود بسبب الكوكائين أكثر من أي سبب مفرد آخر منذ جيم كرو.

ومن ثم كانت الجريمة، خلال مدة خمس سنوات، فقد كان معدل الانتحار بين الشباب السود المدنيين قد ارتفع أربع مرات. وفجأة كان من الخطر أن يعيش في أجزاء من شيكاغو أو سانت لويس أو لوس أنجلوس، كما كان العيش في بوغوتا.

كـان العنف المرتبط بازدهار المخـدرات مـتنوعـاً ولا هوادة فيـه. وتصـادف مع موجة جريمة أمريكية أوسع أيضاً، كانت تتجمع على مدى عقدين من الزمن. ومع أن ازدياد مـوجـة الجـريمة هـذا قـد سـبق المخـدر بزمن طـويل، وقـد فـاقم المخـدر الاتجاه، بحيث توصل علماء الجريمة إلى إيحـاء صريح في تنبؤاتهم. حذر جيمس آلان فوكس، وهو من أكبـر خبـراء الجـريمة اقتـبسـتـه على نطـاق واسع الصـحف الشعبية، من «حمام الدم» القادم من عنف الشباب.

لكن فوكس وموردي الحكمـة التقليدية الآخرين كانوا مخطئين، فحمام الدم لم يتحقق ومعدل الجريمة بالواقع بدأ يهبط ـ بطريقة غير متوقعة ودراميـة وكلية، بحيث الآن ـ على بعد بضع سنوات، صعب تقريباً أن نتذكر القبضة التي حطمت تلك الموجة من الجريمة.

لماذا هبط المعدل ؟

بسبب بضعة أسـباب، ولكن سـبباً منها هو مـدهش أكثر من الأسـباب البـاقية. وقـد يكون أوسكـار دانيلو بلانـدون، المسـمى جـوني آبل سـيـد للمـخـدر قـد يكون، المحرض لتأثير التماوج، وفيها يسبب شـخص واحد بأعماله مـحيطاً من اليأس. ولكن من دون مـعرفـة لأي من الأشـخـاص. فإن نتيجـة أخـرى تموج قـوية بصـورة ملحوظة ـ وهذا التحرك بالاتجاه المعاكس ـ قد بدأت بالحركة الآن.

لقد حذر ليفيت في ورقته غير المكتملة والتي نشرت في سنة 2001 له ولزميله المشارك جون دونوهيو من أن مكتشفاتهما «يجب ألا يساء تفسيرها على أنها موافقة على الإجهاض أو على أنها دعوة لتدخل الدولة في قرارات خصوبة النساء». وإنهما يشيران إلى أن الجريمة يمكن ضبطها عن طريق تأمين بيئة أفضل لأولئك الأطفال الذين هم عرضة لمخاطر كبيرة في المستقبل.

ولقد نجح هذا الموضوع ذاته في أن يؤذي الجميع تقريباً. فقد أثار غضب المحافظين تفسير الإجهاض على أنه أداة لمحاربة الجريمة. وكان الليبراليون مشدوهين؛ لأن أولئك النساء السوداوات والفقيرات تم فرزهن. واشتكى الاقتصاديون بأن طريقة ليفيت لم تكن سليمة. ولما تجمهرت وسائل الإعلام على قصة جريمة الإجهاض. كان ليفيت محل الهجوم المباشر. وتمت تسميته (مدعي نظرية) (دعاه بذلك المحافظون والليبراليون سواء بسواء)، والمؤمن بالتمييز العرقي وبالشر الصريح.

وفي الواقع، يبدو أنه لم يكن إحدى هذه التسميات. فاهتمامه السياسي قليل وحتى اهتمامه بالأخلاق أقل. وهو لطيف هادئ الطباع وتصعب إثارته وواثق لكنه غير مغرور، يتلعثم كثيراً في كلامه، ومظهره يدل على أنه معتوه كبير؛ بقميص قطني مخطط بشكل مربعات وذو أزرار، حتى الأسفل وبنطال خاكي وحزام مجدول وحذاء بني اللون مقبول. ومفكرة جيبه من ماركة المكتب الوطني للأبحاث الاقتصادية. تقول زوجته جانيت: «أتمنى لو أنه يقص شعره أكثر من ثلاث مرات في السنة، وأنه لو لم يزل يلبس النظارات ذاتها التي اشتراها قبل خمس عشرة سنة والتي لم تكن شائعة في ذلك الوقت». كان لاعب غولف جيد في المدرسة الثانوية، لكن جسمه نحيل لدرجة يسمي نفسه «أضعف إنسان على قيد الحياة». ويطلب من جانيت أن تفتح الجرار حول البيت.

لاشيء في مظهره أو سلوكه، بكلمة أخرى، يشير إلى أنه قاذف لهب.

مجلة النيويورك تايمز،3 آب 2003

أين ذهب جميع المجرمين؟

في سنة 1966، أي سنة واحدة بعد أن أصبح نيقولاي شاوشيسكو الدكتاتور الشيوعي في رومانيا، جُعل الإجهاض عملا غير قانوني. فأعلن «أن الجنين ملك المجتمع كله، وكل من يتجنب إنجاب الأطفال هو هارب يتخلى عن قوانين المجتمع الوطني».

كانت التصريحات الفخمة هذه أمراً شائعاً خلال حكم شاوشيسكو، لأن خطته الرئيسة ـ خلق أمة جديرة بالإنسان الاشتراكي الجديد ـ كانت ممارسة العظمة والفخامة. فقد بنى القصور لنفسه، بينما عامل مواطنيه بوحشية وإهمال. وبتخليه عن الزراعة لصالح الصناعة، أجبر كثيرين من ساكني المناطق الريفية على الانتقال إلى أبنية فيها شقق غير مدفأة. وأعطى الوظائف الحكومية إلى أفراد من 40 أسرة بمن فيهم زوجته، إيلينا، التي طلبت أربعين بيتاً وتجهيزات مساوية من الفراء والمجوهرات. وكانت السيدة شاوشيسكو، التي تعرف رسمياً بأنها أفضل أم يمكن أن توجد في رومانيا، لم تكن أماً بشكل خاص. فقالت عندما اشتكى الرومانيون من نقص الأغذية التي جلبتها إدارة زوجها السيئة. «إن الديدان لاتشبع بغض النظر عن مقدار الطعام الذي نقدمه لها». فكان لديها أولادها المتحمسون لتأكيد ولائهم.

لقد صُمم منع شاوشيسكو للإجهاض؛ ليحقق واحداً من أهدافه الكبيرة: وهو تقوية رومانيا بسرعة عن طريق زيادة سكانها. فحتى عام 1966، كان لدى رومانيا واحدة من أكثر السياسات ليبرالية لمنع الإجهاض في العالم. وكان الإجهاض بالواقع الشكل الرئيس لضبط المواليد، بأربعة إجهاضات مقابل مولود حي. وأخيراً، وفي ليلة أصبح الإجهاض ممنوعاً. وكانت الإعفاءات الوحيدة هي للنساء

اللواتي لديهن أربعة أطفال، أو للنساء ذوات المواقع المهمة في الحزب الشيوعي. وفي الوقت ذاته، منعت كل موانع الحمل والثقافة الجنسية. وكان وكلاء الحكومة (الذين يعرفون باسم شرطة الدورة الشهرية) يقومون بجولات منظمة على النساء في أماكن عملهن لإجراء اختبارات الحمل. وإذا فشلت إحدى النساء في الحمل، كان يفرض عليها ضريبة عزوبية باهظة.

نجم عن حوافز شاوشيسكو النتيجة المرغوبة. فبعد سنة من منع الإجهاض، تضاعف معدل الولادات في رومانيا. ولد هؤلاء الأطفال في بلد فيها الحياة بائسة إلا إذا كان المرء ينتمي إلى عشيرة شاوشيكو أو إلى النخبة الشيوعية، ولكن هؤلاء الأطفال تبين أن حياتهم بائسة بصورة خاصة. وبمقارنة الأولاد الرومانيين المولودين قبل سنة، فإن المجموعة المولودة بعد منع الإجهاض ستكون أسوأ من جميع الأحوال التي يمكن قياسها: ستكون اختباراتهم في المدرسة أدنى، وسيكون نجاحهم أقل في سوق العمل، وسيثبتون أنهم أكثر احتمالاً لأن يصبحوا مجرمين.

استمر منع الإجهاض ساري المفعول حتى فقد شاوشيسكو سيطرته على رومانيا. ففي كانون الأول من عام 1989، خرج آلاف الناس إلى الشوارع في تيميسورا للاحتجاج على نظامه المتداعي، وكان الكثيرون من المحتجين مراهقين وطلاب جامعات، وقتلت الشرطة منهم العشرات. قال أحد قادة المعارضة، وهو أستاذ يبلغ من العمر إحدى وأربعين سنة، فيما بعد: إن ابنته البالغة ثلاث عشرة سنة من العمر ألحت عليه بأن ينضم إلى الاحتجاج على الرغم من خوفه. والمهم في الأمر أننا نتعلم من أولادنا ألا نخاف فكان معظمهم ما بين ثلاث عشرة وعشرين سنة. وبعد مضي بضعة أيام على مذبحة تيميسورا، ألقى شاوشيسكو خطاباً في بوخارست أمام مئة ألف شخص. ومرة أخرى خرج الشباب بالقوة. وصرخوا: يسقط شاوشيسكو مع صرخات «تيميسورا»: «يسقط القتلة» لقد جاء دوره. فقد حاول أن يهرب مع إيلينا من البلاد ومع بليون دولار، لكنهما اعتقلا، وقدما إلى محكمة (صورية) وفي يوم الميلاد نفذ فيه حكم الإعدام رمياً بالرصاص.

من بين جميع القادة الشيوعيين الذين كانوا في السنوات التي سبقت انهيار الاتحاد السوفيتي، كان شاوشيسكو هو الوحيد الذي لقي الموت العنيف. ويجب ألا نهمل أن تنازله قد سرعه على نطاق كبير شباب رومانيا وعدد كبير منهم ما كان ليولد ويعيش لولا منعه للإجهاض.

إن قصة الإجهاض في رومانيا قد تبدو غريبة في بدء قصة الجريمة الأمريكية في التسعينيات. لكنها ليست بغريبة، فمن جهة مهمة، إن قصة الإجهاض الروماني عكس صورة قصة الجريمة الأمريكية. ونقطة الالتقاء كانت يوم عيد الميلاد في عام 1989 عندما عرف نيقولاي شاوشيسكو الطريق الصعب ـ ورصاصة برأسه ـ وأن منعه للإجهاض كان ذا مضامين أعمق مما كان يعرف.

في ذلك اليوم كادت الجريمة تصل إلى أوجها في الولايات المتحدة. ففي السنوات الخمس عشرة الماضية، ارتفعت جريمة العنف 80٪. وكانت الجريمة قد شغلت الأخبار المسائية والأحاديث الوطنية.

عندما بدأ معدل الجريمة بالانخفاض في أوائل التسعينيات، إذ انخفض بمثل تلك السرعة المفاجئة، بحيث أدهش الجميع، انشغل بعض الخبراء سنوات عديدة؛ لكي يعرفوا إن كانت الجريمة تهبط، مع أنهم كانوا واثقين من استمرار ارتفاعها، وبعدما وصلت الجريمة إلى القمة بزمن طويل في الواقع، استمر بعض الخبراء بالتنبؤ بسيناريوهات أكثر ظلاماً. لكن الدليل كان لا يقبل الرفض: فالشوكة الطويلة والوحشية في الجريمة تتحرك بالاتجاه المعاكس، ولاتتوقف حتى هبط معدل الجريمة إلى مستويات ما قبل أربعين سنة.

والآن يدافع الخبراء لتفسير نبوءاتهم الخاطئة. فقال عالم الجنايات جيمس آلان فوكس، مفسراً أن تحذيره من «حمام الدم» كان في الواقع مبالغة مقصودة: «لم أقل: إن الدم يتدفق في الشوارع ولكنني استخدمت عبارات قوية مثل: «حمام الدم» للفت انتباه الناس. وحصل ذلك. وأنا لا أعتذر عن استعمال العبارات التحذيرية (إذا كان فوكس يبدو أنه يقدم تمييزاً من دون وجود فرق بين

«حمام الدم» و «الدم يسيل في الشارع» فينبغي أن نذكر أنه حتى بالتراجع، يمكن أن يقدم الخبراء خدمة لأنفسهم).

وبعد استقرار البديل، وبعدما تذكر الناس كيف يعيشون من دون ضغط الخوف من الجريمة، يبرز سؤال طبيعي: أين ذهب كل هؤلاء المجرمين؟

ففي مستوى واحد، بدا أن الجواب محير. وفوق كل ذلك، إذا لم يكن واحد من علماء الجنايات، أو ضباط الشرطة، أو الاقتصاديين أو السياسيين أو آخرين ممن يروجون هذه الأمور التي تنبأت بتراجع الجريمة، فكيف استطاعوا تحديد أسبابها فجأة ؟

لكن هذا الحشد المتنوع من الخبراء أخرجوا عدداً من الفرضيات لشرح هذا الانخفاض في الجريمة. مقالات صحفية عديدة تكتب حول الموضوع، وغالباً ما فصلت استنتاجاتهم التي تحدث عنها الخبراء مؤخراً أمام أي مراسل. وتم ترتيبها بحسب تكرار ذكرها، وهي مجموعة تفاسير لهبوط الجريمة في المقالات المنشورة من 1991 إلى 2001 في أشهر عشر صحف في مجموع الكلمات في قاعدة البيانات.

تفسير هبوط الجريمة	عدد المواقع
1ـ تجديد إستراتيجيات الشرطة	52
2ـ زيادة الاعتماد على السجون	47
3ـ تغيرات في أسواق الكوكائين والمخدرات الأخرى	33
4ـ تقدم عمر السكان	32
5ـ قوانين أشد لضبط السلاح	32
6ـ اقتصاد قوي	28
7ـ زيادة عدد أفراد الشرطة	28
8ـ جميع التفسيرات الأخرى (زيادة استخدام عقوبة الإعدام وقوانين إخفاء الأسلحة، واستعادة الأسلحة، وأشياء أخرى)	34

إن كنت من الأشخاص الذين يحبون ألعاب الألغاز، فقد ترغب في تمضية بضع لحظات وأنت تقلب الفكر في أي من التفسيرات المذكورة التي يمكن أن تتمتع بمزايا وأيها لاتتمتع بذلك.

تلميح: من التفسيرات الكبيرة السبعة في القائمة، يمكن إظهار أن ثلاثة منها قد أسهمت في هبوط الجريمة. والتفسيرات الأخرى، في أحسن الأحوال، هي أوهام من خيال شخص ما، أو اهتمام ذاتي أو تفكير متفائل وتلميح أبعد: إن واحداً من أعظم الأسباب التي تقبل القياس والتي كانت وراء هبوط الجريمة لايظهر في القائمة أبداً، لأنه لم يتلق أي ذكر في أي صحيفة.

لنبدأ بالتفسير غير المتناقض نوعاً ما، وهو الاقتصاد القوي. إن انخفاض الجريمة الذي بدأ في أوائل التسعينيات صاحبه اقتصاد قومي حار جداً وانخفاض بالبطالة. وقد نتابع لأن الاقتصاد كان المطرقة التي ساعدت على خفض الجريمة. لكن الفحص الدقيق للمعطيات يلغي هذه النظرية. فمن الصحيح أن سوق العمل الأقوى يجعل بعض الجرائم أقل جاذبية، لكن هذا يتعلق بموضوع الجرائم ذات الدوافع المالية المباشرة ـ اللصوصية والسرقة وسرقة السيارات ـ مقابل جرائم العنف مثل القتل والاعتداء والاغتصاب. وفوق ذلك، أظهرت الدراسات أن انخفاض البطالة بنسبة 1٪ يفسر هبوطاً بالجرائم التي لاتتصف بالعنف بنسبة 1٪. وخلال التسعينيات هبط معدل البطالة بمقدار 2٪؛ والجريمة من غير عنف هبطت بما يقرب من 40٪.

ولكن خطأ أكبر في نظرية الاقتصاد القومي يخص الجرائم العنيفة. فقد هبطت جرائم قتل الناس من معدل كبير خلال التسعينيات أكبر من أي نوع آخر من الجرائم، وأظهر عدد من الدراسات الموثوقة أخيراً أنه لاعلاقة بين الاقتصاد والجرائم العنيفة. والرابطة الضعيفة أصبحت أضعف بالنظر إلى الماضي، إلى عقد ليس ببعيد، فعقد الستينيات عندما كان الاقتصاد ينمو بصورة كبيرة كما فعلت جريمة العنف الشيء ذاته، لذا بينما كان اقتصاد التسعينيات يبدو ـ على

السطح ـ تفسيراً محتملاً لانخفاض الجريمة، فإنه بالتأكيد لم يؤثر في السلوك الجرمي بأي طريقة مهمة.

والمقصود، ما لم يكن «للاقتصاد» معنىً أوسع، كوسيلة لبناء مئات من السجون والحفاظ عليها. ولنفكر الآن بتفسير آخر لانخفاض الجريمة: وهو الاعتماد المتزايد على السجون. وقد يساعد أن نبدأ بترديد موضوع الجريمة. وبدلاً من التساؤل لم انخفضت الجريمة؟ لنفكر بهذا: لماذا ازدادت الجريمة زيادة درامية بالمكان الأول؟

في النصف الأول من القرن العشرين كان حدوث جريمة عنف في الولايات المتحدة ثابتاً تقريباً في معظم الأنحاء. ولكن في أوائل الستينيات بدأت الجريمة بالصعود. وبمراجعة الماضي، يتضح أن أحد العوامل الرئيسة التي دفعت بهذا الاتجاه هو النظام القضائي المتساهل. فانخفضت معدلات الأحكام خلال الستينيات، وكان المجرمون المحكومون يقضون مدد أحكام أقصر. ولقد كان هذا الاتجاه يندفع إلى الأمام بتأثير اتساع حقوق الناس المهتمين بالجرائم، وقد يناقش بعضهم بأنه اتساع متأخر كثيراً. (وقد يناقش بعضهم الآخر بأنه اتساع كبير متأخر كثيراً). وفي الوقت ذاته؛ كان السياسيون يميلون ميلاً متزايداً للتساهل بخصوص الجريمة ـ «وذلك خوفاً من أن يعتقد أنهم من المؤيدين للتمييز العرقي» كما كتب الاقتصادي غاري بيكر، «لأن بعض الأمريكيين الأفارقة والإسبانيين يرتكبون حصة غير متناسبة من الحماقات». ولذا إن كنت من الأشخاص الذين يريدون ارتكاب جريمة، فإن الحوافز تقف إلى جانبك: احتمال صغير بأن تحكم، وإذا حكم عليك فإن المدة أقصر بالسجن. ولأن المجرمين يستجيبون للحوافز بسرعة مثل أي شخص، فستكون النتيجة زيادة في الجرائم.

احتاج الأمر إلى بعض الوقت وإلى جلبة سياسية ضخمة جداً، ولكن هذه الحوافز تم اختصارها. فالمجرمون الذين كان يطلق سراحهم في الماضي ـ ولاسيما في الجرائم المتعلقة بالمخدرات أو بإبطال إطلاق السراح ـ قد أودعوا

السجن. ومابين 1980 و2000 ازداد عدد السجناء بمقدار خمس عشرة مرة بتهم المخدرات. وتم تمديد أحكام أخرى كثيرة؛ ولاسيما في جرائم العنف. وكانت النتيجة الإجمالية درامية. ففي عام 2000 كان في السجون أكثر من مليوني شخص، وهذا ما يقرب من أربعة أمثال العدد في 1972 وكان نصف ذلك العدد خلال التسعينيات.

إن الدليل الذي يربط ما بين زيادة العقوبة وانخفاض معدلات الجريمة دليل قوي جداً. وقد أظهرت مدد السجن القاسية أنها تعمل كرادع (للمجرمين المحتملين في الشارع) وكوقاية (للمجرمين الموجودين في السجن).

وكما يبدو هذا منطقياً، فإن بعض علماء الجنايات قد حاربوا هذا المنطق. لاحظت دراسة أكاديمية في 1977 بعنوان: «حول حق تأجيل بناء السجون» أن معدلات الجريمة تميل لأن تكون عالية عندما تكون معدلات السجن عالية، وتوصلت إلى أن الجريمة تهبط إذا كانت معدلات السجن منخفضة فقط. ولحسن الحظ أن حراس السجن لم يفتحوا مهاجعهم وجلسوا ينتظرون انخفاض الجريمة. وكما علق فيما بعد عالم السياسة جورج ديلوليو الابن. (ويبدو أنها تحتمل دراسة في شهادة الدكتوراة بعلم الجنايات للشك في أن حفظ المجرمين الخطرين بالسجن يخفض الجريمة). ومناقشة «حق التأجيل» تقوم على اضطراب أساسي من الترابط والسببية. فكر في مناقشة موازية، يرى محافظ مدينة أن مواطنيه يحتفلون احتفالاً صاخباً عندما يفوز فريقهم بمنافسة عالمية. فتخبط في الترابط، ولكنه، مثله مثل «حق التأجيل»، يفشل في رؤية الاتجاه الذي يجري فيه الترابط. لذا أمر المحافظ في السنة القادمة أن يقوم مواطنوه ببدء الاحتفالات بالفوز بالمنافسة قبل رمية البداية، وهو عمل، برأيه المضطرب، سيؤكد النصر.

هناك وفرة من الأسباب لكره الارتفاع الكبير في عدد نزلاء السجون. ولا يسر هذا العدد المهم من الأمريكيين، ولاسيما الزنوج منهم الذين يعيشون وراء

القضبان. ولا يبدأ السجن حتى بمعالجة الأسباب الجذرية للجريمة، وهي أسباب متنوعة ومعقدة. وفي النهاية، لا يكاد السجن أن يكون حلاً رخيصاً: فهو يكلف ما يقرب من 25000 دولار سنوياً لكي تحتفظ بشخص في السجن. ولكن إن كان الهدف تفسير الانخفاض بالجريمة في التسعينيات، فإن السجن هو بالتأكيد واحد من الإجابات الرئيسة. فهو المسؤول عن ثلث الانخفاض في الجريمة.

هناك تفسير آخر لهبوط الجريمة يوضع جنباً إلى جنب مع السجن: ألا وهو الاستخدام المتزايد لعقوبة الإعدام. إن عدد الإعدامات في الولايات المتحدة قد تزايد أربعة أمثال مابين الثمانينيات والتسعينيات، مما جعل العديد من الناس يتوصلون إلى الاستنتاج في سياق النقاش بأنه سيستمر عقوداً من الزمن، وبأن عقوبة الإعدام ساعدت في تخفيض الجريمة. ولكن ما فقد في هذا النقاش حقيقتان:

أولاً: بفرض الندرة التي نفذت بها الإعدامات في هذه البلاد، والتأجيلات الطويلة في تنفيذها، فما من مجرم معقول يجب تأجيله بالتهديد بالإعدام. وحتى مع تزايد عقوبة الإعدام أربع مرات خلال عقد من الزمن، كان لايزال هناك ٤٧٨ إعداماً فقط في جميع الولايات المتحدة خلال التسعينيات. إن أي والد قال إلى ابنه العنيد: «عال، سأعد إلى العشرة، وفي هذه المرة سأعاقبك»، يعرف الفرق بين الردع والتهديد الفارغ. فولاية نيويورك، على سبيل المثال، لم تنفذ إعدام مجرم منذ إعادة عقوبة الإعدام في سنة 1995. حتى بين المساجين الذين ينتظرون الموت، فقد كانت نسبة الإعدام في السنة 2٪ فقط، مقارنة مع نسبة 7٪ من الموت السنوي الذي يواجهه عضو في عصابة المخدرات السوداء. إذا كانت الحياة في انتظار الموت هي أسلم من الحياة في الشوارع، فمن الصعب الاعتقاد أن الخوف من الإعدام قوة دافعة في حسابات المجرمين. مثل المخالفة ذات القيمة 3 دولارات للوالدين المتأخرين في مراكز الرعاية النهارية في حيفا. فالحافز السلبي لعقوبة الإعدام ليس خطيراً بصورة كافية للمجرم ليغير سلوكه.

إن الخطأ الثاني في عقوبة الإعدام هو أكثر وضوحاً، إذ افترض للحظة أن عقوبة الموت هي رادع. فكم من الجرائم ردعتها بالفعل؟ قدم الاقتصادي إسحاق إيرليخ تقريراً، وهو غالباً ما يوجد في صحف 1975، وهو يعتبر متفائلاً بصورة عامة: إعدام مجرم واحد يقلل قتل 7 أشخاص كان من الممكن أن يقتلهم. والآن لنقم بالحساب. كان في سنة 1991 أربعة عشر إعداماً في الولايات المتحدة؛ وفي عام 2001، كان هناك 66. وبحسب حسابات إيرليخ، تلك الإعدامات الإضافية وعددها 52 كان يمكن أن تحسب بدل 364 كان يمكن أن يقتلوا في 2001 ـ وهذا ليس هبوطاً صغيراً بالتأكيد، ولكن النسبة هي 4٪ أقل من النقص الواقعي في قتل الأشخاص في تلك السنة؛ لذا حتى إعادة أفضل قضية لدعاة عقوبة الموت، تستطيع عقوبة الإعدام أن تفسر واحداً على خمس وعشرين من هبوط قتل الناس في التسعينيات. ولأن عقوبة الموت نادراً ما يحكم بها عن جرائم غير قتل الناس، فإن تأثيرها الرادع لايمكن أن يحسب نقطة في هبوط جرائم العنف الأخرى.

لذلك من غير المحتمل أن تمارس عقوبة الموت، كما تمارس حالياً في الولايات المتحدة، أي تأثير حقيقي في معدلات الجريمة. وحتى الكثيرين من مؤيديها ذات مرة قد وصلوا إلى هذا الاستنتاج. قال قاضي المحكمة العليا في الولايات المتحدة هاري أبلاكن في سنة 1994، أي بعد ما يقرب من عشرين سنة بعد ما صوت إلى جانب إعادتها: «أشعر أدبياً وعقلياً أني مضطر ببساطة لأن أسلم بأن تجربة عقوبة الموت قد فشلت. وأنا لن أعود للعبث في عقوبة الموت».

إن لم تكن عقوبة الإعدام هي التي جعلت الجريمة تنخفض، وكما لم يكن الازدهار الاقتصادي. لكن المعدلات الأعلى للسجن كان لها الكثير للعمل بذلك. فكل أولئك المجرمين لم يسيروا إلى السجن وحدهم، طبعاً، وكان على شخص ما أن يقوم بالتحقيق في الجريمة، وأن يعتقل الشخص السيء ويجمع القضية التي تجعله يحكم عليه. وهذا بالطبع يؤدي إلى تفسيرين مرتبطين ببعضهما لهبوط الجريمة:

زيادة أعداد أفراد الشرطة

لنعالج التفسير الثاني أولاً. لقد ارتفع عدد أفراد الشرطة بالنسبة للشخص الواحد في الولايات المتحدة بما يقرب من 14٪ خلال سنوات التسعينيات. ولكن هل مجرد زيادة عدد أفراد الشرطة قد خفض الجريمة؟ يبدو أن الجواب واضح ـ نعم ـ ولكن البرهان على هذا الجواب ليس بهذه السهولة. وذلك لأنه عند ازدياد الجريمة، ألح الناس في طلب الحماية، وبالضرورة أوجدت الأموال الكثيرة لأفراد الشرطة. لذا إن نظرت إلى الترابط الأولي بين الشرطة والجريمة، فإنك ستجد أنه عندما يزداد عدد أفراد الشرطة، فإن الاتجاه يميل نحو زيادة الجريمة. وهذا بالطبع لا يعني أن أفراد الشرطة يسببون الجريمة، وذلك تماماً مثل أن هذا لا يعني، كما يناقش بعض علماء الجريمة، أن الجريمة ستنخفض إذا أطلق سراح المجرمين من السجن.

ولإظهار السببية نحتاج إلى سيناريو، حيث يتم توظيف مزيد من أفراد الشرطة لأسباب لاعلاقة لها أبداً بزيادة الجريمة. فمثلاً، لو أن أفراد الشرطة نشروا عشوائياً في بعض المدن، ولم ينشروا في مدن أخرى، فبإمكاننا النظر لرؤية إن كانت الجريمة تنخفض في المدن حيث وجد رجال الشرطة. وكما يتبين، فإن ذلك السيناريو إنما يوجده السياسيون المتعطشون للأصوات. ففي الأشهر التي تقود إلى يوم الانتخابات، يسعى المسؤولون القائمون على رأس العمل بصورة روتينية إلى فرض القانون والنظام بتوظيف مزيد من أفراد الشرطة، حتى عندما يكون معدل الجريمة ثابتاً. لذلك بمقارنة معدل الجريمة في مجموعة من المدن التي كان فيها انتخابات منذ عهد قريب (ولذلك وظف المزيد من أفراد الشرطة) مع مجموعة مدن أخرى لم يكن فيها انتخابات (ولذلك لم توظف مزيداً من أفراد الشرطة). من الممكن أن نستخرج تأثير الشرطة الإضافية في الجريمة. والجواب: نعم طبعاً، فالشرطة الإضافية تخفض معدل الجريمة بصورة كبيرة.

ومرة ثانية، من المفيد أن ننظر إلى الوراء: لنرى لماذا زادت الجريمة بهذا الشكل في المقام الأول. فمن 1960 إلى 1985، انخفض عدد أفراد الشرطة أكثر من 50٪ بالنسبة إلى عدد الجرائم. ففي بعض الحالات، اعتبر توظيف عدد إضافي من أفراد الشرطة خرقاً للجمالية الليبرالية للعصر، وفي حالات أخرى، اعتبر ذلك بكل بساطة باهظ التكاليف. فانخفاض 50٪ من عدد أفراد الشرطة رافقه انخفاض مماثل تقريباً في الاحتمال الذي يعطى للمجرم بأنه سيلقى القبض عليه. وإذا أضيف ذلك إلى التساهل المذكور أعلاه في النصف الثاني من نظام القضاء الجنائي وقاعات المحاكم، فإن هذا النقصان في عدد أفراد الشرطة أوجد حافزاً إيجابياً قوياً للمجرمين.

وفي سنوات التسعينيات تغيرت الفلسفات والحاجات. وقلب وضع اتجاه الشرطة، مع زيادة مجال التوظيف في المدن في جميع أنحاء البلاد. ولم يعمل كل هؤلاء الشرطيين كرادع T فحسب. ولكنهم جهزوا قوة بشرية لسجن المجرمين الذين كان من الممكن أن يبقوا أحراراً لولاهم. وتوظيف أفراد شرطة إضافيين يبرر انخفاض الجريمة بنسبة 10٪ في سنوات التسعينيات. ولكن لم يكن عدد أفراد الشرطة وحده الذي تغير في سنوات التسعينيات. فكر في التفسير العام الذي يعطى لانخفاض الجريمة من بين جميع إستراتيجيات الشرطة الجديدة.

وربما لاتوجد نظرية أكثر جاذبية من الاعتقاد بأن الشرطة الذكية توقف الجريمة. فهي تعرض مجموعة من الأبطال الصادقين بدلاً من قلة من المجرمين. أصبحت النظرية مقالة عن الإيمان بصورة سريعة؛ لأنها كانت تروق للعوامل، كما يقول جون كينيث غالبريث، فقد أسهمت إسهاماً كبيراً في تشكيل الحكمة التقليدية: السهولة التي يمكن بواسطتها فهم الفكرة، والدرجة التي تؤثر بها في حسن أحوالنا الشخصية.

لقد حيكت هذه القصة بصورة درامية جداً في مدينة نيويورك، حيث أقسم المحافظ المنتخب حديثاً، ردولف غلياني ورئيس الشرطة المختار بصورة جيدة،

وهو وليام براتون، أن يصلحا من وضع المدينة اليائس. فاتخذ براتون مساراً جديداً في الشرطة. فأشار إلى شرطة نيويورك إلى ما أسماه أحد أفراد الشرطة الكبار «مدتنا الأثينية» وفيها أعطيت الأفكار الجديدة أهميتها على الممارسات المتكلسة. وبدلاً من مسايرة قادة محلته، طالب براتون بالمسؤولية. وبدلاً من الاعتماد على معارف الشرطة القديمة وحدها، لجأ إلى الحلول التكنولوجية مثل «كومبستار»، وهي طريقة تعتمد على الكمبيوتر لمعالجة مناطق الجريمة الساخنة.

إن أكثر فكرة جديدة فرضت نفسها جاء بها براتون، وقد كان أصلها في نظرية النافذة المكسورة التي تصورها علماء الجنايات جيمس ك وويلسون وجورج كيلنغ. تناقش نظرية النافذة المكسورة بأن الإزعاج الصغير إذا لم يكبح يتحول إلى إزعاج كبير: وهذا يعني، إذا كسر شخص ما نافذة ورأى أنها لم تصلح مباشرة، فإنه يتلقى إشارة بأنه يمكن كسر بقية النوافذ وقد يحرق البناء أيضاً.

وهكذا مع ازدياد جرائم القتل في جميع الاتجاهات، بدأت شرطة بيل براتون بحفظ النظام من الأعمال التي اعتادت أن تبقى من دون حفظ النظام والأمن: كالقفز من باب قطار الأنفاق، والاستجداء بالعنف، والتبول في الشوارع، وتبادل المساحات القذرة على نوافذ السيارات إلا إذا قدم السائق «هبة» مناسبة.

لكن معظم أهالي نيويورك أحبوا تشديد الإجراءات هذه بمزاياها الخاصة بها. أحبوا بشكل خاص الفكرة كما بشر بها وبقوة براتون وجيولياني، بأن خنق هذه الجرائم الصغيرة كان بمثابة خنق توريد الأكسجين للعنصر الإجرامي. فالقافز من الباب اليوم قد يكون مطلوباً بجريمة سابقة، إن تبول حشاش في شارع فقد يكون في طريقه إلى عملية سرقة.

وكما بدأت جرائم العنف في الانخفاض انخفاضاً دراميا، كان أهالي نيويورك أكثر من سعداء لتكويم أطواق الزهر على ما يتعلق بالأوبرا. المحافظ الذي تربى في بروكلن ورئيس الشرطة بوجهه القاسي ولهجة أهالي بوسطن. لكن الرجلين

أصحاب الإرادة القوية لم يكونا جيدين جداً في المشاركة بالنصر. وبسرعة بعد تحول الجريمة ووصول براتون ـ وليس جيولياني ـ على غلاف مجلة التايم، ثم دفع براتون لتقديم استقالته ـ فقد كان مفوض شرطة لمدة سبعة وعشرين شهراً.

كانت مدينة نيويورك مجددة واضحة في إستراتيجيات الشرطة خلال هبوط الجريمة في التسعينيات، وتمتعت أيضاً بانخفاض عظيم في مقارنة مع أي مدينة أمريكية كبيرة، فهبطت معدلات جرائم القتل من 30.7 في المئة ألف شخص في 1990 إلى 8.4 في المئة ألف شخص في سنة 2000، تغير مقداره 73.6٪. لكن التحليل الدقيق للحقائق يظهر أن إستراتيجيات ضبط الأمن المتجددة ربما كان لها أثر في هذا الانخفاض الكبير.

أولاً، بدأ الانخفاض بالجريمة في مدينة نيويورك سنة 1990. ومع نهاية سنة 1993 كان معدل سرقة الأملاك وجرائم العنف، بما فيها قتل الناس، قد انخفضت بما يقرب 20٪. لكن ردولف جيولياني لم يصبح محافظاً ـ ونصب براتون ـ حتى أوائل سنة 1994. كانت الجريمة تسير بالانحدار قبل مجيء أي من الرجلين. وهذا الهبوط استمر زمناً طويلاً بعدما أزيح براتون من منصبه.

ثانياً، رافق الإستراتيجيات الجديدة للشرطة تغير كبير ومهم في قوى الشرطة: حفلة التوظيف الصاخبة. مابين 1991 و2001 ازدادت دائرة شرطة نيويورك بمقدار 45٪، أكثر من ثلاث مرات من المعدل القومي. وكما ناقشنا فيما تقدم، أن الزيادة في أعداد أفراد الشرطة بغض النظر عن الإستراتيجيات الجديدة، قد تثبت في أنها خفضت الجريمة. فبحسابات محافظة، إن هذا الاتساع الضخم لقوى شرطة نيويورك يتوقع منه أن يخفض الجريمة في نيويورك بمقدار 18٪ وذلك بالنسبة للمعدل القومي. فإذا طرحت 18٪ من انخفاض نسبة جرائم القتل في نيويورك وبذلك نخصم تأثير ارتفاع تعيين أفراد الشرطة، لم تعد نيويورك في مقدمة الأمة بانخفاضها 73.6٪؛ وتذهب مباشرة إلى منتصف المجموعة. وبالواقع كثيرون من أفراد الشرطة هؤلاء قد تم تعيينهم من قبل دينكنز، المحافظ الذي هزمه جيولياني. فقد كان دينكنز يبذل قصارى جهده

لتأمين تصويب القانون والنظام، بعدما عرف أن خصمه سيكون جيولياني، وهي مدعٍ عام اتحادي. (وقد ترشح الرجلان ضد بعضهما قبل أربع سنوات أيضاً). لذا فإن أولئك الذين يريدون إعطاء الفضل في هبوط الجريمة إلى جيولياني لايزالون يفعلون ذلك، لأن شهرته في حفظ القانون والنظام هي التي جعلت دينكنز يعين كل أولئك أفراد شرطة. وفي النهاية طبعاً ساعدت زيادة الشرطة الجميع، لكنها ساعدت جيولياني أكثر بكثير مما ساعدت دينكنز.

إن معظم الضرر الذي لحق الادعاء بأن تجديدات شرطة نيويورك قد خفضت الجريمة تخفيضاً جذرياً هي حقيقة بسيطة وغالباً ما تهمل، فانخفضت الجريمة في كل مكان خلال التسعينيات، وليس في نيويورك فقط. وحاولت مدن قليلة أخرى الإستراتيجيات ذاتها التي جربتها نيويورك، وبالتأكيد لم يكن في أي منها الحماس ذاته. ولكن حتى في لوس أنجلوس، وهي مدينة معروفة بشرطتها السيئة، هبطت الجريمة بالمعدل ذاته كما حدث في نيويورك. عندما كانت الزيادة في قوى شرطة نيويورك اعتبرت هي السبب.

قد يكون من السذاجة أن نناقش أن حفظ النظام والأمن بتلك الطريقة الذكية ليس شيئاً جيداً. فبالتأكيد يستحق بيل براتون المديح على تفعيله (إعطاء الحيوية) لقوى الشرطة في نيويورك، لكن هناك دليلاً بسيطاً على أن إستراتيجيته هي الدواء العام الذي قدره هو ووسائل الإعلام. وستكون الخطوة الآتية الاستمرار بقياس تأثير تجديدات الشرطة في لوس أنجلوس مثلاً، حيث أصبح براتون نفسه رئيساً للشرطة في أواخر سنة 2002. وبينما قام بتأسيس بعض هذه التجديدات التي كانت السمة المميزة في نيويورك. أعلن براتون أن أعلى أفضلياته هي أكثر جوهرية: إيجاد المال لتعيين آلاف من أفراد الشرطة الجدد.

والآن لنبحث في تفسيرين اثنين آخرين شائعين لانخفاض الجريمة:

- قوانين أشد للأسلحة.
- تغييرات في أسواق الكوكائين والمخدرات الأخرى.

أولاً: الأسلحة. نادراً ما تكون المناقشات حول هذا الموضوع هادئة. فيعتقد مؤيدو الأسلحة أن قوانين الأسلحة صارمة جداً؛ ويعتقد خصومها بعكس ذلك تماماً. فكيف يستطيع الناس الأذكياء النظر إلى العالم بصورة مختلفة تماماً؟ لأن السلاح يثير مجموعة معقدة من القضايا التي تتغير بحسب عامل واحد: يد من يصادف أن تحمل سلاحاً.

وقد يكون من المجدي اتخاذ خطوة إلى الوراء وطرح سؤال متكرر: ما هو السلاح؟ إن السلاح أداة يمكن أن تستخدم في قتل شخص، طبعاً، ولكن من المهم أكثر، أن السلاح هو تشويش كبير للنظام الطبيعي.

فالسلاح يخلط نتائج الخلاف. لنقل: إن الشخص القوي والشخص الأقل قوة يتبادلان الكلام في حَانٍ (بار)، وهذا يقود إلى عراك. من الواضح بالنسبة للشخص الأقل قوة أنه سيكون مهزوماً، إذن لماذا يزعج نفسه ويدخل في هذا العراك؟ يبقى نظام الانتقاء سليماً. ولكن إن حدث وكان الشخص الأقل قوة يحمل مسدساً، فستكون لديه فرصة جيدة للفوز.

والآن، بدلاً من الشخص القوي والشخص الأقل قوة، هناك صورة من المدرسة الثانوية، إذ تخرج فتاة للتنزه ليلاً عندما صادفت لصاً فجأة. ماذا لو كان اللص مسلحاً؟ وماذا لو أن الفتاة كانت فقط هي المسلحة؟ وماذا لو كان اللص والفتاة مسلحين؟ قد يناقش معارضو الأسلحة بأن السلاح يجب أن يؤخذ من أيدي اللص في المكان الأول: ومناصر السلاح قد يناقش بأن فتاة المدرسة الثانوية تحتاج لأن يكون معها سلاح لتشوش ما أصبح هو النظام الطبيعي: الأشخاص الأشرار هم يحملون السلاح. (لو أن الفتاة تخيف اللص، فتقديم السلاح في هذه الحالة قد يؤدي إلى عنف أقل). أي لص بمبادرات أقل ملزم بأن يكون مسلحاً؛ لأنه في بلد مثل الولايات المتحدة، ذات سوق مزدهر بالسلاح، فإن أي شخص يستطيع أن يحمل سلاحاً.

توجد وفرة في السلاح في الولايات المتحدة، بحيث يمكنك إعطاء قطعة سلاح لجميع البالغين، فإن البالغين سينتهون قبل أن تنتهي الأسلحة. وما يقرب من ثلثي جرائم القتل في الولايات المتحدة تشمل سلاحاً. وجزء أكبر بكثير من الدول الصناعية. ومعدل جرائم القتل لدينا هو أيضاً أعلى من تلك البلاد. ولذلك قد يبدو أن معدل جرائم القتل عندنا أعلى كثيراً جزئياً؛ لأن الأسلحة هي متوافرة بسهولة. يظهر البحث بالفعل أن هذا حقيقي.

لكن الأسلحة ليست القصة كاملة. ففي سويسرا، يعطى كل بالغ بندقية هجومية لواجبات الميليشيا ويسمح لهم بالاحتفاظ بسلاحهم في بيوتهم. وعلى أساس الرأس الواحد، لدى سويسرا أسلحة نارية أكثر من أي دولة أخرى، ومع ذلك فإنها أكثر الأماكن أمناً في العالم. وبعبارة أخرى، الأسلحة لاتسبب الجريمة. وبعد قول هذا، فإن الولايات المتحدة التي أسستها لحفظ الأسلحة بعيداً عن الناس الذين يسببون الجريمة هي ضعيفة. وحيث إن الأسلحة ـ وهي ليست ككيس كوكائين أو سيارة أو بنطال ـ تبقى كثيرة إلى الأبد، حتى بسد سدادة أسلحة جديدة لا يزال يترك بحراً من الأسلحة المتوافرة.

ومع الاحتفاظ بكل هذا في الذهن، لنفكر بتنوع مبادرات حديثة تتعلق بالأسلحة لنرى التأثير الذي مارسته على الجريمة في التسعينيات.

إن أشهر قانون لضبط الأسلحة هو قانون برادي الذي صدر في سنة 1993، وينص هذا القانون على تحري المجرمين وانتظار مدة من الزمن قبل أن يستطيع المرء شراء مسدس. وقد يبدو هذا الحل مرضياً للسياسيين، ولكن بالنسبة للاقتصادي فإنه لايعني الشيء الكثير، لماذا؟ لأن تنظيم سوق قانونية محكوم عليه بالفشل عندما يكون هناك سوق سوداء ناشطة تبيع المنتج نفسه ـ فمع وجود أسلحة رخيصة جداً والحصول عليها سهل جداً، فالمجرم العادي ليس لديه أي حافز لأن يملأ طلباً للحصول على أسلحة نارية في دكان الأسلحة المحلي، ومن ثم ينتظر أسبوعاً. وبذلك ثبت أن قانون برادي مهم عملياً في خفض الجريمة. (أظهرت دراسة حول المجرمين المسجونين أن مقدار الخمس اشتروا

أسلحتهم من تجار مرخصين حتى قبل قانون برادي). وقد فشلت أيضاً قوانين محلية لضبط الأسلحة. لقد أوجدت العاصمة واشنطن ومدينة شيكاغو منعاً للأسلحة قبل أن تبدأ الجريمة بالانخفاض في جميع أنحاء البلاد في التسعينيات بزمن طويل، ومع ذلك تعتبر هاتان المدينتان متأخرتين، وليستا قائدتين في الانخفاض القومي للجريمة، وقد أثبت رادع واحد، وهو زيادة كبيرة على مدة السجن لكل من يضبط وبحوزته سلاح غير قانوني، إنه فعال بصورة معتدلة. ولكن هناك مجالاً كبيراً للتحسينات. وليس هذا محتملاً، ولكن إذا فرضت عقوبة الإعدام على كل من يحمل سلاحاً غير قانوني وإذا نفذت هذه العقوبة فعلاً، فمن المؤكد أن الجرائم المسلحة ستتناقص فوراً.

وأساس آخر لمحاربة الجريمة في التسعينيات ـ ولأخبار المساء ـ هو إعادة السلاح. إنكم تذكرون الصورة: كومة من الأسلحة النارية الخطرة والبراقة يحيط بها المحافظ وقائد الشرطة والناشطون المحليون. إنها صورة رائعة تكاد تنطق، لكنها من حيث معناها مثل إعادة الأسلحة. فالأسلحة التي أعيدت هي عموماً إما إرث وإما سقط متاع. وما يدفع لبائع الأسلحة ـ وهو بالعادة 50 أو 100 دولار، ولكن في عملية إعادة واحدة في كاليفورنيا، ثلاث ساعات من العلاج النفسي مجانية، ليست حافزاً كافياً لأي شخص يخطط فعلاً لاستعمال سلاحه. وعدد الأسلحة التي تم تسليمها لا يساوي حتى عدد الأسلحة الجديدة التي تأتي إلى السوق. وبدراسة عدد الأسلحة اليدوية في الولايات المتحدة وعدد جرائم القتل في السنة، فإن احتمال أن يستخدم مسدس ما لقتل شخص ما في تلك السنة هي 1 من 10000. ونتج عن برنامج إعادة السلاح أقل من 1000 مسدس، وهذا يؤدي إلى توقع أقل من 10/1 من جريمة قتل لكل إعادة سلاح غير كافٍ أولاً لتقديم كمية كبيرة من التأثير في انخفاض الجريمة.

ومن ثم هناك مقولة معارضة ـ إننا بحاجة إلى مزيد من السلاح في الشارع، ولكن بحوزة الناس الجيدين (مثل فتاة المدرسة الثانوية المذكورة أعلاه، بدلاً من اللص الذي هاجمها). والبطل الرئيس في هذه الفكرة هو الاقتصادي جون

د.لوت الابن. وبطاقته هي الكتاب (أسلحة أكثر، جرائم أقل) وفيه يناقش أن جرائم العنف قد تناقصت في المناطق التي يسمح فيها للمواطنين الذين يطيعون القانون بحمل أسلحة مخبأة. قد تكون نظريته مدهشة، لكنها معقولة. فإن فكر مجرم أن ضحيته الممكنة قد تكون مسلحة، فسيردعه ذلك عن ارتكاب الجريمة. يدعي معارض الأسلحة اليدوية لوت بأنه مؤيد لنظرية تؤيد السلاح، ويسمح لوت لنفسه بأن يصبح مانعة الصواعق لمعارضة السلاح. فزاد من مشكلته عن طريق استخدام اسم مستعار، «ماري روش» ليدافع عن نظريته في المناقشات على شبكة الإنترنيت. وتعرف روش نفسها بأنها طالبة سابقة للاقتصادي لوت، وتمدح فكر أستاذها، ويديه الكريمتين، وإطلالته. تقول: «علي أن أقول إنه كان أفضل أستاذ من بين أساتذتي»، إنك لا تعرف أنه من مؤيدي «الجناح اليميني» من الصف.. وكنا مجموعة من الطلاب الذين يحاولون حضور أي صف يقوم بتعليمه. وفي النهاية كان على لوت أن يخبرنا بأنه من الأفضل لنا أن نحاول حضور صفوف لأساتذة آخرين، ولذلك نتعرض لطرق أخرى في تعليم مواد الدراسات العليا. ومن ثم هناك الادعاء المثير لمشكلة وهو أن لوت في الواقع اخترع بعض معطيات المسح والفحص التي تؤيد نظريته (أسلحة أكثر/جرائم أقل). وبغض النظر إن كانت المعطيات مزيفة، فإن فرضيات لوت المعقدة لا تبدو حقيقية. وعندما حاول مثقفون آخرون إعادة نتائجه، وجدوا أن قوانين حق الحمل بكل بساطة لاتخفض الجرائم.

انظر تفسير انخفاض الجريمة الآتي: انفجار فقاعة الكوكائين. كان الكوكائين المخدر القوي الذي يسبب الإدمان لدرجة أن سوقاً مربحاً كبيراً قد وجد عملياً بين ليلة وضحاها. صحيح، كان قادة العصابات فقط هم من أصبحوا أغنياء. ولكن ذلك وحده جعل تجار الشارع جميعاً يلهثون حتى يتقدموا. والعديد منهم كان يرغب في قتل منافسيهم، سواء أكان المنافس ينتمي إلى العصابة نفسها أم إلى عصابة أخرى. وكان هناك أيضاً معارك مسلحة لاحتلال زوايا قيمة لبيع المخدرات. وجريمة المخدرات النمطية كانت تشمل أحد تجار المخدرات الذي

يطلق النار على تاجر آخر (أو اثنين منهم أو ثلاثة) وليس حشاشاً بعينيه المحرمتين يطلق النار على صاحب دكان من أجل حفنة من الدولارات، وذلك خلافاً للحكمة التقليدية. وكانت النتيجة زيادة ضخمة في جرائم العنف. وجدت إحدى الدراسات أن أكثر من 25٪ من جرائم القتل في مدينة نيويورك في سنة 1988 كانت تتعلق بالمخدرات.

بدأ العنف المرتبط بالمخدرات بالتراجع في 1991 تقريباً. وهذا جعل كثيراً من الناس يعتقدون أن المخدر نفسه قد ذهب. ولكنه لم يذهب. فبقي تدخين المخدرات مألوفاً، فاليوم أكثر من يعرف معظم الناس قرابة 5٪ من المعتقلين في الولايات المتحدة لا يزالون مرتبطين بالكوكائين (مقابل 6٪ عندما كان الكوكائين في ذروته)؛ ولم تتقلص زيارات غرفة الطوارئ لمستعملي الكوكائين كثيراً.

وفيما سبق كانت الأرباح ضخمة من بيع الكوكائين، إذ كان سعره ينخفض على مدى سنوات، وأصبح أرخص؛ لأنه أصبح أكثر شعبية. فبدأ التجار بتخفيض الأسعار؛ ومن ثم تلاشت الأرباح وانفجرت فقاعة الكوكائين بصورة درامية كما انفجرت في النهاية ناسداك. (فكر بالجيل الأول من تجار الكوكائين، وكأنهم أغنياء مايكروسوفت؛ وفكر بالجيل الثاني وكأنهم (Pets.com). عندما قتل تجار الكوكائين المحترفين أو سجنوا، قرر التجار الأصغر سناً أن الربح القليل لا يوازي المخاطرة. ولذلك فقدت المنافسة إغراءها. و لم يعد قتل شخص يستحق سرقة قطعة أرضه، وبالتأكيد لايستحق أن يقتل المرء لقاء ذلك.

لذلك بطل العنف، فمن 1991 إلى 2001، هبط معدل القتل بين شباب الزنوج ـ الذين كانوا يمثلون من بين تجار الكوكائين غير نسبة ـ 48٪، بالمقارنة مع 30٪ من الرجال الزنوج والرجال البيض الأكبر سناً. (وهذا إسهام صغير في هبوط معدل قتل النفس، وهو حقيقة أن تجار الكوكائين اعتادوا على إطلاق النار على أعدائهم في ظهورهم بدلاً من قتلهم؛ وهذه الطريقة في الإهانة العنيفة اعتبرت

مذلة ـ وكانت من الواضح تعاقب بشكل أقل ـ من جريمة القتل). وكما قيل: إن تحطم سوق الكوكائين يبرر 15٪ من انخفاض الجريمة في التسعينيات وعامل أساسي، بالتأكيد، ويجب ملاحظة أن الكوكائين كان مسؤولاً عن أكثر بكثير من 15٪ من زيادة الجريمة في الثمانينيات، بعبارة أخرى، كانت النتيجة الصافية للكوكائين لا يزال يشعر به على شكل جريمة العنف، ولا تقل شيئاً عن البؤس الذي يسببه المخدر نفسه.

والتفسيران الأخيران لهبوط الجريمة يخصان اتجاهين بشريين. الأول تلقى العديد من مواقع وسائل الإعلام: (وهو هرم السكان).

وإلى أن هبطت الجريمة بصورة جذرية جداً، لم يتحدث أحد عن هذه النظرية مطلقاً. وفي الواقع، كانت مدرسة «حمام الدم» في علم الجريمة تؤيد تماماً النظرية المعاكسة، وهي أن زيادة حصة المراهقين من السكان تنتج حسماً من المفترسين الذين يخفضون الأمة. «وراء الأفق مباشرة، تختبئ سحابة ستقوم الرياح بجلبها فوقنا» كتب جيمس ك. ويلسن في عام 1995 «إن السكان سيبدؤون بأن يصبحوا أصغر مرة أخرى... فاستعدوا».

ولكن فوق كل شيء، لم تكن حصة المراهقة من مجمل السكان تزيد كثيراً. فقد أخطأ علماء الجريمة مثل ويلسون وجيمس آلان فوكس في قراءة معطيات علم السكان. فكانت الزيادة الحقيقية في السكان في التسعينيات بالواقع بين الكبار في السن. وبينما قد يكون هذا خبراً مخيفاً من حيث الرعاية الطبية والضمان الاجتماعي، فلدى الأمريكي العادي القليل ليخافه من تزايد أعداد الكبار في السن. وينبغي ألا يكون من المدهش أن نعرف أن الناس الكبار في السن ليس لديهم مقاصد إجرامية كثيرة؛ فاحتمال اعتقال الشخص بعمر الخامسة والستين عاماً هو ما يقرب من 5/1 من احتمال اعتقال المراهق العادي. وهذا ما يجعل نظرية انخفاض الجريمة ما بين المسنين مرتبة بصورة جذابة جداً: فهم يصبحون ليني العريكة، عندما يكبرون، فزيادة الناس المسنين تؤدي إلى جرائم أقل. لكن النظرة الكاملة على المعطيات تكشف عن أن الشيب

في أمريكا لم يفعل شيئاً لخفض الجريمة في سنوات التسعينيات. فالتغير السكاني عملية بطيئة ورقيقة جداً ـ فأنت لاتخرج من سن المراهقة إلى مواطن كبير السن خلال بضع سنين فقط ـ للبدء بتفسير المفاجأة في تراجع الجريمة.

ولكن هناك تغيراً سكانياً آخر لم يتوقع من قبل، ولم يتخيل زمناً طويلاً، وهو الذي خفض الجريمة بصورة جذرية في سنوات التسعينيات.

أعد التفكير قليلاً برومانيا 1966. فجأة وبدون إنذار أعلن نيقولاي شاوشيسكو أن الإجهاض قانوني، فالأولاد المولودون في مطلع منع الإجهاض يحتمل أنهم كانوا سيصبحون مجرمين أكثر من الأطفال المولودين قبله. ولماذا كان ذلك؟ تكشف الدراسات في أجزاء أخرى من أوربا الشرقية والدول الإسكندنافية منذ 1930 حتى 1960 اتجاهاً مماثلاً. ففي معظم هذه الحالات لم يكن الإجهاض ممنوعاً تماماً، لكن على المرأة أن تحصل على إذن من القاضي كي تحصل على الإجهاض. ووجد الباحثون أنه في الحالات التي منعت فيه المرأة من إجراء الإجهاض، كانت غالباً ما تحقد على وليدها ولا تنجح في تقديم بيت جيد للطفل. وحتى عند مراقبة دخل المرأة وعمرها وتعليمها وصحتها، وجد الباحثون أنه من المحتمل جداً أن يصبح هؤلاء الأطفال مجرمين.

في هذه الأثناء كان لدى الولايات المتحدة تاريخ للإجهاض مختلف عما كان في أوربا. في الأيام الأولى للأمة، كان المسموح أن تحصل على الإجهاض قبل «الارتكاض» ـ وهذا يعني عندما تشعر الحامل بالحركة الأولى لجنينها، وهذا يكون تقريباً ما بين الأسبوع السادس عشر والأسبوع الثامن عشر من الحمل. في عام 1928، أصبحت نيويورك أول ولاية تقيد الإجهاض؛ وبحلول عام 1900 أصبح الإجهاض عملياً غير قانوني في جميع أنحاء البلاد. وكان الإجهاض في القرن العشرين غالباً خطيراً ومرتفع التكاليف؛ لذلك قلّ عدد النساء الفقيرات اللواتي أجرين إجهاضاً. وكانت تلك النساء لا تحصلن على ما يضبط الولادات، وما كانت تفعله، نتيجة لذلك، كانت تحصل على مزيد من الأطفال.

في أواخر الستينيات، بدأت بضع ولايات تسمح بالإجهاض في ظروف خاصة جداً: مثل الاغتصاب أو الاتصال الجنسي بالمحارم أو الخطر على الأم. وبحلول 1970 جعلت خمس ولايات الإجهاض عملاً قانونياً ومتوافراً على نطاق واسع: نيويورك وكاليفورنيا وواشنطن وألاسكا وهاواي. وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني من عام 1973 أصبح الإجهاض عملاً قانونياً في جميع أنحاء البلاد، وذلك بحكم المحكمة العليا في الولايات المتحدة في قضية «رو» و«ويد». فكان رأي الأكثرية كما كتبه القاضي هاري بلاكن، يتحدث بصورة خاصة إلى حكم أمهات المستقبل:

إن الضرر الذي تفرضه الولاية على المرأة الحامل بمنحها هذا الخيار واضح.. فالأمومة، أو الأطفال الإضافيون، قد تفرض على المرأة حياة ومستقبلاً مجهداً. إن الأذى النفسي قد يكون كبيراً، والصحة العقلية والجسدية قد ترهقها رعاية الطفل. هناك شدة وكرب لكل أصحاب العلاقة المرتبطين بهذا الطفل غير المرغوب فيه، وهناك مشكلة تربية الطفل ضمن عائلة غير قادرة من الناحية النفسية وخلافها على رعاية الطفل.

فأصدرت المحكمة العليا تأييداً لما عرفته الأمهات في رومانيا وإسكندنافيا ـ وفي أماكن أخرى ـ منذ زمن طويل: عندما لاتريد امرأة طفلها، فإن لديها عادة سبباً وجيهاً، فقد تكون غير متزوجة أو يكون زواجها سيئاً. وقد تعتبر نفسها فقيرة جداً، بحيث لاتستطيع تربية طفل. وقد تعتقد أن حياتها غير مستقرة أو غير سعيدة، أو تعتقد أن عادة الشرب أو المخدر لديها قد تؤذي صحة الطفل. وقد تعتقد أنها صغيرة جداً أو أنها لم تتلق تعليماً كافياً بعد.

ولأي سبب من مئة سبب قد تشعر أنها لا تستطيع تأمين بيئة منزلية تقود إلى تربية طفل تربية صحية ومنتجة.

في السنة الأولى بعد قضية (رو) و(ويد) أجرت 750000 امرأة إجهاضاً في الولايات المتحدة (ويمثل هذا إجهاضاً واحداً من بين 4 ولادات عادية). ووصل

عدد الإجهاضات في 1980 إلى 1.6 مليون (ويمثل هذا إجهاضاً واحداً من بين 2.25 ولادة عادية)، وحيث استقر هذا العدد في دولة يبلغ عدد سكانها 225 مليون نسمة، قد يبدو عدد الإجهاضات (1.6 مليون سنوياً) ـ أي إجهاض واحد لكل 140 أمريكياً ـ درامياً تماماً. وبعد سنة من موت نيقولاي شاوشيسكو أعيد السماح بالإجهاض في رومانيا، إذ كان هناك إجهاض واحد لكل اثنين وعشرين رومانياً، ولكن لا يزال: 1.6 مليون امرأة أمريكية سنوياً يحملن ولا ينجبن.

قبل قضية «رو» و«ويد» كانت فتيات الطبقة الوسطى أو العليا هن اللواتي يرتبن ويدفعن تكاليف عملية إجهاض آمنة وغير قانونية. أما الآن فبدلاً من الإجراء غير القانوني الذي قد يكلف 500 دولار، تستطيع أي امرأة الحصول على إجهاض بصورة يسيرة وبكلفة تقل عن مئة دولار.

من هي المرأة التي تستطيع أن تستفيد من «رو» و«ويد»؟ غالباً جداً، إنها المرأة غير المتزوجة أو المراهقة أو الفقيرة، وأحياناً تكون الثلاثة معاً، وما هو المستقبل الذي يكون لوليدها؟ أظهرت دراسة أن الطفل النمطي الذي لم يولد في السنوات الأولى للإجهاض القانوني لديه احتمال 50٪ بأن يعيش في فقر، ويمكن أيضاً أن يكون 60٪ من الأطفال في بيت والد وحيد. وهذان العاملان: الطفولة الفقيرة والبيت ذو الوالد الوحيد ـ هما من بين أقوى العوامل التي تتنبأ بأن الطفل سيكون مجرماً في المستقبل: فالنمو في بيت وحيد الوالد يضاعف من احتمال ارتكاب الطفل لجريمة. وكذلك عندما تكون أم الطفل مراهقة. وتظهر دراسة أخرى أن تعليم الأم هو العامل الوحيد الأقوى الذي يؤدي إلى الإجرام.

بعبارة أخرى، إن العوامل ذاتها التي دفعت ملايين الأمريكيات لإجراء إجهاض تبدو أيضاً أنها تشير إلى أن أطفالهن، لو كتبت لهم الولادة، فسيعيشون حياة غير سعيدة، وربما حياة إجرامية.

من المؤكد، أن جعل الإجهاض قانونياً في الولايات المتحدة ذو نتائج عديدة. فقد هبط موت الأطفال بصورة درامية. وكذلك هبطت الزيجات السريعة (عند

ظهور أعراض الحمل لدى المرأة)، وكذلك عدد الأطفال الذين يؤخذون للتبني (مما أدى إلى ازدهار تبني الأطفال الأجانب). وارتفع معدل الحمل بنسبة 30٪، لكن الولادات انخفضت في الواقع بنسبة 6٪، وهذا يشير إلى أن نساء كثيرات يستخدمن الإجهاض طريقةً لضبط المواليد، وهذه سياسة أولية وجذرية بالنسبة لسياسة شركات التأمين.

وربما كانت أكثر النتائج الدرامية لجعل الإجهاض قانونياً، والتي قد تأخذ سنوات لتكشف عن نفسها، هو تأثيره في الجريمة. ففي أوائل التسعينيات، عندما كانت أول مجموعة أطفال ولدت بعد قضية «رو» و«ويد» تصل أواخر سنين المراهقة ـ وهي السنوات التي يدخل فيها الشباب أول الجرائم ـ بدأ معدل الجريمة يهبط. وما ينقص هذه المجموعة طبعاً هو الأطفال الذين يقفون أمام أعظم فرصة ليصبحوا فيها مجرمين، واستمر معدل الجريمة يهبط باستمرار بينما بلغ جيل كامل سن الرشد من دون أطفال لم تكن أمهاتهم راغبات بإنجابهم إلى هذا العالم. فقد قلل الإجهاض القانوني من أولئك الأطفال غير المرغوب فيهم؛ فعدم الرغبة بالأطفال تؤدي إلى ارتفاع الجريمة؛ لذلك أدى الإجهاض القانوني إلى تقليل الجريمة.

هذه النظرية تثير ردود فعل متنوعة، تتراوح من عدم التصديق إلى الإعراض. كما تثير اعتراضات متنوعة تتراوح من الاعتراض اليومي إلى الاعتراض الأخلاقي. وأول اعتراض محتمل هو الاعتراض الأكثر مباشرة: هل النظرية صحيحة؟ ربما كان الإجهاض والجريمة مترابطين فقط، ولكن العلاقة بينهما ليست سببية.

قد يكون من المريح أكثر الاعتقاد بما تقوله الصحف بأن هبوط الجريمة كان بسبب سياسة ذكية لحفظ الأمن والنظام وضبط بارع للسلاح واقتصاد محلق بالازدهار. فقد نشأنا ومعنا ميل لربط السببية بأشياء نستطيع لمسها أو الإحساس بها، وليس بظواهر بعيدة أو صعبة. ونعتقد بصورة خاصة بأسباب قريبة الشروط: الأفعى تعض صديقك، إنه يصرخ من الألم، ويموت. فتستنتج أن

عضة الأفعى لابد أنها قتلته. في معظم الأوقات يكون مثل هذا التخمين صحيحاً. ولكن عندما يأتي الأمر إلى السبب والنتيجة، فهناك غالباً فخ في مثل هذا التفكير المفتوح والمغلق. ونبتسم مغتبطين عندما نفكر في الثقافات القديمة ونتمسك بأسباب خاطئة، فعلى سبيل المثال، الفرسان الذين اعتقدوا أن اغتصابهم لعذراء هو الذي حقق لهم النصر في ساحة المعركة. لكننا نتمسك بأسباب خاطئة في العادة هي إثارة خبير ليصرح بحقيقة يهتم بها.

فكيف إذن نستطيع أن نقول إذا كانت صلة الإجهاض بالجريمة هي قضية السببية بدلاً من الترابط ببساطة؟

إحدى الطرق لاختبار تأثير الإجهاض في الجريمة يمكن أن تكون في قياس معطيات الجريمة في خمس ولايات، حيث جعل الإجهاض قانونياً قبل أن تجعل المحكمة العليا حقوق الإجهاض تشمل بقية البلاد. في نيويورك وكاليفورنيا وواشنطن وألاسكا وهاواي تمكنت امرأة من الحصول على الإجهاض القانوني لمدة سنتين على الأقل قبل «رو» و«ويد».

وبالفعل، هذه الولايات التي جعلت الإجهاض قانونياً بصورة مبكرة رأت الجريمة بدأت في الهبوط بصورة أسبق من الولايات الخمس والأربعين والعاصمة واشنطن. فبين 1988 و1994، انخفضت جرائم العنف في الولايات التي جعلت الإجهاض قانونياً بصورة مبكرة بمعدل 13٪ بالمقارنة مع الولايات الأخرى؛ ومابين 1994 و1997، انخفضت معدلات الجرائم فيهم بمقدار يزيد 23٪ عن معدلات الولايات الأخرى.

ولكن ماذا لو كان هؤلاء المقننون الأوائل محظوظين؟ وما هو الشيء الآخر الذي يمكن أن نفتش عنه في المعطيات لتأسيس علاقة الإجهاض بالجريمة؟

ويمكن أن يكون عامل واحد للبحث عنه هو العلاقة بين معدل الإجهاض في كل ولاية ومعدل الجريمة فيها. ومن المؤكد، أن الولايات ذات أعلى معدلات للإجهاض في السبعينيات سجلت أعظم انخفاض في الجريمة في التسعينيات،

بينما سجلت الولايات ذات المعدلات المنخفضة للإجهاض هبوطاً أقل في الجريمة. (وتوجد هذه العلاقة، حتى عندما يكون الضبط تنوع العوامل التي تؤثر في الجريمة: سواء مستوى سجن لولاية، أو عدد أفراد الشرطة، أو الوضع الاقتصادي). فمنذ سنة 1985، مارست الولايات ذات معدلات الإجهاض العالية انخفاضاً بالجريمة يصل إلى 30٪ بالنسبة للولايات ذات معدلات الإجهاض المنخفضة. (كان معدل الإجهاض في مدينة نيويورك عالياً وتقع في ولاية أصبح فيها الإجهاض قانونياً بصورة مبكرة، هناك حقيقتان تقللان من الادعاء بأن تجديدات نظام الشرطة سبب انخفاض الجريمة). وفضلاً عن ذلك، لم يكن هناك أي رابطة بين معدل الجريمة في ولاية ما ومعدل الجريمة فيها قبل أواخر الثمانينيات ـ عندما تأثرت المجموعة الأولى بالإجهاض القانوني قد وصلت طلائع الجرائم ـ وهذا هو مؤشر آخر على أن قضية «رو» و«ويد» هي فعلاً الحدث الذي أمال كفة ميزان الجريمة.

هناك عدد أكبر من علاقات الترابط، الإيجابية والسلبية، تدعم العلاقة ما بين الإجهاض والجريمة. ففي الولايات ذات المعدلات للإجهاض؛ كان الهبوط في معدل الجريمة بكامله فيما بعد قضية «رو» مقابل الجرائم السابقة. وأظهرت دراسات في أستراليا وكندا منذ ذلك الحين علاقة مماثلة بين جعل الإجهاض قانونياً وبين الجريمة. والمجموعة التي جاءت بعد قضية «رو».

لم تفقد آلاف الشباب المجرمين من الذكور وحسب، لكنها فقدت آلافاً من الأمهات العازبات والمراهقات أيضاً؛ لأن الكثيرات من البنات اللواتي أجهضن من الممكن أنهن سيكررن اتجاهات أمهاتهن.

(لاحاجة للقول): إن اكتشاف الإجهاض على أنه أكبر العوامل في تخفيض الجريمة في التاريخ الأمريكي أمر مزعج. ويبدو أنه دارويني أقل مما هو سوفيتي: ويعيد إلى العقل منذ زمن بعيد سهماً عزي إلى ج. ك. تشيسترتون: عندما لا توجد قبعات كافية للتجول، فلن يكون حل المشكلة بقطع بعض الرؤوس. إن انخفاض الجريمة، بلغة الاقتصاديين، «منفعة غير مقصودة» للإجهاض

القانوني. ولكن لا يتعين على المرء أن يعارض الإجهاض لأسباب أخلاقية أو دينية؛ ليشعر بأنه قد هزته الفكرة بأن حزناً خاصاً قد تحول إلى خير عام.

والواقع، هناك العديد من الناس الذين يعتبرون الإجهاض بحد ذاته جريمة عنف، ولقد سمّى أحد علماء القانون الإجهاض القانوني أسوأ من العبودية (لأنه يشمل الموت بصورة روتينية) أو المحرقة اليهودية (لأن عدد الإجهاضات بعد قضية «رو» في الولايات المتحدة قارب 37 مليوناً حتى سنة 2004، وقد فاق هذا العدد عدد يهود أوربا البالغ ستة ملايين). وسواء شعر المرء بهذه القوة حيال الإجهاض أم لم يشعر، فإنه يبقى قضية متهمة بصورة منفردة. أنطوني ف. بوزا، وهو قائد شرطة سابق في كل من برونكس ومينيسوتا، اكتشف هذا عندما كان يعمل لصالح حاكم مينيسوتا في سنة 1994 . فقبل بضع سنوات كتب بوزا كتاباً سمى فيه الإجهاض «بجهاز منع الجريمة الفعال والوحيد الذي تبنته الأمة منذ أواخر الستينيات والذي هو «عرضة للنقاش». عندما نشر رأي بوزا قبيل الانتخابات، سقط بصورة حادة في استطلاعات الرأي، ومن ثم خسر.

مهما كان شعور المرء حيال الإجهاض، فقد يخطر على البال سؤال: ما الذي يجب أن نفعله لمبادلة مزيد من الإجهاض بقليل من الجريمة؟ هل من الممكن أن نضع رقماً على هذه العملية المعقدة؟

وكما يحدث بالعادة، فإن الاقتصاديين معتادون على وضع أرقام على العمليات المعقدة. فكر في الجهد الذي تحتاجه لإنقاذ البوم المرقش في الشمال من الانقراض. وجدت إحدى الدراسات الاقتصادية أنه لنحمي ما يقرب من خمسة آلاف بومة، فإن الفرصة تكلف ـ وهذا يعني، الدخل المقدم من صناعة قطع الأشجار وأشياء أخرى ـ ما يقرب من 46 مليون دولار، أي ما يزيد عن 9 ملايين للبومة الواحدة. وبعد تدفق النفط في إيكسون فاليز في سنة 1989 أجريت دراسة أخرى قدرت المبلغ الذي سيتكلفه البيت الأمريكي الذي يرغب في تجنب كارثة أخرى مماثلة: 31 دولاراً. يستطيع الاقتصادي أن يحدد رقماً

لقيمة أي جزء من أجزاء الجسم. فكر في البرنامج الذي تستخدمه ولاية كونيكتيكت للتعويض عن الأضرار الناجمة عن العمل.

العضو المصاب أو المفقود	التعويض، مقدراً بالأسابيع المأجورة
الإصبع (الأول)	36
الإصبع (الثاني)	29
الإصبع (الثالث)	21
الإصبع (الرابع)	17
إبهام اليد (الرئيسة)	63
إبهام اليد (الأخرى)	54
اليد (الرئيسة)	168
اليد (الأخرى)	155
الذراع (الرئيس)	208
الذراع (الآخر)	194
إبهام (القدم)	28
إصبع (القدم)	9
القدم	125
الأنف	35
العين	157
الكلية	117
الكبد	347
البنكرياس	416
القلب	520
الثدي	35
المبيض	35
الخصية	35
القضيب	104 _ 35
المهبل	104 _ 35

الآن، ومن أجل النقاش، لنطرح سؤالاً غاضباً: ما هي القيمة النسبية ما بين الجنين والطفل المولود حديثاً؟ إذا جوبهت بهذه المهمة السليمانية في تضحية حياة طفل مولود حديثاً مقابل عدد غير محدد من الأجنة، فما هو الرقم الذي تختاره؟ وهذا لاشيء سوى رياضة فكرية ـ طبعاً لايوجد سؤال صحيح ـ ولكنه قد يساعد في توضيح تأثير الإجهاض في الجريمة.

بالنسبة لشخص ليس إلى جانب الحياة أو لصالح الخيار، فهذه عملية حسابية سهلة. أولاً، إذا اعتقدنا أن الحياة تبدأ عند الحمل، فإننا نعتبر أن القيمة للمولود الحديث مقابل قيمة الجنين هي 1.1 والشخص الثاني، الذي يعتقد أن حق المرأة بالإجهاض يتغلب على أي عامل آخر، سيناقش أنه ما من عدد من الأجنة يوازي حتى مولود حديث واحد.

ولكن لنفكر بشخص ثالث. (إذا حددته بقوة إما بالشخص الأول وإما بالشخص الثاني، فإن التمرين الآتي سيفاجئك بأنه يؤذي، وقد ترغب في القفز عن هذه الفقرة والفقرة الآتية). لايعتقد هذا الشخص الثالث أن الجنين هو مساوٍ 1.1 للمولود حديثاً، ولكنه لا يعتقد أيضاً أن الجنين ليس له أي قيمة. لنقل: إنه مرغم، من أجل المناقشة، على وضع قيمة نسبية فيقرر أنها 1 مولود حديث يساوي 100 جنين.

هناك على وجه التقريب 1.5 مليون إجهاض في الولايات المتحدة كل سنة. فبالنسبة للشخص الذي يعتقد أن قيمة مولود حديث 1 تساوي 100 جنين، فعمليات الإجهاض المليون والنصف تعني ـ بتقسيم 1.5 مليون على 100 ـ فيما يعادل فقط 15000 حياة إنسان ـ 15000 حياة إنسان: كل سنة. وهو أكثر بكثير من عدد جرائم القتل التي تم إلغاؤها في كل سنة بسبب الإجهاض البشري، فإن المبادلة بين إجهاض غالٍ وجريمة منخفضة هي بالتفكير الاقتصادي، غير مجدية بصورة فظيعة.

والعلاقة بين الإجهاض والجريمة لا تقول ما يلي: عندما تعطي الحكومة للمرأة فرصة لاتخاذ قرارها حول الإجهاض، فإنها تقوم بعمل جيد من الحساب حول إن كانت في وضع يساعد على تربية الطفل تربية جيدة. وإن قررت أنها لا تستطيع، فإنها تختار الإجهاض.

ولكن عندما تقرر المرأة أنها ستحتفظ بالطفل، يطرح سؤال كبير: ماذا يفترض في الوالدين أن يفعلا عندما يولد الطفل؟

وجد ليفيت أن الدعم والمؤازرة في جامعة شيكاغو قد ذهب إلى ما وراء الأمور العلمية. فبعد أن عين بسنة واحدة، ولدت زوجته أول طفل لهما، أندرو. وذات يوم، بعدما أصبح أندرو في السنة الأولى من العمر، أصيب بحمى خفيفة. وشخص الطبيب له إصابة في الأذن. وعندما بدأ بالتقيؤ في صباح اليوم الثاني، أخذه والده إلى المستشفى. ولكنه توفي في اليوم القادم بسبب مرض التهاب السحايا الجرثومي.

وبين الصدمة والحزن، كان لديه صف جامعي يحتاج إلى التدريس. وكان غري بيكر- المكرم بجائزة نوبل وهو قريب من عيد ميلاده السبعين ـ قد درس عوضاً عنه، وزميل آخر، د.غال جونسون، أرسل بطاقة تعزية أثرت بليفيت تأثيراً كبيراً إلى درجة لايزال معها يذكرها عن ظهر قلب.

ليفيت وجونسون ـ وهو اقتصادي زراعي في الثمانينيات من العمر- راحا يتحدثان بشكل منتظم، وعلم ليفيت أن ابنة جونسون كانت أول أمريكية تتبنى ابنة من الصين، وسرعان ما بدأ ليفيت بالإجراءات ذاتها، وسمياها آماندا. إضافة إلى آماندا، كان عندهما ابنة في الثالثة من عمرها وولد يبلغ السنة الأولى من العمر تقريباً.

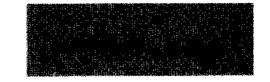
لكن وفاة أندرو لا تزال تؤثر بطرق مختلفة. فقد أصبحت عائلة ليفيت أصدقاء حميمين لعائلة عندها طفلة صغيرة، وكانوا قد تبرعوا لها بكبد أندرو. (وتبرعوا أيضاً بقلبه، لكن ذلك الطفل مات). وليس من المدهش بالنسبة لعالم يتابع موضوعات الحياة الحقيقية، أن يكون الموت قد علّمه.

انضم هو وجانيت إلى مجموع دعم للأولياء الحزانى، ودهش ليفيت عندما علم عدد الأطفال الذين يغرقون بالمسبح، فكانت هذه الميتة لاتثير أي صحيفة ـ خلافاً لطفل يموت وهو يلعب بالمسدس مثلاً.

لقد أثير فضول ليفيت فراح يبحث عن الأرقام التي قد تحكي القصة. فكتب النتائج، كتعلم مفتوح لجريدة صن تايمز شيكاغو. فصورت نوعاً مما يعارض الحدس بصورة طنانة، وأصبح مشهوراً بذلك:

«إن كان لديكما مسدس ومسبح في الحديقة الخلفية، فإن احتمال أن يقتل المسبح الطفل يبلغ مئة مرة من احتمال أن يقتله المسدس».

مجلة النيويورك تايمز، 3 آب 2003



ما الذي يجعل أحد الأبوين كاملاً؟

هل وجد فن آخر تحول بإخلاص إلى علم مثل فن الأبوة؟

خلال العقود الأخيرة ظهر عدد كبير من الخبراء المختلفين في الأبوة. وكل من حاول بطريقة عفوية أن يتبع نصائحهم قد يكون وجد نفسه محبطاً، لأن الحكمة التقليدية حول الأبوة تبدو أنها تتغير بتغير الساعة. وفي بعض الأحيان قد يكون الأمر اختلاف خبير مع خبير آخر. وفي أحيان أخرى، يوافق أكثر من يجهرون من الخبراء جملة واحدة بأن الحكمة القديمة خطأ وأن الحكمة الجديدة، لمدة قصيرة على الأقل، غير مرفوضة.

فعلى سبيل المثال، الإرضاع الطبيعي هو الطريقة الوحيدة لضمان طفل صحيح ومتقدم عقلياً ـ ما لم تكن التغذية الصناعية هي الجواب. وينبغي أن يهيأ الطفل دائماً إلى النوم على ظهره ـ إلى أن يأتي الأمر بأنه يجب أن ينام على بطنه. وأكل الكبد إما أنه (أ) سام وإما أنه (ب) ضروري لتحسين الدماغ. لاتستخدم العصا فتفسد الطفل؛ وعاقب الطفل فتدخل السجن.

في كتابها «تربية أمريكا»: (الخبراء، والأبوان وقرن من النصائح حول الأطفال)، وثقت آن هولبرت كيف يناقض خبراء الأبوة بعضهم بعضاً بل وحتى يناقضون أنفسهم. فقد تكون معابثتهم مفرحة لو لم تكن فظيعة وغالباً مخيفة. غاري إيزو الذي يؤيد في سلسلة كتب (حول الطفل) إستراتيجية إدارة الطفل «للأمهات والآباء الذين يحاولون» إنجاز امتياز في القيام بالوالدية ويؤكد على أهمية تدريب الطفل باكراً على النوم وحده طوال الليل. وإلا فإن إيزو يحذر بأن حرمان النوم «سيؤثر بصورة سلبية في نمو الجهاز العصبي المركزي للطفل» وتؤدي إلى تعلم المعوقات. وإن دعاة «النوم المشترك» يحذرون من أن النوم وحيداً

ضار لنفسية الطفل وأن عليه أن يأتي إلى «سرير العائلة» وماذا عن الدافع؟ كتب ت. بيري برازيلتون في 1983 أن الطفل يصل إلى العالم «مستعداً بصورة جميلة لدور التعلم حول نفسه والعالم من حوله». فضل برازيلتون الدافع المتحمس باكراً «طفل متفاعل». ولكن قبل مئة سنة، حذر ل. إيمرت هولت بأن الطفل ليس «لعبة». واعتقد هولت ألا يكون هناك إجبار، أو ضغط ودافع غير مناسب «خلال السنتين الأوليين من حياة الطفل؛ والطفل ينمو كثيراً خلال ذلك الوقت بأن الدافع الزائد قد يسبب ضرراً كبيراً جداً». واعتقد أيضاً أن الطفل الذي يبكي ينبغي ألا يحمل إلا إذا كان متألماً. وكما شرح هولت، يجب أن يترك الطفل يبكي لمدة 15 أو 30 دقيقة في اليوم: «إنه تدريب للطفل».

يميل خبير الأبوة النمطي، كما يميل خبراء الميادين الأخرى، لأن يبدو واثقاً من نفسه بصورة كبيرة. ولايناقش الخبير كثيراً الجوانب المتنوعة لقضية مثل غرس علمه بصورة ثابتة في جانب واحد. وهذا لأن الخبير الذي يشتم من النقاش رادعاً لايحظى باهتمامٍ كبير. ويجب أن يكون الخبير شجاعاً إذا كان يأمل بأن يحول نظريته المحلية إلى حكمة تقليدية. وفرصته لفعل ذلك هو أن يربط عواطف عامة؛ لأن العاطفة عدو النقاش العقلي. وعندما تذهب العواطف. أو واحدة منها أقوى من العواطف البقية. فالغول، وأسلحة الدمار الشامل في العراق، ومرض جنون البقر، والموت في السرير: كيف نفشل في التفكير في نصيحة الخبير حول هذه المخاوف عندما، مثل ما فعل ذلك العم الذي يقص على أطفال صغار قصصاً مخيفة جداً، جعلنا نرتجف؟

وما من شخص يتأثر بإشاعات الخبراء أكثر من الوالد. والخوف في واقع الحال عنصر كبير من عمل الأبوة. وبعد كل شيء، إن الوالد هو من يعتني بحياة مخلوق آخر، مخلوق يكون في البداية أضعف من المولود الجديد لأي أجناس أخرى. وهذا يجعل الكثيرين من الآباء يصرف الكثير من طاقة الوالدية لديهم ببساطة؛ لأنهم خائفون.

المشكلة هي أنهم خائفون غالباً من الأشياء الخاطئة. ليس ذلك خطأهم بالفعل. وفصل الحقائق عن الشائعات عمل صعب دائماً، ولاسيما بالنسبة للوالد المشغول. والضجة البيضاء التي يولدها الخبراء ـ دون أن نقول شيئاً عن الضغط الذي يمارسه الوالد، طاغية جداً لدرجة أنهم يستطيعون أن يفكروا بأنفسهم بصورة مجردة. والحقائق التي يفلحون بالتقاطها يجري تلوينها بصورة عادية؛ أو تجري المبالغة فيها، وإلا تخرج من السياق لتخدم الأجندة التي لم تكن أجندتهم.

فكر في والدي ابنة عمرها ثماني سنوات واسمها لنفرض أنه «مولي»، وأفضل صديقتين لها هما آمي وإيماني، تعيشان قريباً منها. يعرف والدا مولي أن آمي تحتفظ بمسدس في بيتها، لذا منعا مولي من اللعب هناك. وبدلاً من ذلك، تمضي مولي الكثير من وقتها في بيت إيماني، حيث يوجد مسبح في الحديقة الخلفية، ويشعر أهل مولي بسعادة؛ لأنهما اتخذا هذا الخيار لحماية ابنتهما.

ولكن بحسب المعطيات، لم يكن اختيارهما ذكياً مطلقاً. ففي سنة معينة غرق طفل واحد في مسبح من كل 11000 يسكنون في المناطق السكنية في الولايات المتحدة. (وفي قطر فيه 6 ملايين مسبح، هذا يعني أن ما يقرب من 550 طفلاً تحت سن العشر سنوات يغرقون في كل سنة). هنا طفل يقتل بمسدس من كل مليون مسدس. (وفي بلد يقدر أن فيه 200 مليون مسدس، هذا يعني أن ما يقرب من 175 طفلاً تحت سن العشر سنوات يقتلون بالمسدسات). إن احتمال الموت في المسبح (1 من 11000) مقابل الموت بالمسدس (1 من مليون أوأكثر) ليس احتمالاً قريباً. فمن المحتمل أن تموت مولي أكثر من 100 مرة في حادث بالمسبح في بيت إيماني من الموت بالمسدس في بيت آمي.

لكن معظمنا مثل والدي مولي، نقدر الخطر تقديراً مرعباً. أوضح هذه النقطة بيتر ساندمان، وهو يصف نفسه «مستشاراً بتوضيح الخطر» في برنستون، نيوجرسي في أوائل سنة 2004 بعدما أثارت حالة من مرض جنون البقر في الولايات المتحدة حماساً ضد البقر. قال ساندمان لمجلة نيويورك تايمز:

«إن الحقيقة الأساسية هي أن الأخطار التي أخافت الناس، والأخطار التي تقتل الناس، هما حقيقتان مختلفتان».

وقدم ساندمان مقارنة بين مرض جنون البقر (وهو تهديد مخيف جداً، لكنه نادر جداً) وانتشار الفيروسات التي يحملها الطعام في المطبخ المنزلي العادي (وهو عام، ولكن ليس مخيفاً جداً). «يقول ساندمان»: إن الأخطار التي نستطيع السيطرة عليها هي مصدر لغضب أقل من الأخطار التي ليست تحت سيطرتنا. ففي حالة جنون البقر، أشعر أن المرض خارج عن سيطرتي. فلا أستطيع القول: إن كان في اللحم فيروسات أم لا. ولا أستطيع رؤيتها، ولا أستطيع أن أسميها. بينما الأوساخ في مطبخي هي تحت سيطرتي تماماً. فأستطيع أن أنظف الإسفنجة وأستطيع أن أنظف الأرض.

إن مبدأ «السيطرة» عند ساندمان يمكن أن يفسر لماذا يخشى الناس الطيران أكثر من خوفهم من قيادة السيارة. فهم يفكرون كما يلي: بما أنني أسيطر على السيارة فأنا الذي أحتفظ بسلامتي، بينما لا أستطيع السيطرة على الطائرة. فإنها تحت رحمة عدد كبير من العوامل الخارجية.

إذن أيهما يجب أن نخشاه فعلاً، الطيران أم قيادة السيارة؟

قد يساعد في البداية طرح سؤال أكثر جوهرية؛ ما الذي نخافه بالضبط؟ ربما الموت. لكن الخوف من الموت يحتاج إلى تضييق. طبعاً نعرف جميعنا أننا مقدر علينا الموت، وقد نقلق بشأنه بصورة عرضية. ولكن إذا علمت أن احتمال موتك في العام القادم هو 10٪، فإنك ستقلق أكثر، وربما تختار أن تعيش بطريقة مختلفة. وإن علمت أن احتمال موتك في الدقيقة الآتية هو 10٪، فإنك من المحتمل أن تفزع. إذن إن الاحتمال الأكبر للموت هو ما يدفعنا إلى الخوف، وهذا يعني أن الطريقة المعقولة أكثر هي حساب الخوف من الموت يجعلنا نفكر فيه على أساس الساعة.

فإن كنت ستقوم برحلة، ولديك خيار قيادة السيارة أو ركوب الطائرة، فإنك قد ترغب في أن تفكر بمعدل الموت في الساعة في القيادة مقابل الطيران. صحيح أن العديد من الناس يموتون في الولايات المتحدة كل سنة في حوادث السيارات (ما يقرب من 40 ألف) أكثر من حوادث الطائرات (أقل من 1 بالألف). ولكن من الصحيح أيضاً أن معظم الناس يمضون وقتاً أطول في سياراتهم مما يقضونه في الطائرات. (ويموت ناس أكثر في حوادث القوارب في السنة مما يموتون في حوادث الطائرات؛ وكما رأينا في أحواض السباحة مقابل المسدسات، فالماء هو أخطر كثيراً مما يعتقد معظم الناس). فمعدل الموت بالساعة من الغرق مقابل الطيران متساويان. فالنقطتان المتقابلتان هما محتملتان بصورة متساوية (أو بالحقيقة مختلفتان) لأنهما تؤديان إلى الموت.

لكن الخوف يزداد في الزمن الحاضر. ولهذا السبب يعتمد الخبراء عليه؛ ففي عالم نافد الصبر بصورة متزايدة مع عمليات ذات آجال طويلة، فإن الخوف لعبة قوية قصيرة الأجل. تخيل أنك موظف حكومي مسؤول عن تأمين الأموال لمحاربة قاتل أو قاتلين: هجمات إرهابية ومرض القلب. أي سبب تعتقد أن أعضاء الكونغرس سيفتحون الخزائن له؟ الاحتمال هو أن أي شخص يقتل في هجوم إرهابي أقل احتمالاً من أن يقوم الشخص نفسه بإغلاق شرايينه بالطعام الدسم ويموت بمرض القلب، لكن الهجوم الإرهابي يحدث الآن، والموت بمرض القلب بعيد نوعاً ما، كارثة هادئة. والأعمال الإرهابية ليست تحت سيطرتنا؛ أما البطاطا المقلية فهي ليست كذلك. فهذا مهم تماماً كعامل السيطرة التي يسميها بيتر ساندمان «عامل الخوف». إن الخوف من هجوم إرهابي (أو مرض جنون البقر) يعتبر مخيفاً جداً؛ والموت بمرض القلب هو، لبعض الأسباب ليس كذلك.

يعمل الخبير ساندمان على كلا الطرفين من المشكلة. فقد يساعد في يوم ما جماعة لحماية البيئة في كشف الأخطار الصحية العامة. وقد يكون زبونه في اليوم المقبل مديراً تنفيذياً لشركة تقدم الطعام السريع ويحاول التعامل مع

المصاب بفيروسات تسكن الأمعاء. فقد خفض ساندمان القضية بخبرته إلى معادلة رتيبة: المخاطرة: خطر + فظاعة تثير الغضب. فبالنسبة لمدير الشركة ذات اللحم الفاسد في الهمبرغر، عمل ساندمان على «تخفيض الفظاعة المثيرة للغضب»؛ وبالنسبة لجماعة البيئة كان عمله «زيادة تلك الفظاعة المثيرة للغضب».

لاحظ أن ساندمان يعالج الفظاعة المثيرة للغضب، لكنه لايعالج الخطر نفسه. فهو يسلم بأن الفظاعة المثيرة للغضب والأخطار ليست بالقوة ذاتها في معادلته للمخاطرة. «فعندما يكون الخطر عالياً والفظاعة متدنية، يقلل الناس من عملهم، بينما حين يكون الخطر منخفضاً والفظاعة عالية فإن الناس يبالغون في عملهم».

لذا لماذا يكون حوض السباحة أقل إخافة من السلاح؟ إن فكرة إطلاق النار على الطفل في صدره بواسطة مسدس جاره عمل مروع ودرامي ومرعب، وبكلمة واحدة فظاعة تثير الغضب. ولاتثير أحواض السباحة الحفيظة، وهذا لأن جزءاً من البيت عامل مألوف. فتماماً كما يمضي معظم الناس وقتاً أطول في سيارتهم مما يمضونه في الطائرات، فكذلك لدى معظمنا خبرة لا بأس بها في السباحة في حوض السباحة أكثر من خبرتنا بإطلاق النار. ويستغرق الطفل ثلاثين ثانية فقط حتى يغرق وغالباً ما يحدث هذا من دون أي ضجة. ويمكن أن يغرق الطفل في ماء ضحل لا يزيد عمقه عن بضع بوصات «إنشات». والخطوات المطلوبة لمنع الغرق هي مباشرة تماماً: رقابة إنسان بالغ وسياج حول حوض السباحة وباب خلفي مقفل؛ حتى لايتسلل طفل حديث العهد بالمشي دون أن يلاحظه أحد.

لو اتبع كل والد هذه الاحتياطات، لتم إنقاذ مايقرب من 400 طفل في كل سنة. وهذا يزيد عن عدد أولئك الأطفال الذين يتم إنقاذهم بواسطة اختراعين تم الترويج لهما على نطاق واسع في الذاكرة الحديثة: السرير الأسلم ومقعد الطفل للسيارة. تظهر الدراسة أن مقاعد الأطفال للسيارة في أحسن أحوالها تساعد. وبالتأكيد من الأسلم وضع الطفل على الكرسي الخلفي، بدلاً من أن يجلس في حضن أحدهم في المقعد الأمامي، حيث يندفع كالصاروخ عند وقوع أي حادث.

لكن السلامة التي يتم الحصول عليها هنا هي منع الأطفال من الانطلاق بسرعة، وليس من ربطهم إلى مقعد السيارة الذي يكلف 200 دولار. ومع ذلك فإن كثيراً من الآباء يضخمون فائدة مقعد السيارة الذي يسافرون إلى محطة الشرطة المحلية أو قسم الإطفاء؛ كي يركبوه بصورة صحيحة. وعملهم هذا هو إشارة حب بالتأكيد، لكنها أيضاً إشارة إلى ما قد تسمى «وسوسة الوالدين». (فالآباء الموسوسون يعرفون من هم وهم فخورون بذلك عموماً؛ وكذلك يعرف الآباء غير الموسوسين من هم الموسوسون ويحاولون أن يسخروا منهم).

ترتبط معظم الاختراعات في ميدان سلامة الأطفال بمنتج جديد (صدمة الصدمات) يجب تسويقه. يباع ما يقرب من خمسة ملايين كرسي للسيارة في كل سنة. وغالباً ما تكون هذه المنتجات استجابة لخوف ما ينمو ويتزايد (وربما يكون بيتر ساندمان وضعه) بحيث يتفوق على الخطر. قارن حياة 400 طفل يحميها بضعة تحذيرات واحتياط في المسبح بعدد الحيوات التي يتم إنقاذها في حملات صاخبة: الرزمة المانعة للأطفال (تقدر بخمسين طفلاً في السنة) والبيجاما التي تمنع الاشتعال (10 أطفال) إبعاد الأطفال عن أكياس الهواء في السيارة (أقل من خمسة أطفال في السنة قتلوا بالبالون منذ اختراعه)، وسلامة حبال الجر في ألبسة الأطفال (طفلان).

تقول: على رسلك. ما هي أهمية الآباء إن كان الخبراء والمسوقون يستغلونهم؟ ألا ينبغي أن نصفق لأي جهد بغض النظر عن صغره أو تغيره الذي قد يجعل طفلاً واحدا سليماً؟ أليس لدى الآباء الآن ما يكفي ليقلقوا عليه؟ وبعد كل ذلك، الآباء مسؤولون عن واحد من أعظم المخاوف أهمية كما نعلم: تشكيل شخصية الطفل ذاتها، أليس كذلك؟

إن أكثر تغير جذري في الحكمة التقليدية مؤخراً يخص الوالدية، قد أثير بسؤال واحد بسيط: كم يهتم الوالدان فعلاً؟

من الواضح أن الوالدية الرديئة مهمة جداً. كما توضح العلاقة بين الإجهاض والجريمة أن الأطفال غير المرغوب بهم ـ وهم موضوع للإهمال وسوء الاستغلال ـ ذات نتائج أسوأ من الأطفال الذين كان آباؤهم ينتظرونهم برغبة وشوق. ولكن كم يستطيع هؤلاء الآباء المتشوقون أن يحققوا من أجل أطفالهم فعلاً؟

يمثل هذا السؤال تصعيداً في البحث يصل إلى عقود من الزمن. فخيط طويل من الدراسات، بما فيها البحث في التوائم الذين تم تفريقهم عند الولادة، توصلت إلى أن الجينات وحدها مسؤولة عما يقرب من 50٪ من شخصية الطفل وقدراته.

فإذا كانت الطبيعة مسؤولة عن نصف مصير الطفل، فمن هو المسؤول عن النصف الآخر؟ لابد أنه التنشئة ـ فأشرطة الطفل موزارت، ومواعظ الكنيسة ورحلات المتحف ودروس الفرنسية والمساومة والعناق والشجار والمعاقبة كلها تؤلف عمل الوالدية. ولكن كيف نفسر عندئذ الدراسة المشهورة الأخرى، مشروع التبني في كولورادو، الذي جاء بعد حياة 245 طفلاً وضعوا في التبني ووجد في النهاية أنه لاتوجد علاقة بين ميول شخصية الطفل وأولئك الرفاق الذين تم تبنيهم؟ أو في الدراسات الأخرى التي تظهر أن شخصية الطفل لم تتأثر كثيراً. سواء أرسل إلى مركز الرعاية النهارية أم لا، وسواء أكان له والد واحد أمْ والدان، وسواء عملت أمه أم لم تعمل، وسواء أكان لديه أمّان أمْ أبوان أمْ أب وأم؟

تمت معالجة هذه المخالفات في التنشئة الطبيعية في كتاب صدر سنة 1998 لمؤلفة غير معروفة اسمها جوديث ريش هاريس. وكان (افتراض التنشئة) نتيجة هجوم على الوالدية الموسوسة، كتاب مثير، احتاج إلى عنوانين فرعيين: لماذا يخرج الأطفال بالطريقة التي يخرجون بها؟ وتأثير الآباء أقل من تأثير الرفاق. وتناقش هاريس، على الرغم من أنها تناقش بطريقة لطيفة، أن الوالدين يخطئان التفكير بأنهم يسهمون بشكل كبير في شخصية طفلهم. وتكتب: إن هذا الاعتقاد

«خرافة ثقافية». وتناقش هاريس بأن تأثير الوالدين من الأعلى إلى الأسفل تسيطر عليه آثار ضغط الرفاق، والقوة الفظة التي يستخدمها الأصدقاء وزملاء الدراسة.

أثار عدم احتمال شظية قنبلة هاريس ـ فقد كانت جدة، لا أقل، وبدون شهادة دكتوراة أو تلتحق بجامعة ما ـ الدهشة والغم. كتب أحد المراجعين «قد يغفر الناس عامة قولهم». ها نحن نعود من جديد. فيقال لنا في سنة: إن الرباط هو الأساس، وفي السنة الثانية إنه ترتيب الولادة. انتظر، إن ما يهم حقاً هو الدافع. فالسنوات الخمس الأولى من الحياة هي أكثر أهمية. لا، السنوات الثلاث؛ كلا إن كل شيء في السنة الأولى مهم. انس ذلك: إن كل شيء هو الجينات!

لكن نظرية هاريس أيدها سجل الأوزان الثقيلة حسب الأصول، فبينهم كان ستيفن نبكر، وهو عالم النفس المدرك والمؤلف الأكثر مبيعاً الذي قال في كتابه (السجل الفارغ) وقد دعا آراء هاريس «مجفلات العقل» (بالمعنى الطيب). كتب نبكر «إن المرضى في الأشكال التقليدية للعلاج النفسي، بينما هم يعيشون صراعات طفولتهم لمدة خمسين دقيقة ويتعلمون بأن يلقوا اللوم لعدم سعادتهم على الطريقة التي عاملهم بها آباؤهم». وتمسح أشياء كثيرة من مذكرات طفولة الشخص للوصول إلى جذور المآسي عند الكبار وانتصاراتهم. ويجعل خبراء الوالدية النساء يشعرن كعمالقة القصص الشعبية إذا ما تسللن من البيت ليعملن أو ليتخلصن من قراءة (طابت ليلتك أيها القمر). كل هذه الاعتقادات العميقة سيعاد التفكير فيها.

أو هل سيكون ذلك؟ ينبغي أن يكون الآباء مهمين، تقول لنفسك. إضافة إلى ذلك، حتى الزملاء يمارسون تأثيراً كبيراً في الطفل، أليس الآباء هم أساساً من اختاروا أصدقاء الطفل؟ أليس لذلك يتعذب الآباء في جوارهم، في مدرستهم وحلقة الأصدقاء ذاتها؟

ولا يزال السؤال إلى أي حد يكون الآباء مهمين سؤالاً جيداً. وهو معقد تعقيداً فظيعاً. ففي تقرير تأثير الوالد، أي بعد من أبعاد الطفل تقيس شخصيته؟ درجاته المدرسية؟ سلوكه الأخلاقي؟ قدراته الإبداعية؟ راتبه عندما يكبر؟ وأي أهمية يجب أن توضع لكل من هذه المدخلات العديدة التي تؤثر في نتيجة الطفل: جيناته، بيئته العائلية، مستوى الاقتصاد الاجتماعي، المدرسة، التميز، الحظ، المرض، وهكذا؟

ومن أجل المناقشة، لندرس قصة طفلين: أحدهما أبيض والآخر أسود.

نشأ الطفل الأبيض في ضاحية من ضواحي شيكاغو بين، والدين يقرأان بصورة واسعة ويندمجان في الإصلاح المدرسي. فأبوه، وهو صاحب عمل صناعي حسن، غالباً ما يأخذ الطفل في نزهات في الطبيعة سيراً على الأقدام. وأمه ربة بيت تعود أخيراً إلى الكلية وتحصل على درجة إجازة في التربية. والطفل السعيد ينجز إنجازاً جيداً في المدرسة. ويعتقد أساتذته أنه سيكون عبقرياً في الرياضيات من دون شك. ويشجعه والداه وهما فخوران به عندما يرتفع درجة. وله أخ أصغر منه وهو رائع وذكي. وغالباً ما تستضيف العائلة صالوناً أدبياً في بيتهم.

والطفل الأسود ولد في دايتونابيتش في فلوريدا وأمه تخلت عنه عندما كان في الثانية من عمره، ولدى والده عمل جيد في المبيعات لكنه سكير. وغالباً ما يضرب الطفل الصغير بالنهاية المعدنية لخرطوم الحديقة. وذات مساء عندما كان الطفل في الحادية عشرة من عمره كان يزين سطح طاولة لشجرة عيد الميلاد ـ وهي أول شجرة ميلاد في حياته ـ بدأ والده يضرب صديقته في المطبخ. وضربها ضرباً مبرحاً حتى طارت بعض أسنانها من فمها وسقطت على قاعدة شجرة الميلاد للطفل، لكن الطفل كان يعرف أفضل مما يتكلم. وفي المدرسة لم يبذل أي جهد. ولم يمضِ وقت طويل، حتى راح يسرق المخدرات ويهاجم سكان الضواحي من الخلف، وهو يحمل مسدساً. وكان يبذل جهداً ليكون نائماً عندما يصل أبوه إلى البيت بعد معاقرة الخمر، ويخرج من البيت قبل أن

يستيقظ أبوه. وفي آخر الأمر أدخل الأب إلى السجن بسبب اعتداء جنسي. وعندما كان عمره اثنتي عشرة سنة كان الطفل يناضل بصورة أساسية من أجل نفسه.

ليس عليك أن تعتقد بالوالدية الموسوسة لتعتقد أن الطفل الثاني لم يتحمل فرصة وأن الطفل الأول قد حققها. ما هي الشواذ التي ستجعل، بعد إضافة معوقات التمييز العرقي، من الطفل الثاني يعيش حياة منتجة؟ وماهي الشواذ التي ستجعل الطفل الأول الرشيق والمؤهل للنجاح يفشل بطريقة ما؟ وإلى أي قدر من قدر كل من الطفلين سيغرس ذلك إلى والديه؟

ويستطيع المرء أن ينظر دائماً بما يجعل الوالد كاملاً، ولسببين لن يقوم مؤلفا هذا الكتاب بذلك. والسبب الأول هو أنه لا يعترف أي منا بأنه خبير الوالدية (مع أننا فيما بيننا لدينا ستة أولاد تحت سن الخامسة). والسبب الثاني أننا أقل اقتناعاً بنظرية الوالدية مما تقوله المعطيات.

ليس من السهل قياس بعض أوجه نتائج الطفل بالمعطيات الشخصية مثلاً أو الإبداع، لكن الأداء المدرسي سهل قياسه. وحيث إن معظم الآباء يوافقون بأن التعليم يكون في جوهر تشكيل الطفل؛ وقد يكون من المعقول البدء بفحص مجموعة أخبار حول المعطيات المدرسية.

وتتعلق هذه المعطيات في اختيار المدرسة، قضية يشعر معظم الناس بقوة في اتجاه واحد أو اتجاه آخر. فالمعتقدون حقاً باختيار المدرسة يناقشون بأنه بستة دولارات يشترون حق إرسال أطفالهم إلى أفضل مدرسة ممكنة. ويعلق النقاد بأنهم باختيار المدرسة سيتركون خلفهم أسوأ الطلاب في أسوأ المدارس، ولا يزال كل الآباء يعتقدون بأن ابنهم سيزدهر لو أنه استطاع الذهاب إلى المدرسة الصحيحة، وهو الطفل ذو المزيج المناسب من الجامعة والمناهج الإضافية والود والأمان.

وجاء اختيار المدرسة باكراً إلى نظام المدرسة العامة في شيكاغو. وذلك لأن المدارس العامة في شيكاغو، مثل المدارس المدنية المحلية، فيها عدد من طلاب

الأقلية غير متناسب. وعلى الرغم من قرار المحكمة العليا في الولايات المتحدة في سنة 1954 في براون ومكتب التربية في توبيكا، الذي قرر أن على المدارس أن تلغي التمييز العرقي، فإن كثيراً من الطلاب السود في المدارس العامة بشيكاغو استمروا في المجيء إلى المدارس، إذ كانوا جميعاً من السود تقريباً. ولذا في سنة 1980 تجمعت وزارة العدل في الولايات المتحدة ومكتب التربية في شيكاغو؛ ليحاولوا التوحيد بصورة أفضل لمدارس المدينة. وأصدر أمر بأن الداخلين في السنة الأولى يستطيعون تقديم الطلب إلى أي مدرسة ثانوية في المنطقة أخيراً.

فإلى جانب عمرها الطويل، هناك بضعة أسباب تجعل برنامج اختيار المدرسة من المدارس العامة في شيكاغو جيداً، وهي أسباب جيدة للدراسة، وتعرض مجموعة معطيات ضخمة ـ كانت شيكاغو هي ثالث أكبر مدينة في البلاد، بعد نيويورك ولوس أنجلوس ـ إضافة إلى عدد كبير من الخيارات (أكثر من ستين مدرسة ثانوية) والمرونة. ومعدلات الاستيعاب العالية جداً، فنصف طلاب المدارس الثانوية في شيكاغو يختارون مدارس منطقتهم. ولكن معظم النواحي التصادفية في برنامج المدارس الثانوية في شيكاغو ـ من أجل الدراسة، على الأقل ـ هي كيف تجري لعبة اختيار المدرسة.

وكما هو متوقع، فإن فتح أبواب المدارس عريضة أمام كل طالب في السنة الأولى في شيكاغو يهدد بخلق مستشفى للمجانين، حيث الصخب والضجيج. والمدارس التي درجات الاختبارات فيها عالية وكذلك معدلات التخرج سوف تصاب بهياج المشتركين، وتجعل من المستحيل إرضاء طلب كل طالب.

وضماناً لمصلحة العدالة، لجأت مدارس شيكاغو العامة إلى القرعة. وبالنسبة للباحث هذه نعمة كبيرة. وقد لا يتمكن عالم السلوك من تصميم تجربة أفضل في مخبره، وتماماً كما يفعل العالم في تحديد فأر تحديداً عشوائياً من مجموعة للمعالجة وفأر آخر ليكون الشاهد من المجموعة، فقد فعلت مدارس شيكاغو الشيء نفسه. تخيل طالبين متماثلين من الناحية الإحصائية يريد كل منهما أن

يذهب إلى مدرسة جديدة وأفضل. وبسبب طريقة قفزات الكرة في الحوض، يذهب أحدهما إلى مدرسة جديدة، بينما يبقى الآخر في مدرسته. والآن تخيل مضاعفة أعداد الطلاب بالآلاف، والنتيجة تجربة طبيعية على نطاق كبير. وبالكاد هذا ما كان الهدف في عقول موظفي مدارس شيكاغو الذين تصوروا فكرة القرعة. ولكن عندما ينظر إليها بهذه الطريقة، فإن القرعة تقدم وسيلة رائعة من وسائل قياس كيفية اختيار المدرسة ـ أو بالواقع أفضل مدرسة ـ المهم حقاً.

إذن، ماذا تكشف المعطيات؟

لن يكون الجواب مقنعاً للوالدين المهووسين: في هذه الحالة، لايهم اختيار المدرسة مطلقاً. صحيح أن طلاب شيكاغو الذين دخلوا قرعة أن اختيار المدرسة كان من المحتمل أن يتخرجوا أكثر من الطلاب الذين لم يدخلوا ـ وهذا يشير إلى أن اختيار المدرسة يوجد الفرق ـ لكن هذا ضرب من الوهم. والبرهان هو هذه المقارنة: فالطلاب الذين فازوا بالقرعة وذهبوا إلى مدرسة «أفضل» لم يكن أداؤهم أفضل من الطلاب الذين فشلوا بالقرعة ولازموا مدارسهم. وهذا يعني، أن الطالب الذي اختار من بين عدد من المدارس المحلية ذو احتمال أكبر لأن يتخرج، سواء فاز بفرصة الذهاب إلى مدرسة جديدة أم لم يفز. وما يبدو أنه فائدة تم اكتسابها بالذهاب إلى المدرسة الجديدة لا يتعلق بالمدرسة الجديدة مطلقاً. وما يعنيه هذا أن الطلاب ـ والأولياء ـ الذين اختاروا يميلون لأن يكونوا أذكى وذوي دوافع علمية أكثر هذا كبداية. ولكن من الناحية الإحصائية لم يفوزوا بمزايا علمية عن طريق تغيير المدارس.

وهل صحيح أن الطلاب الذين بقوا في مدارسهم المحلية كانوا يعانون؟ لا: فقد تابعوا الاختبار في المستويات نفسها تقريباً، كما كانوا قبل حصول نزيف الأدمغة المفترض.

ولكن كان يوجد مجموعة من الطلاب في شيكاغو يرون تغيراً دراميا: أولئك الذين دخلوا مدرسة فنية أو مهنية علمية. كان أداء هؤلاء الطلاب أفضل كثيراً

مما فعلوه في أوضاعهم العلميـة القديمة وتخـرجوا بمعدلات أعلى كثيراً تنبـأ به أداؤهم الماضـي. وهكذا فـقـد سـاعـد برنامج مـدارس شيكاغـو العـامـة لاخـتيـار المدارس في إعـداد عـينة صـغـيـرة مـن الطلاب الذين يناضلون مـن أجل أعـمـال مهمة، وذلك عن طـريق إعطائهم مهـارات عمليـة. ولكن يبدو أن ذلك لم يجـعل أي طالب أكثر ذكاء.

هل يمكن أن يكون اختيار المدارس لا يهم بالفعل؟ مـا من ولي لطالب يحترم نفسه سـواء أكان مـهووسـاً أم لا مـسـتـعـد لتصـديق ذلك، ولكن مهـلاً: قـد يكون ذلك لأن مـدارس شيكاغـو العـامـة تقيس طلاب الثـانويـة؛ ويمكن عندها أن يكون الطـالب قد أعد فعلاً. لاحظ ريتشارد في ميلز مؤخراً، وهو المسؤول التعليمي في ولاية نيويورك «أنه توجـد أعـداد كبـيـرة من الطـلاب الذين يصلون إلـى المدرسـة الثـانوية وهم غـيـر مـستعدين للقيـام بأعـمـال المدرسـة الثانوية، وتوجـد أعـداد كبـيـرة من الطلاب الذين يصلون إلى المدارس الثـانوية وهـم يقـرؤون ويكتبـون ويحلون الرياضـيـات من المسـتوى الابتدائي. ينبغي علينا أن نصحح المشكلة في المراحل الأولية».

وبالفـعل، لقـد أيدت الدراسـات الأكـاديميـة قلق مـيلز. فـعند فـحص الفـجـوة بدخول البـالغين الـبيض والسـود ـ من الثابت أن السـود يحققون درجات أقل كثيراً ـ ووجـد العلمـاء أن الفـجـوة سـتـقـتلع بالنهـاية إذا أخـذت درجـات الصف الثـامن المتدنيـة للسود بعين الاعـتبار. بعبارة أخرى، إن فـجوة الدخول بين البـيض والسود هي من نتاج الفجـوة التعليمية بين البـيض والسـود التي يمكن مـلاحظتهـا قبل عدد من السنين. كتب أحد مؤلفي إحدى الدراسـات: «إن خفض الفجوة ما بين درجات اختـبـار البيض والسـود سيـؤدي إلـى مزيد من عـدم المسـاواة العـرقية أكثـر من أي إستراتيجية تطالب بدعم سياسـي واسع».

إذن، فمن أين تأتي فجوة اختبارات البيض والسود؟ لقد قدمت نظريات كثيرة على مـدى سنين: مـثل الفـقـر والتـركيب الجـيني وظاهـرة «التـأخـر في الصـيف» (يعتقـد أن الطلاب السـود يخسـرون من الأسس أكثـر مما يفقـده الطلاب البيض

عندمـا تكون هنـاك عطلة مـدرسـيـة) والـتـحـيـز العـرقي فـي الاخـتـبـارات أو في مـفاهيم الأسـاتذة وردة فعل السـود على «البـيض الـنـاشطين».

في صـحـيـفـة تدعى «اقـتـصـاد الناشطين البـيض»، كـتب الشـاب الأسـود الاقتصادي من هارفارد، وولاند جي فراير الابن: إن بعض الطلاب السود «لديهم امتيـازات هـائلة ليستـثـمروها في السلوك خـاصـة (أي، التعليم والبـاليه... إلخ) وذلك بسبب حقيقة أنهم سيعتبرون شخصاً يحاول التصرف مثل شخص أبيض (خيـانة للسـود) مثل هذه التـسـمية في بعض المناطق يمكن أن تستوجب عقوبة تتـراوح من اعتـبـار الشـخص منبـوذاً اجتمـاعـياً إلى تعـرضه للضـرب أو القـتل». ويضع فـراير ذكرياته عن شـاب اسمه كريم عبد الجبار أو المعـروف عندئذ باسم ليـو ألسندرو الذي دخل الصف الـرابع في مـدرسـة جـديدة واكـتـشف أنه أفـضل قـارئ حـتى من طلاب الصف الـسـابع: «عندمـا وجـده الأولاد خـارجـاً، أصبـحـت هدفاً.. وكانت المرة الأولى في حياتي التي أبعد فيها عن البيت. وأول خبـرتي في وضع كله مع السـود. وجـدت نفسي أتلقى عـقـوبة على كل شيء تعلمـتـه، وكـان صـحـيـحـاً لقد حـصلت على الدرجـة (آ) في كل المواد وكـرهوني لذلك. وتكلمت بشكل صحيح فسموني بالتافه. وكان علي أن أتعلم لغة جديدة لأتعامل مع هذه التـهـديدات كـان سلوكي جيـداً وكنت ولداً صـغـيـراً ومـهـذباً ودفـعت ثمن ذلك باختبائي».

وفراير أيضاً أحد مؤلفي «فهم فجوة درجات الاختبار بين البيض والسود في السنتين الأوليين في المدرسة». تستفيد هذه الورقة من استعادة معطيات حكومية تساعد بصورة موثوقة في معالجة الفجوة مابين السود والبيض. وربما من المهم أكثر أن المعطيات تقوم بعمل جيد، إذ تجيب عن السؤال الذي يريد الآباء ـ بيض وسود وآخرون ـ أن يسألوه: ما هي العوامل التي تؤثر، ولا تؤثر في أداء الطفل في المدرسة؟

في أواخر التسعينيات وضعت وزارة التربية في الولايات المتحدة مشروعاً عملاقاً أسمته دراسة طولية للطفولة المبكرة (ECLS). سعت هذه الدراسة إلى

قياس التقدم المدرسي لأكثر من عشرين ألف طالب من الحضانة إلى الصف الخامس. وتم اختيار الطلاب من جميع أنحاء البلاد؛ ليمثلوا مقطعاً صحيحاً لأطفال المدارس الأمريكية.

قاست الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) الأداء المدرسي للطلاب وجمعت معلومات المسح النمطي حول كل طفل: عرقه جنسه، وتركيبه العائلي، ووضعه الاجتماعي الاقتصادي، ومستوى تعليم والديه... إلخ. ولكن الدراسة ذهبت إلى أبعد من هذه الأساسيات، وضمت أيضاً مقابلات مع أولياء الطلاب (وأساتذتهم والإداريين)، ووضعت قائمة طويلة من الأسئلة أكثر حميمية من تلك الأسئلة التي توجد في المقابلات الحكومية النمطية؛ إن كان الأولياء يضربون أطفالهم، وكم مرة؛ وإن كانوا يأخذونهم إلى المكتبات أو المتاحف؛ وماهي المدة التي يشاهدون فيها التلفاز.

والنتيجة مجموعة غنية من المعطيات لاتصدق، وإن طرحت الأسئلة الصحيحة منها، تعطيك بعض القصص المدهشة.

كيف يمكن جعل هذا النوع من المعطيات يقص قصة يعتمد عليها؟ بإخضاعها إلى اللعبة المفضلة لدى الاقتصاديين: التحليل الانحداري، ليس التحليل الانحداري شكلاً منسياً من أشكال المعالجة النفسية. إنه أداة قوية ـ إذا كانت محدودةً ـ وتستخدم الأساليب الإحصائية لتحديد الارتباطات التي لولا ذلك لكانت ارتباطات وهمية.

الترابط ليس أكثر من عبارة إحصائية تبين عندما يتحرك متغيران معاً. يميل الطقس في الخارج إلى البرودة عندما يتساقط الثلج؛ فهذان العاملان مترابطان إيجابياً. بينما تترابط الشمس والمطر بصورة سلبية. وهذا سهل مادام هناك متغيران فقط. ولكن حينما يكون هناك مئتا متغير، تكون الأمور أصعب. والتحليل الانحداري هو الأداة التي تمكن الاقتصادي ليقوم بتصنيف هذه الكومة الضخمة من المعطيات.

ويقوم بذلك عن طريق وضع تثبيت صناعي لكل متغير ما عدا متغيرين يرغب في التركيز عليهما، ومن ثم يري كيف يتغير هذان الاثنان معاً.

في عالم كامل، يستطيع الاقتصادي إجراء تجربة مضبوطة تماماً كما يفعل الفيزيائي أو البيولوجي: وذلك بأن يضع عينتين، ويستخدم إحداهما عشوائياً ويقيس النتيجة. لكن الاقتصادي نادراً ما يتوافر له هذا الرفاه من التجريب الصافي. (ولذلك كانت قرعة اختيار المدرسة في شيكاغو حادثة سعيدة). فما لدى الاقتصادي بصورة عادية هو مجموعة معطيات مع كثير من المتغيرات، وليس بينهم أي متغير يتولد عشوائياً، فبعضها مرتبط وبعضها الآخر غير مرتبط.

في حالة معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS)، قد يساعد أن نفكر بتحليل الانحدار ونحن نؤدي المهمة الآتية: تحويل كل من أولئك الأطفال البالغ عددهم عشرون ألفاً إلى نوع من لوحة الدارة ذات عدد مماثل من المفاتيح. يمثل كل مفتاح صنفاً واحداً من المعطيات حول الطفل: نتيجة بالرياضيات في الصف الأول، ونتيجة بالرياضيات في الصف الثالث، ونتيجته بالقراءة في الصف الأول، ونتيجته بالقراءة في الصف الثالث، ومستوى تعليم أمه، ودخل والده، وعدد الكتب في بيته ومستوى الرفاه النسبي في منطقته، وهكذا.

الآن يتمكن الباحث من أن يلح في بعض النظرات الثاقبة من مجموعة المعطيات المعقدة هذه. يستطيع أن يصف جميع الطلاب الذين يشتركون في خصائص كثيرة ـ جميع لوحات الدارات التي لها مفاتيح تتجه في الاتجاه نفسه ـ ومن ثم ينتقي سمة واحدة لايشتركون بها. وهكذا يستطيع عزل التأثير الحقيقي لذلك المفتاح المفرد على لوحة الدارة المنتشرة. وهذه هي الطريقة التي يؤثر بواسطتها ذلك المفتاح ـ وأخيراً جميع المفاتيح ـ تصبح مكشوفة.

لنقل: إننا نريد أن نسأل معطيات الدراسة للطفولة المبكرة (ECLS) سؤالاً أساسياً. حول الوالدية والتعليم: هل كثرة الكتب في بيتك تجعل طفلك يتقدم في المدرسة؟ لا يستطيع تحليل الانحدار أن يجيب عن هذا السؤال تماماً، لكنه

يستطيع الإجابة عن سؤال مختلف اختلافاً ذكياً: هل يتجه الطفل الذي يوجد في بيته كتب كثيرة إلى أن يؤدي أداء أفضل من الطالب الذي لا كتب لديه؟ هذا الاختلاف بين السؤال الأول والثاني هو اختلاف بين السببية (في السؤال 1) والارتباط (في السؤال 2).

يستطيع التحليل الانحداري أن يكشف عن الارتباط، لكنه لا يبرهن على السببية. وبعد كل هذا، هناك بضع طرق تستطيع فيها المتغيرات أن تترابط. تستطيع «س» أن تسبب «ع»؛ ويستطيع «ع» أن يسبب «س»؛ أو يمكن أن يسبب عامل آخر كلاً من «س» و «ع». فتحليل الانحدار وحده لايستطيع أن يقول: إن كانت الطبيعة تثلج لأن الطقس بارد، أو أن يقول: إن الطقس بارد؛ لأنها تثلج، أو إن الاثنين يُصادف أنهما يسيران معاً.

إن معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) تظهر مثلاً بأن الطفل الذي لديه كتب كثيرة في بيته يميل لأن يكون اختباره أعلى من الطفل الذي ليس لديه كتب. إذن؛ هذان العاملان مترابطان، وهذا شيء جيد لنعرفه. لكن نتائج الاختبار الأعلى ترتبط بعدد آخر من العوامل الأخرى أيضاً. فإذا قمت بقياس الأطفال الذين لديهم كتب كثيرة لمقارنتهم بالأطفال الذين ليس لديهم كتب، فقد يكون الجواب ذا معنى مهم جداً، فربما يشير عدد الكتب في بيت الطفل إلى مقدار المال الذي يكسبه والداه. وما نريد عمله بالفعل هو أن نقيس الطفلين المتشابهين من جميع الأحوال ماعدا حالة واحدة ـ وهنا هي عدد الكتب في بيته ـ ونرى إن كان ذلك العامل وحده يحدث فرقاً في أدائه المدرسي.

يجب القول: إن التحليل الانحداري هو فن أكثر مما هو علم. (وفي هذا الخصوص، فيه كمية كثيرة مشتركة مع الوالدية نفسها). لكن الممارس الماهر يستطيع استخدامه؛ ليقول كم يكون الترابط ذا معنى، وقد يقول حتى إن كان الترابط يستطيع بيان العلاقة السببية.

إذن ما الذي يقوله تحليل معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة في الأداء المدرسي للطلاب؟ عدد من الأشياء. الشيء الأول يهتم بفجوة نتائج اختبار السود والبيض.

لقد لوحظ منذ زمن طويل أن الأطفال السود، حتى قبل أن تطأ أقدامهم عتبة الصف، يكون أداؤهم دون أمثالهم من البيض. وأكثر من ذلك، إن الأطفال السود لا يقاسون، حتى عندما يضبطهم صف عريض من المتغيرات.(لضبط متغير ينبغي أساساً إلغاء تأثيره، تماماً مثل لاعب الغولف الذي يستخدم معوقاً ضد آخر، وفي حالة الدراسة الأكاديمية كما في الدراسة حول الطفولة المبكرة، قد يضبط باحث أي عدد من المساوئ التي يحملها طالب واحد عندما يقاس مقابل الطالب الوسطي. لكن هذه المجموعة الجديدة من المعطيات تخبرنا قصة مختلفة، فبعد ضبط عدد قليل من المتغيرات ـ بما في ذلك مستوى الدخل والتعليم لوالدي الطفل وعمر أمه عند ولادة الطفل الأول ـ فإن الفجوة بين الأطفال السود والبيض تلغى في النهاية في الوقت الذي يدخل فيه الأطفال إلى المدرسة.

هنا اكتشاف مشجع من ناحيتين. ويعني أن الأطفال السود الصغار استمروا في تحقيق مكاسب تناسب أمثالهم من البيض، كما تعني أنه مهما بقيت الفجوة يمكن ربطها بمجموعة من العوامل المحددة فوراً، تكشف المعطيات أن الأطفال السود الذين يكون أداؤهم ضعيفاً في المدرسة يفعلون ذلك لا لأنهم سود ولكن لأنهم يتجهون إلى المجيء من بيوت ذات مستوى دخل منخفض ومستوى تعليم منخفض. ولكن الطفل الأسود العادي والطفل الأبيض اللذين ينتميان إلى الأساس الاجتماعي والاقتصادي ذاته لهما القدرات ذاتها في الرياضيات والقراءة عند دخول مدرسة الروضة.

خبر جيد، أليس كذلك؟ ولكن لاداعي للعجلة. أولاً وقبل كل شيء لأن الطفل الأسود العادي أكثر احتمالاً لأن يأتي من بيت ذي مستوى دخل متدني ومستوى

تعليم متدني أيضاً، فإن الفجوة حقيقية: ففي المعدل لايزال الأطفال السود يحققون علامات أدنى. وأسوأ حتى لو كان دخل الوالدين وتعليمهما مضبوطين، فإن الفجوة بين البيض والسود تعود للظهور خلال سنتين من دخول الطفل إلى المدرسة. وبنهاية الصف الأول يصبح أداء الطفل الأسود أدنى من الطفل الأبيض المساوي له إحصائياً. وتبدأ الفجوة في الاتساع بشكل مستمر خلال السنتين الثانية والثالثة.

لماذا يحدث هذا؟ هذا سؤال صعب ومعقد. لكن جواباً واحداً قد يكمن في الحقيقة أن المدرسة التي يداوم فيها الطفل الأسود العادي ليست المدرسة ذاتها التي يداوم فيها الطفل الأبيض العادي، والطفل الأسود يذهب إلى المدرسة التي هي ببساطة.. مدرسة سيئة.

وحتى بعد خمسين سنة على براون وبورد، كانت المدارس الأمريكية قد عادت إلى الفصل العنصري أخيراً. وقامت الدراسة حول الطفولة المبكرة بإجراء مسح لما يقرب من ألف مدرسة. وذلك بأخذ عينات تتألف من عشرين طفلاً من كل مدرسة. في 35٪ من تلك المدارس، لم يكن بينهم طفل أسود واحد في العينات. فالطفل الأبيض العادي في دراسة (ECLS) يحضر في مدرسة فيها 6٪ فقط من السود: وفي الوقت نفسه يحضر الطفل الأسود العادي مدرسة فيها نسبة 60٪ من السود.

ولكن إلى أي مدى كانت مدارس السود سيئة؟ وليس بالطرق التي تقاس بها المدارس بصورة تقليدية، وهذا مهم. وأما من حيث حجم الصف، وتعليم الأساتذة، ونسبة الحاسب إلى الطالب، فإن المدارس التي يذهب إليها السود والبيض هي متشابهة. ولكن مدرسة الطالب الأسود الطبيعي ذات معدل عال جداً للمؤشرات ذات الإشكال، مثلما هي مشكلات العصابة. ولا تسكع للطلاب أمام المدرسة، ونقص تمويل (PTA هيئة الآباء و المعلمين) لاتقدم هذه المدارس بيئة محققة للتعليم بكل بساطة.

إن الطلاب السود ليسوا وحدهم من يعانون من المدراس السيئة. والأطفال البيض في هذه المدارس يؤدون بشكل سيء، وبالواقع، هناك لاتوجد فجوة بين نتائج البيض والسود بصورة رئيسة في مدرسة سيئة في السنوات الأولى عندما تضبط بيئات الطلاب. لكن جميع الطلاب في المدرسة السيئة، سواء البيض أم السود؛ يفقدون أساساً للطلاب في المدارس الجيدة. وربما أخطأ المربون والباحثون لتوقفهم عند فجوة درجات البيض والسود؛ فربما تكون الفجوة ما بين المدرسة السيئة والمدرسة الجيدة هي القضية البارزة. فكر بهذه الحقيقة: إن معطيات الدراسة حول مدارس الطفولة تكشف أن الطلاب السود في مدارس جيدة لا يفقدون أساساً لصالح زملائهم البيض، وأن أداء الطلاب السود في مدارس جيدة يفوق أداء الطلاب البيض في المدارس السيئة.

لذا، فبحسب هذه المعطيات، يبدو أن مدرسة الطفل لها التأثير نفسه في التقدم العلمي. هل يمكن قول الشيء ذاته بالنسبة للوالدية؟ هل كل هذه الأشرطة لبيبي موزارت تعوض؟ وماذا عن قرارات الماراثون طابت ليلتك أيها القمر؟ هل الانتقال إلى الضواحي يستحق ذلك؟ هل يقوم الآباء PTA بأفضل من الأطفال الذين لم يسمع آباؤهم عن جلسات الآباء والمعلمين؟

يقدم المدى الواسع لمعطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) عدداً من الترابطات المقنعة بين الظروف الشخصية للطفل وأدائه المدرسي. فعلى سبيل المثال عند ضبط العوامل الأخرى جميعاً، يتضح أن الطلاب من المناطق الريفية يكون أداؤهم أدنى من الأداء الوسطي. بينما يكون أداء الطلاب من الضواحي، ممثلاً في منتصف الخط البياني، بينما يتجه طلاب المدن إلى تسجيل علامات أعلى من المعدل. (قد يكون السبب أن المدن تجتذب إليها القوى العاملة الأكثر تعليماً، ولذلك يكون الآباء مع أطفالهم الأذكى).

وبشكل عام، يكون اختبار البنات بعلامات أعلى من الذكور، واختبار الطلاب الآسيويين بعلامات أعلى من الطلاب البيض، ومع أن الطلاب السود، كما بينا

من قبل، تكون اختباراتهم مماثلة لاختبارات الأطفال البيض الذين ينتمون إلى بيئة مماثلة وفي مدارس متماثلة.

وبعد أن عرفنا ما عرفناه الآن عن التحليل الانحداري، والحكمة التقليدية وفن الوالدية، فكر الآن في القائمة الآتية والمؤلفة من ستة عشر عاملاً. وبحسب معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) فإن ثمانية عوامل منها تظهر علاقة ترابط قوية ـ إيجابية أم سلبية ـ مع علامات الاختبار. والعوامل الثمانية الأخرى يبدو أنها لاتؤثر. حاول أن تخمن أياً منها يؤثر وأياً منها لايؤثر.

ـ يتمتع والدا الطفل بتعليم جيد.

ـ عائلة الطفل سوية.

ـ يتمتع والدا الطفل بمركز اجتماعي واقتصادي عالٍ.

ـ انتقل والدا الطفل إلى منطقة أفضل مؤخراً.

ـ كان عمر الأم ثلاثين عاماً أو أكثر عندما وضعت طفلها الأول.

ـ لم تعمل أم الطفل في مدة ما بين الولادة وذهابه إلى مدرسة الحضانة.

ـ كان وزن الطفل عند الولادة منخفضاً.

ـ داوم الطفل على المدرسة المبكرة (قبل سن المدرسة).

ـ يتكلم والدا الطفل الإنكليزية بالبيت.

ـ والدا الطفل يأخذانه إلى المتحف بصورة منتظمة.

ـ الطفل متبنى.

ـ يصفع الطفل بصورة منتظمة.

ـ والدا الطفل منضمان إلى هيئة الآباء والمعلمين.

ـ غالباً ما يشاهد الطفل التلفاز.

- في بيت الطفل كتب كثيرة.

- يقرأ والدا الطفل له كل يوم تقريباً.

وهنا الآن العوامل الثمانية التي تظهر علاقة ترابط قوية مع نتائج الاختبار:

- يتمتع والدا الطفل بتعليم جيد.

- يتمتع والدا الطفل بمركز اجتماعي واقتصادي عال.

- كان عمر الأم ثلاثين عاماً أو أكثر عندما وضعت طفلها الأول .

- كان وزن الطفل عند الولادة منخفضاً.

- يتكلم والدا الطفل الإنكليزية بالبيت.

- الطفل متبنى.

- والدا الطفل منضمان إلى هيئة الآباء والمعلمين.

- في بيت الطفل كتب كثيرة.

العوامل الثمانية التي لا تؤثر:

- عائلة الطفل سوية .

- انتقل والدا الطفل إلى منطقة أفضل مؤخراً.

- لم تعمل أم الطفل في مدة ما بين الولادة وذهابه إلى مدرسة الحضانة.

- داوم الطفل على المدرسة المبكرة.

- والدا الطفل يأخذانه إلى المتحف بصورة منتظمة.

- يصفع الطفل بصورة منتظمة.

- غالباً ما يشاهد الطفل التلفاز.

- يقرأ والدا الطفل له كل يوم تقريباً.

والآن لنأخذ كل عاملين معاً:

العامل المؤثر: يتمتع والدا الطفل بتعليم عالٍ.

العامل غير المؤثر: عائلة الطفل سوية.

إن الطفل الذي يتمتع والده بتعليم عالٍ يكون أداؤه المدرسي جيداً بصورة عامة: وهذا لايدهش أحداً. فالعائلة ذات الدراسة الكثيرة تتجه إلى تقييم الدراسة. وربما كان الأكثر أهمية إذا كان الوالدان من ذوي معدل الذكاء العالي، فيميلان لتحقيق مزيد من التعليم، ومعدل الذكاء أمر وراثي بقوة. ولكن حيث تكون عائلة الطفل عائلة سوية لايبدو أن هذا يؤثر. وكما تظهر الدراسات المذكورة سابقاً، فإن تركيب العائلة له تأثير بسيط في شخصية الطفل، ولكنه لايؤثر في القدرات التعليمية أيضاً.

وهذا لا يعني أن العائلة ينبغي أن تعول على الانفصال شاءت أم أبت. ولكن يجب أن تقدم التشجيع إلى ما يقرب من عشرين مليون من الأطفال الأمريكيين الذين نشؤوا في كنف والد واحد.

العامل المؤثر: يتمتع والدا الطفل بوضع اجتماعي واقتصادي جيد.

العامل غير المؤثر: انتقل والدا الطفل إلى منطقة أفضل مؤخراً.

يرتبط الوضع الاجتماعي والاقتصادي ارتباطاً قوياً مع تحقيق درجات أعلى بالامتحان، ويبدو هذا الأمر معقولاً. فالوضع الاجتماعي والاقتصادي مؤشر قوي على النجاح بصورة عامة - ويشير إلى معدل ذكاء أعلى وإلى تعليم أكثر - والوالدان الناجحان أكثر احتمالاً لأن يكون لديهما أطفال ناجحون. ولكن الانتقال إلى منطقة أفضل لايحسن فرص الطفل في المدرسة. قد يكون الانتقال بحد ذاته قوة قطع، وهذا احتمال أكبر؛ وذلك لأن البيت الأجمل لايحسن نتائج الرياضيات أو القراءة أكثر مما يحسن الحذاء الرياضي الجيد القفز العالي ليصبح أعلى.

العامل المؤثر: كان عمر الأم ثلاثين سنة أو أكثر عندما وضعت طفلها الأول.

العامل غير المؤثر: لم تعمل الأم في مدة ما بين وضع الطفل وذهابه إلى مدرسة الحضانة.

يحتمل أن ترى الأم، التي لم تنجب طفلها الأول حتى بلغت الثلاثين سنة على الأقل، طفلها يحقق تقدماً في المدرسة، فتميل الأم لأن ترغب في الحصول على تعليم متقدم أو أن تطور قوتها في مهنتها. ويحتمل أيضاً أنها تريد طفلاً أكثر مما تريده الأم المراهقة لطفلها. ولا يعني هذا أن الأم الأكبر عندما أصبحت أماً لأول مرة هي بالضرورة أم أفضل، لكنها وضعت نفسها- وأطفالها - في وضع أكثر خطراً. (وتجدر ملاحظة أن هذه الفائدة لاتوجد لدى الأم المراهقة التي تنتظر حتى تبلغ الثلاثين لتضع ولدها الثاني. تبين معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة ECLS أن الطفل الثاني لن يؤدي بشكل أفضل من طفلها الأول). وفي الوقت ذاته، نجد أن الأم التي تبقى في البيت وتترك عملها حتى يذهب طفلها إلى مدرسة الحضانة لايقدم ذلك أي فائدة. وقد يجد الآباء الموسوسون عدم وجود الترابط هذا أمراً مزعجاً، فما هو الهدف من كل تلك الصفوف التي فيها الأم وأنا؟ ولكن هذا ما أظهرته الدراسة.

العامل المؤثر: وزن الطفل منخفض عند الولادة.

العامل غير المؤثر: الطفل كان في المدرسة المبكرة.

يميل الطفل ذو الوزن المنخفض لأن يكون أداؤه سيئاً في المدرسة.

وقد تكون تلك الولادة قبل النضج مؤذية لصحته العامة. وقد يكون ذلك الوزن المنخفض مؤشراً على والدية سيئة؛ لأن الأم التي تدخن أو تشرب أو تقوم بغير ذلك تسيء معاملة جنينها في رحمها، ليس من المحتمل أن تقلب الأشياء لمجرد أنها وضعت وليدها. وانخفاض وزن الوليد بدوره أكثر احتمالاً لأن يكون الطفل مسكيناً ـ ولذلك فهو أكثر احتمالاً لأن يدخل المدرسة المبكرة، وهو برنامج اتحادي حكومي (قبل المدرسة)، ولكن بحسب معطيات الدراسة حول الطفولة

المبكرة، إن المدرسة المبكرة لا تفعل شيئاً لنتائج اختبارات الطفل في المستقبل، وعلى الرغم من التقدير الكبير والعميق للمدرسة المبكرة، (أحد مؤلفي هذا الكتاب كان طالباً رائداً فيها)، يجب أن نقر بأنها أثبتت مراراً أنها غير مجدية. وهذا سبب محتمل: فبدلاً من تمضية اليوم مع أمه المشغولة وذات التعليم المتدني، يمضي الطفل يومه في المدرسة المبكرة مع أم أخرى ذات تعليم متدنٍ ومشغولة جداً. (وغرفة مليئة بأطفال مماثلين من ذوي الحاجات). وكما يحدث، فإن أقل من 30٪ من معلمي المدرسة المبكرة لديهم درجة جامعية, وأجر هذا العمل بائس جداً ـ ما يقرب من 21000 دولار لمعلم المدرسة المبكرة مقابل 40000 دولار لمعلم دور الحضانة قبل المدرسة العامة ـ وهذا من غير المحتمل أن يجذب معلمين أفضل في أي وقت سريعاً.

العامل المؤثر: يتحدث والدا الطفل الإنكليزية في البيت.

العامل غير المؤثر: يأخذ الوالدان طفلهما إلى المتحف بانتظام.

يكون أداء الطفل الذي يتحدث والداه الإنكليزية أفضل من أداء الأطفال الذين لايتحدث آباؤهم الإنكليزية. ومرة أخرى، إن هذا غير مدهش أبداً. إن هذا الترابط مدعوم من أداء الطلاب الإسبان في الدراسة حول الطفولة المبكرة. وبصفتهم مجموعة، فإن اختبارات الطلاب الإسبان اختبارات رديئة؛ ويحتمل ألا يكون لديهم آباء يتكلمون الإنكليزية. (لكنهم يميلون إلى اللحاق بزملائهم في الصفوف المتأخرة) إذن ماذا بشأن الحالة المضادة: ماذا لو كانت الأم والأب غير محترفين بالإنكليزية، لكنهم يمضون عطلات نهاية الأسبوع يهتمون بآفاق القفل الثقافية، وذلك بأخذه إلى المتاحف؟ آسف، قد يكون حشو الثقافة اعتقاداً تقليدياً للآباء الموسوسين، لكن الدراسة حول الطفولة المبكرة لاتظهر أي علاقة ترابط ما بين زيارة المتاحف وعلامات الاختبارات.

العامل المؤثر: الطفل متبنى.

العامل غير المؤثر: غالباً ما يصفع الطفل.

توجد علاقة ترابط قوية ـ علاقة سلبية ـ بين التبني ودرجات اختبارات المدرسة. لماذا؟ أظهرت الدراسات أن القدرات العلمية للطفل تتأثر كثيراً بمعدل الذكاء للوالدين الطبيعيين أكثر من تأثرها بمعدل ذكاء الآباء الذين يتبنون الطفل، وتميل الأمهات اللواتي يسلمن أطفالهن للتبني لأن يكون معدل ذكائهن منخفضاً جداً وأكثر الناس الذين يقومون بالتبني. ويوجد تفسير آخر للتحصيل المنخفض لدى الأطفال بالتبني، وهذا على الرغم من أنه قد يبدو لا معنى له، إلا أن الانحرافات في النظرية الاقتصادية الأساسية ذات الاهتمام الشخصي تظهر أن المرأة التي تعرف أنها ستعطي طفلها للتبني قد لاتتخذ الرعاية الأبوية ذاتها كامرأة تحتفظ بوليدها. (فكر بمخاطر زيادة التفكير المكروه، كيف تعامل السيارة التي تملكها مقابل السيارة التي تستأجرها لتمضية عطلة نهاية الأسبوع). ولكن إن كان الطفل المتبنى يميل لتحصيل علامات اختبار منخفضة، فإن الطفل الذي يصفع لايميل إلى ذلك، قد يبدو هذان الأمران مدهشين ـ ليس لأن الصفع نفسه عامل مقرر وضروري ولكن لأن الصفع، بصورة عامة يعتبر ممارسة غير تنويرية. ولذلك يمكن أن نفترض أن الوالدين اللذين يصفعان هما غير متنورين بطرق أخرى. ربما لايكون الأمر هكذا في كل الحالات. أو ربما هناك قصة مختلفة للصفع ينبغي قصها. تذكر، إن مسح الدراسة المتعلقة بالمدارس المبكرة ضمت مقابلات مباشرة مع آباء الأطفال. لذا كان على الوالد أن يجلس وركبتاه تقابلان ركبتي الباحث الحكومي وأن يعترف بصفعه لطفله. وهذا يشير إلى أن الأب الذي يفعل ذلك إما أنه غير متنور أو ـ وهذا مثير للاهتمام أكثر ـ مخلص فطرياً. وقد تكون الأمانة أكثر أهمية بالنسبة للوالدية الجيدة من أن الصفع هو والدية سيئة.

ـ العامل المؤثر: الآباء منضمون لمجالس المعلمين والآباء.

ـ العامل غير المؤثر: غالباً ما يشاهد الطفل التلفاز.

إن الطفل الذي ينضم أهله إلى مجالس المعلمين والآباء يميل لأن يؤدي أداءً جيداً في المدرسة، وهذا ربما يشير إلى أن الوالدين ذوي العلاقة الجيدة بالتربية ينضمون إلى هذه المجالس، وليس لأن انضمامهم هذا يجعل أطفالهم أذكياء بطريقة ما. لا تظهر الدراسة حول مدارس الطفولة المبكرة أي علاقة بين علامات اختباراته والوقت الذي يشاهد فيه التلفاز، رغم ما تقوله الحكمة التقليدية بأن مشاهدة التلفاز لا تحول مخ الطفل ظاهرياً إلى غربال.

(في فنلندا التي يوضع نظامها التعليمي في مقدمة أنظمة العالم المتقدمة، لا يبدأ معظم الأطفال المدرسة حتى سن السابعة ولكنهم غالباً ما يتعلمون القراءة وحدهم وذلك بمشاهدة التلفاز الأمريكي والترجمة إلى الفنلندية) ولكن، ولا يحولهم استخدام الكمبيوتر في البيت إلى آينشتاين: تظهر معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة أنه لا توجد علاقة ترابط بين استخدام الكمبيوتر وعلامات اختبارات المدرسة.

والآن إلى آخر عاملين:

- العامل المؤثر: توجد كتب كثيرة في بيت الطفل.

- العامل غير المؤثر: يقرأ الأبوان له كل يوم تقريباً.

كما لوحظ من قبل، تبين أن الطفل الذي في بيته كتب كثيرة تكون اختبارات دراسته جيدة. ولكن القراءة للطفل بانتظام لا تؤثر في علامات اختباراته.

قد يبدو هذا الأمر تقديماً لأحجية. تقفز بنا إلى الوراء إلى سؤالنا الأصلي:

فقط إلى أي مدى وبأي طرق يكون الوالدان مهمين فعلاً؟

لنبدأ بالعلاقة الإيجابية: الكتب في البيت تساوي نتائج اختبارات عالية. إن معظم الناس ينظرون إلى هذا الترابط ويستنتجون علاقة سببية ونتيجة واضحة. لنفكر: طفل صغير اسمه إيسايا في بيته كتب كثيرة؛ ويؤدي هذا الطفل اختباراً بالقراءة أداءً جميلاً ؛ ولابد أن أمه أو أباه يقرأان له بصورة منتظمة. لكن صديقة

الطفل إيميلي، التي في بيتها كتب كثيرة، ولكنها عملياً لم تلمسها. فهي تفضل أن تلبس لعبتها برانز أو تشاهد أفلام الكرتون. وكانت اختباراتها جيدة مثل اختبارات إيسايا. لكن صديقهما ريكي ليس في بيته أي كتاب. لكنه يذهب إلى المكتبة كل يوم مع أمه؛ إن ريكي بارع في القراءة. لكن اختباراته كانت أسوأ من اختبارات إيميلي و إيسايا.

ماذا تستنتج من هذا؟ إذا كانت قراءة الكتب لا تأثير لها في علامات اختبارات الطفولة المبكرة، فهل يمكن أن يجعل مجرد وجود الكتب في البيت الأطفال أكثر ذكاء؟ هل تقوم الكتب بعمل انتقال سحري في مخ الطفل؟ وإذا كان هذا صحيحاً، يشعر المرء بإغراء لأن يقدم حمولة سيارة من الكتب إلى كل بيت فيه طفل دون سن المدرسة.

وهذا بالضبط حاول فعله محافظ إيلينويز. ففي أول عام 2004 أعلن الحاكم رود بلاغويفيتش خطة لإرسال كتاب واحد شهرياً إلى كل طفل في إيلينويز من يوم ولادته حتى يدخل المدرسة الحضانة. تكلف هذه الخطة 26 مليون دولار سنوياً، لكن بلاغويفيتش يناقش بأن هذا تدخل حيوي في الولاية، حيث 40٪ من طلاب الصف الثالث يقرؤون بمستوى منخفض. «عندما تملك كتباً وهي لك»، يقال: «وتأتي لك كجزء من حياتك، فإن كل ذلك سيسهم في فهم أن الكتب يجب أن تكون جزءاً من حياتك».

فكل الأولاد الذين ولدوا في إيلينويز ـ جملة ما أخذوه ستون كتاباً فهل يعني هذا أنه عندما يحين دخولهم إلى المدرسة. هل سيؤدون بصورة أفضل في اختبارات القراءة؟

من المحتمل أن يكون الجواب: كلا. (ومع أننا لا نعلم بصورة أكيدة، ففي النهاية رفض المشرع في إيلينويز خطة الكتب) وبعد كل شيء، لا تقول معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة: إن الكتب في البيت تسبب درجات اختبارات أعلى؟ بل إنها تقول: إن الاثنين مترابطان فقط.

كيف يمكن تفسير علاقة الترابط هذه؟ إليكم نظرية محتملة:

في البداية إن الآباء الذين يشترون كتباً كثيرة للأطفال هم من الأذكياء والمتعلمين جيداً. (وينقلون ذكاءهم وعملهم الأخلاقي إلى أولادهم). أو ربما يهتمون كثيراً بالتعليم وبأطفالهم عموماً. (وهذا يعني أنهم يخلقون بيئة تشجع التعليم وتكافئه) مثل هؤلاء الآباء قد يعتقدون بحماس يشبه اعتقاد حاكم إيلينويز بأن كل كتاب يمتلكه الطفل سيكون بمثابة السحر الذي يؤدي إلى ذكاء غير مصطنع. ولكن يحتمل أنهم مخطئون. فالكتاب سبب صغير يسبب الذكاء بل أصغر من كونه مؤشراً.

إذن ماذا يقول كل ذلك عن أهمية الوالدين بصورة عامة؟ فكر مرة أخرى بالعوامل الثمانية التي تترابط مع عوامل الدراسة حول الطفولة المبكرة، وعلامات اختبارات المدرسة:

- والدا الطفل متعلمان تعليماً جيداً.
- لوالدي الطفل وضع اجتماعي واقتصادي جيد.
- كانت الوالدة في الثلاثين من عمرها أو أكبر عندما وضعت وليدها الأول.
- كان وزن الطفل عند الولادة منخفضاً.
- يتحدث الوالدان الإنكليزية في البيت.
- الطفل متبنى.
- والدا الطفل مشاركان في مجلس المعلمين والآباء.
- في بيت الطفل كتب كثيرة.

والعوامل غير المؤثرة هي:

- عائلة الطفل سوية.
- انتقل والدا الطفل مؤخراً إلى منطقة أفضل.

ـ لم تعمل أم الطفل في مدة ما بعد الولادة حتى ذهابه إلى مدرسة الحضانة.

ـ داوم الطفل على المدرسة المبكرة.

ـ والدا الطفل يأخذانه إلى المتاحف بصورة منتظمة.

ـ يعاقب الطفل بالصفع بصورة منتظمة.

ـ يقرأ والدا الطفل له كل يوم تقريباً.

ولنبالغ بالتعميم قليلاً، تصف القائمة الأولى الأشياء التي يتصف بها الوالدان؛ وتصف القائمة الثانية الأشياء التي يقوم بها الوالدان. فالوالدان المتعلمان جداً الناجحون وصحيحو الأبدان يميلون لأن يكون لديهم الأطفال الذين يقدمون امتحانات جيدة في المدرسة؛ ولكن لايبدو أنه أمر مهم فيما إذا كان الطفل قد ذهب إلى المتاحف أو صفع أو أرسل إلى المدرسة المبكرة أو إذا كانوا يقرؤون له أو ينام أمام التلفاز.

بالنسبة للوالدين ـ وخبراء الوالدية ـ الموسوسين بأساليب تخلف طفلهم، قد يكون هذا خبراً معتدلاً. فالواقع هو أن الأسلوب يبدو أنه ذو معدل مسبوق كثيراً.

ولكن هذا لا يعني أن الآباء غير مهمين. ببساطة إنهم يؤثرون كثيراً. وإليكم المشكلة:

في الوقت الذي يقوم معظم الناس بالتقاط كتاب حول الوالدية، يكون قد فات الأوان. فعظم الأشياء التي تؤثر كانت قد تقررت منذ زمن طويل ـ من أنت؟ من تزوجت؟ ما هو شكل الحياة التي تحياها؟ إن كنت ذكياً، ومجداً فسيحتمل أن يكون أطفالك ناجحين. (ولا يؤلم، في كل الاحتمالات، أن تكون أميناً وعميق التفكير "وتحترم الآخرين" ومحباً وقلقاً حول العالم).

ولكن ليس ذلك قضية كبيرة عما تفعله بصفتك أباً؛ إن الأمر يتجلى بفكرة من أنت. بهذا الخصوص إن الوالد المستبد يشبه المرشح السياسي كثيراً الذي يعتقد

أن المال يكسب الانتخابات، بينما في الحقيقة، نجد أن جميع مال العالم لا يمكن أن يجعل المرشح ينتخب إذا كان الناخبون لا يحبون أن يبدؤوا معه.

في صحيفة «الطبيعة وتغذية النتائج الاقتصادية»، يقول الاقتصادي بروس ساسيردوت معالجاً نقاش الطبيعة والتنشئة بأنه اتخذ نظرة كمية على مدى طويل للنتائج الوالدية، واستعمل ثلاث دراسات حول التبني: اثنتان أمريكيتان وواحدة بريطانية، تحتوي كل منها معطيات عميقة حول أطفال التبني، والآباء الذين تبنوهم وآبائهم الطبيعيين. فوجد ساسيردوت أن الآباء الذين يتبنون الأطفال هم في العادة أذكى وأكثر تعليماً ويحظون بأجور أعلى من الآباء الطبيعيين للأطفال. لكن مزايا الوالدين الذين يتبنون الأطفال ذات تأثير قليل في أداء الأطفال في المدرسة، وكما شوهد في معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة، تكون اختبارات الأطفال المتبنين أضعف نسبياً في المدرسة؛ فأي تأثير يمارسه الآباء الذين يتبنون يبدو أنه قد أعطي أكبر من وزنه وذلك بسبب قوة الجينات الوراثية. ولكن. ساسيردوت وجد، أن الآباء لم يكونوا بدون قوة إلى الأبد.

ففي الوقت الذي أصبح فيه الأطفال المتبنون راشدين، فقد يغير الاتجاه بصورة حادة من المصير الذي قد تنبأ به معدل الذكاء وحده. وبالمقارنة مع أطفال مماثلين ممن لم يقدموا إلى التبني، فإن الأطفال المتبنين كانوا أكثر احتمالا لأن يذهبوا إلى الكلية، ولأن يحصلوا على عمل بأجر جيد، ولأن ينتظروا حتى يتخلصوا من مراهقتهم قبل أن يتزوجوا. كان تأثير الآباء الذين تبنوهم، وهكذا استنتج ساسيردوت، وهو أوجد الفرق.

يعتقد ليفيت أنه يوجد شيء بورقة جديدة حول أسماء السود. ويريد أن يعرف إن كان أي شخص يحمل اسماً أسود قد عانى من عقوبات اقتصادية. وكان جوابه ـ مخالفاً لبحث حديث آخر ـ كلا. ولكن لديه الآن سؤال أكبر: هل الثقافة العرقية هي سبب عدم المساواة العرقية أم هي نتيجة لها؟ بالنسبة للاقتصادي، وحتى بالنسبة إلى ليفيت، لاتزال هذه المنطقة جديدة ويسميها «الثقافة الكمية». ويراها، كمهمة شائكة وفوضوية، وربما كانت مستحيلة وتغيظ جداً.

مجلة النيويورك تايمز، 3 آب 2003

الوالدية الكاملة، القسم 2 أو هل تبقى رائحة الروشاندا حلوة إذا كانت بأسماء أخرى؟

تود الوالدة، سواء أكانت موسوسة أم لا، أن تعتقد أنها تحقق التميز في الشخص الذي سيكون طفلها. و إلا فلمَ العذاب؟

يظهر الاعتقاد في القوة الوالدية في أول عمل رسمي يقوم به الوالد: وهو إعطاء الوليد اسماً. وكما يعرف أي والد عصري، إن صناعة تسمية الأطفال تزدهر كما يثبت من الكتب المنشورة ومواقع الإنترنت ومستشاري تسمية الأطفال. ويبدو أن الآباء والأمهات يعتقدون أن الطفل لا يستطيع أن يزدهر إلا إذا ارتبط بالاسم الصحيح؛ فينظر إلى الأسماء على أنها تحمل قوىً جمالية عظيمة، بل إنها تحمل نبوءات.

قد يفسر هذا لماذا قرر رجل من مدينة نيويورك اسمه روبرت لين سنة 1958 أن يسمي وليده «فائز». وكانت عائلة لين تسكن في مشروع سكني في حي هارلم قد أنجبت بضعة أطفال، وكان كل منهم يحمل اسماً عادياً. ما عدا هذا الولد، حسناً، كان لدى روبرت لين شعور خاص حياله. «فائز لين»، كيف يمكن أن يخسر، وهو يحمل هذا الاسم؟

وبعد ثلاث سنوات رزقت عائلة لين بولد، وهو السابع والأخير. ولأسباب لم يستطع أحد أن يعرفها حتى اليوم، قرر روبيرت أن يسمي هذا الولد «خاسر Loser». ولم يكن روبيرت تعيساً بسبب ولده الجديد؛ ولكنه بدا وكأنه أراد أن يخرج من تأثير كتاب الأسماء. فكان الأول «فائز»، والأخير «خاسر». ولكن إذا استطعنا أن نتوقع فشل الولد، فهل يمكن أن ينجح «خاسر»؟

وبالفعل، فقد نجح «خاسر». وذهب إلى المدرسة الإعدادية بواسطة منحة، وتخرج في كلية لافاييت في بنسلفانيا، والتحق بإدارة شرطة نيويورك (وكان هذا

حلم أمه منذ زمن طويل)، حيث أصبح شرطياً سرياً و أخيراً أصبح رقيباً. و مع أنه لم يقم بإخفاء اسمه، و لم يكن كثيرون مرتاحين باستعماله. ويقول اليوم: «إن لي عدداً من الأسماء ينادونني بها من جيمي إلى جيمس، وإلى أي اسم يحبون أن ينادوني به. ولكنهم نادراً ما ينادونني باسم «خاسر». وبين الحين والآخر يقول: «إنهم يحرفون الاسم قليلاً بلكنة فرنسية. وبالنسبة لزملائه من أفراد الشرطة، فكانوا يعرفونه باسم «لو».

وماذا عن أخيه واسمه لايمكن أن يصيبه خطأ؟ إن أعظم إنجاز يمكن أن نلاحظه هو أن «ناجح» في منتصف الأربعينيات من العمر، ولديه سجل إجرام طويل: ما يقرب من عشرات الاعتقالات بسبب السطو والعنف المنزلي والاعتداء على أملاك الآخرين ومقاومة الاعتقال وجرائم أخرى.

وفي هذه الأيام لايكاد «خاسر» و«فائز» يتكلمان. والوالد الذي سمّاهما لم يعد على قيد الحياة. ومن الواضح أنه كانت لديه الفكرة الصحيحة ـ بأن الاسم قدر ومصير ـ ولكن كان يجب أن يخلط هذين الولدين معاً.

وبعد ذلك هناك القضية الحديثة ـ قضية تمبتريس، غاوية، «فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، جعلتها أعمالها السيئة تنزل في محكمة الأسرة في مقاطعة آلباني في نيويورك. وكان القاضي دينيس دوغان قد سجل ملاحظات عن الأسماء الغريبة التي يحملها بعض المجرمين و الجانحين. أحد المراهقين واسمه آمشر قد سمي باسم أول شيء شاهده والداه عند وصولهما إلى المستشفى: إشارة غرفة طوارئ مستشفى المركز الطبي في آلباني. لكن دوغان اعتبر «تمبتريس، غاوية» أكثر الأسماء التي صادفها شجاعة.

وتذكر القاضي فيما بعد، وقال «لقد أرسلتها إلى غرفة المحكمة؛ حتى أتمكن من التحدث إلى والدتها حول تسميتها لابنتها «تمبتريس». وقالت: إنها كانت تشاهد مسلسل «كروسبي شو» وأعجبتها الممثلة الشابة. وأخبرتها أن اسم الممثلة بالفعل غينيست بليندسو. وقالت: إنها عرفت ذلك فيما بعد، وأنهم كانوا يخطئون

في كتابة الاسم. وسألتها إن كانت تعرف معنى الاسم «تمبتريس»، و قالت: إنها اكتشفت ذلك بعد وقت متأخر. واتهمت ابنتها بسلوك غير مسيطر عليه، وهذا يشمل إحضار رجال إلى البيت بينما تكون الأم في عملها خارج البيت. وسألت الأم: إن كانت تظن أن ابنتها تعيش بعيداً عن اسمها. ولم تفهم معظم ذلك.

هل كانت «تمبتريس» تعيش اسمها بالفعل كما رآها القاضي دوغان؟ أم أنها كانت ستتعثر بالمشكلات، وإن كانت سمّتها أمها «عفة ـ طهر»؟.

ليس من التوسع أن نفترض أن (تمبتريس) لم يكن لديها والدان مثاليان. فلم تكن أمها راغبة بتسميتها (تيمبتريس) بالمكان الأول فقط، لكنها لم تتمتع بالذكاء الكافي لتعرف معنى الكلمة. وليس ذلك مدهشاً جداً، في مستوى معين، بأن الولد الذي سمي آمشر سيصل إلى محكمة الأسرة في نهاية المطاف. فالناس الذين لايزعجهم إعطاء الاسم لابنهم قد يكونون أفضل الآباء أيضاً.

إذن، هل الاسم الذي تعطيه لابنك يؤثر في حياته؟ أم إنها حياتك التي تنعكس في اسمه؟ في أي حالة من الحالتين، ما هي الإشارة التي يرسلها اسم الطفل إلى العالم، ومن المهم أكثر من ذلك، هل يؤثر فعلاً؟

وكما تصادف، فإن «فائز وخاسر وتمبتريس وآمشر» جميعاً من العرق الأسود. هل هذه الحقيقة مجرد فضول، أم إن فيها شيئاً أكبر لتقوله حول الأسماء والثقافة؟

يبدو أن كل جيل يقدم بضعة أكاديميين مميزين يجعلون التفكير بثقافة العرق الأسود يتقدم إلى الأمام. وقد يكون رونالد ج. فراير الابن، وهو اقتصادي شاب قد حلل ظاهرة «الناشط الأبيض» كما حلل الفجوة بين علامات اختبارات السود والبيض، من بين المميزين الذين سيأتون. لقد كان ارتقاؤه غير محتمل. كان في المدرسة الثانوية طالباً لامبالياً ومن عائلة غير مستقرة. التحق بجامعة تكساس في آرلنغتون عن طريق منحة رياضية. وحدث معه شيئان في الكلية: أدرك سريعاً أنه لن يصل إلى اتحاد كرة القدم. ولا إلى اتحاد كرة السلة؛ فاهتم بدراساته

بصورة جدية لأول مرة في حياته، و عرف أنه أحبها جميعاً. وبعد التخرج عمل في جامعة بن ستيت وجامعة شيكاغو، وجرى تعيينه أستاذاً في هارفارد عندما كان في الخامسة والعشرين من العمر. وثبتت شهرته الكبيرة على اعتبار أنه مفكر صريح في مشكلة العرقية بصورة سريعة جداً.

كانت مهمة فراير أن يدرس تخلف إنجاز السود، فيقول: «يستطيع المرء أن يقرأ كل الإحصائيات حول أن السود لايفلحون. ونستطيع أن ننظر إلى الفروق بين السود والبيض من حيث الولادات خارج نطاق الحياة الزوجية، أو وفيات الأطفال أو الأعمار المتوقعة. والسود هم أسوأ المجموعات العرقية من حيث أداؤهم في الاختبارات المدرسية. ويكسب السود أقل مما يكسب البيض. ولايزالون لا يفلحون في أعمالهم، نقطة، انتهى. إنني أريد بالأساس أن أشخص أين يخطىء السود، وأريد أن أكرس حياتي لهذا».

بالإضافة إلى التفاوت الاقتصادي والاجتماعي بين السود والبيض، أثار الفصل الثقافي الأخير حب الاطلاع لديه. فيشاهد السود والبيض برامج تلفازية مختلفة. (إن برنامج كرة القدم مساء يوم الإثنين هو البرنامج الوحيد الذي يظهر في قائمة البرامج العشرة الأولى التي تراها المجموعتان؛ ولايظهر مسلسل سينفيلد، وهو من أشهر المسلسلات الكوميدية، في قائمة الخمسين برنامجاً التي يفضلها السود). وهم يدخنون سجائر مختلفة (تتمتع نيو بورتس بخمس وسبعين بالمئة من حصة السوق بين المراهقين السود، ويقابل ذلك 12٪ بين البيض؛ فيدخن المراهقون البيض سجائر المالبورو بصورة رئيسة). ويسمي الآباء السود أبناءهم أسماء تختلف تماماً عن أسماء الأطفال البيض.

وراح فراير يتساءل: هل الثقافة المميزة للبيض هي سبب التفاوت الاقتصادي بين السود والبيض، أم إنها انعكاس لهذا التفاوت.

وكما في الدراسة حول الطفولة المبكرة، راح فراير يبحث عن إجابة بين أكوام من المعطيات: تشمل معلومات شهادة الميلاد لكل طفل مولود في كاليفورنيا منذ

سنة 1961، ومعطيات عن أكثر من ستة عشر مليوناً من الولادات بما فيها الفقرات المعتادة مثل الاسم والجنس والعرق والوزن عند الولادة والوضع العائلي للوالدين إضافة إلى مزيد من العوامل التي تذكر عن الوالدين: مثل الرمز البريدي (الذي يشير إلى الوضع الاجتماعي والاقتصادي وإلى التركيب العرقي في المنطقة) ووسيلة دفع فاتورة المستشفى (وهذا مؤشر اقتصادي أيضاً)، ومستوى تعليمهما.

تظهر معطيات كاليفورنيا مدى التفاوت ما بين الآباء السود والآباء البيض في كيفية تسمية أطفالهم. فبينما يسمي الأمريكيون البيض والآسيويون أطفالهم أسماء متشابهة بشكل كبير، يلاحظ تفاوت ما بين الآباء الأمريكيين البيض والإسبانيين، لكنه تفاوت بسيط إذا ما قورن بالتفاوت مابين الآباء السود والبيض.

وتظهر البيانات أيضاً أن الفجوة بين السود والبيض ظاهرة حديثة. فحتى سنوات السبعينيات، كان هناك تطابق بين أسماء السود والبيض. فكانت المولودة في منطقة للسود في سنة 1976 تعطى اسماً شائعاً في المنطقة السوداء ضعف ما كان شائعاً بين البيض. وفي سنة 1980، كانت المولودة تعطى اسماً شائعاً بين السود بأكثر من عشرين مرة. (واتجهت أسماء الأولاد الذكور في الاتجاه نفسه، ولكن بشكل أقل قوة ـ وربما كان ذلك لأن الآباء من جميع الأعراق هم أقل مغامرة بأسماء الأولاد الذكور من المغامرة بأسماء الإناث). فبالنظر إلى مكان وزمان هذا التغيير ـ في المناطق المدنية الكثيفة، حيث تتجمع قوى الناشطين من الأمريكيين الأفارقة ـ يحتمل أن يكون السبب الأقوى من غيره من الأسباب. لهذا التفجر بالأسماء السود المميزة هو حركة (القوة السوداء) التي كانت تسعى إلى تأكيد الثقافة الإفريقية وإلى مقاتلة الادعاءات بأن السود هم الأدنى. إن كانت ثورة الأسماء هي بالفعل من إيحاء (القوة السوداء)، فإنها ستكون واحدة من أكثر ما تبقى من بقايا هذه الحركة. فالأفارقة اليوم نادرون، وحتى من يلبسون

القميص الخاص بهم أكثر ندرة؛ ومؤسس النمر الأسود، بوني سيل، يعرف اليوم بإدارة مجموعة من منتجات الشواء أكثر من أي شيء آخر.

إن عدداً كبيراً من أسماء السود خاصة بهم اليوم. فأكثر من 40٪ من البنات السوداوات المولودات في كاليفورنيا تلقين أسماء لم تعط إلى واحدة من أصل 100000 مولودة بيضاء في تلك السنة. ومن الملاحظ حتى بدرجة كبيرة أن 30٪ من المولودات السوداوات تعطى اسماً فريداً بين المولودات (سواء أكن بيضاوات أم سوداوات) اللواتي ولدن في تلك السنة. (خلال سنوات التسعينيات أعطي اسم (فريدة/Unique) لمئتين وثمان وعشرين مولودة، وأعطي الاسم نفسه ولكن بكتابة مختلفة (مثل فاريدة، فردة، أو فوردة). بل ويوجد تطابق بين الأسماء السود المشهورة مع أسماء البيض. فمن أصل 626 مولودة أسميت (ديجا Deja) في سنوات التسعينيات كان هناك 591 مولودة سوداء. ومن أصل 454 طفلة سميت (غالية Precious) كان هناك 431 مولودة سوداء؛ ومن أصل 318 مولودة سميت شانسيز، كان هناك 310 مولودة سوداء.

فمن هو هذا الوالد الذي يحتمل أن يسمي طفلته مثل هذه الأسماء المميزة للسود؟ تقدم المعطيات جواباً واضحاً: أم مراهقة غير متزوجة ذات دخل محدود وتعليم متدن ومن منطقة سوداء وهي ذاتها تحمل اسماً مميزاً للسود. وبرأي فراير، إن إعطاء المولودة اسماً مميزاً للسود هو إشارة من الوالدة تدل على التضامن مع المجتمع. فتقول: لو بدأت بتسمية ماديسون، فإنك قد تعتقد، «آه. إنك تريد أن تذهب للعيش على الطرف الآخر من طريق السكة الحديدية، أليس كذلك؟» فإذا كان الطلاب السود الذين يدرسون التفاضل والتكامل والباليه يُعتقد أنهم «ناشطون بيض»، فإن الأمهات اللواتي يسمين فتياتهم شانسيز هن ببساطة «ناشطات سود».

تظهر دراسة كاليفورنيا أن العديد من الآباء البيض يرسلون إشارات بالقوة ذاتها في الاتجاه المعاكس. فيعطى أكثر من 40٪ من الأطفال البيض أسماء هي على الأقل شائعة أكثر من أربع مرات بين البيض. فكر مثلاً بهذه الأسماء:

كونرConnor، وكودي Cody، وإيميلي Emily وآبيغال Abigail. وفي امتداد جديد في السنوات العشر الأخيرة، أعطي كل من هذه الأسماء إلى ما لايقل عن ألفي طفل في كاليفورنيا وأقل من 2٪ منهم من السود.

فما هي أكثر الأسماء (المميزة للبيضاوات)؟

وما هي أكثر الأسماء (المميزة للسوداوات)؟

أول عشرين اسم أعطيت للبنات البيضاوات

1ـ مولي	11ـ جينا
2ـ آمي	12ـ هيثر
3ـ كاير	13ـ كاثرين
4ـ إيميلي	14ـ كاتلين
5ـ كاتي	15ـ كايتلن
6ـ مادلين	16ـ هولي
7ـ كاتلين	17ـ آليسون
8ـ إ يما	18ـ كيتلاين
9ـ آبيغال	19ـ هننا
10ـ كارلي	20ـ كاثراين

أول عشرين اسم أعطيت للفتيات السوداوات

1ـ إماني	11ـ جادا
2ـ إيبوني	12ـ تيرا
3ـ شانيس	13ـ تيارا
4ـ آليا	14ـ كيارا
5ـ بريشاس	15ـ ياسمينة
6ـ نيا	16ـ ياسمين

7ـ ديجا
8ـ دياموند
9ـ آسيا
10ـ آليا
17ـ يازمين
18ـ جاسمين
19ـ آليكسوس
20ـ رافين

أول عشرين اسم أعطيت للذكور البيض

1ـ جيك
2ـ كونور
3ـ ويات
4ـ تانر
5ـ كودي
6ـ داستن
7ـ لوك
8ـ جاك
9ـ سكوت
10ـ لوغان
11ـ كول
12ـ لوكاس
13ـ برادلي
14ـ جكوب
15ـ غاريت
16ـ دلان
17ـ ماكسويل
18ـ هانتر
19ـ بريت
20ـ كولين

أول عشرين اسم أعطيت للذكور السود

1ـ دي شون
2ـ دي آندريه
3ـ ماركيز
4ـ دارنيل
5ـ تيريل
11ـ ديمتريوس
12ـ ريجينالد
13ـ جمال
14ـ موريس
15ـ جالن

6ـ مالك	16ـ داريوس
7ـ تريفون	17ـ خافير
8ـ تايرون	18ـ تيرانس
9ـ ويلي	19ـ آندريه
10ـ دومينيك	20ـ داريل

إذن، كيف يؤثر اسمك إن كان أبيض أم أسود؟ على مر السنين، حاولت سلسلة من «دراسات التدقيق والفحص» أن تقيس كيفية إدراك الناس للأسماء المختلفة. وفي دراسة تدقيق نمطية، أرسل الباحث نسختين متشابهتين (وغير صحيحتين) من سيرة ذاتية، تحمل الواحدة اسماً يستخدمه البيض تقليدياً، وتحمل الأخرى اسم مهاجر أو يبدو أنه من أقلية ما، إلى أرباب عمل محتملين. فحظيت السيرة الذاتية للأبيض على مقابلات عمل أكثر من سواها.

بحسب مثل هذه الدراسات، إذا أرسل دي شون وليامز وجيك وليامز سيرة ذاتية متشابهة إلى رب العمل نفسه، فإن جيك وليامز سيكون صاحب الاحتمال الأكبر لأن يتلقى جواباً. والمضمون هو أن الأسماء التي تبدو أنها لأشخاص من السود تحمل في طياتها عقوبة اقتصادية. إن مثل هذه الدراسات تثير الحفيظة لكنها محدودة جداً؛ لأنها لاتستطيع تفسير لماذا لم يتم الرد على دي شون وليامز. هل تم رفضه لأن رب العمل يميز بين الأعراق، وهو مقتنع بأن دي شون وليامز هو شخص أسود؟ أم هل تم رفضه؛ لأن الاسم دي شون يدل على شخص من عائلة ذات دخل محدود وتعليم متدن؟ إن السيرة الذاتية مجموعة من الأفكار لايعتمد عليها ـ فقد أظهرت دراسة حديثة أن أكثر من 50٪ منها تحتوي على أكاذيب ـ لذا فإن الاسم دي شون قد يكون إشارة إلى خلفية بائسة بالنسبة إلى رب العمل الذي يعتقد أن العمال من بيئة كهذه لايمكن الاعتماد عليهم.

ولاتتنبأ دراسات التدقيق المتعلقة بالسود والبيض بما يمكن أن يحدث في أثناء مقابلة العمل. ماذا لو كان رب العمل من أنصار التمييز العرقي، ولو وافق

على مقابلة شخص أسود صادف أن اسمه يشير إلى شخص أبيض ـ فهل سيكون من المحتمل أن يوظف صاحب الطلب الأسود بعد مقابلته وجهاً لوجه؟ أم ستكون المقابلة مؤلمة ومضيعة للوقت غير مشجعة لصاحب الطلب الأسود ـ أي، أنها عقوبة اقتصادية لأنه يحمل اسماً يدل على أنه أبيض؟ و بهذا المجال، ربما يدفع الشخص الأسود الذي يحمل اسماً يبدو أنه للبيض عقوبة اقتصادية في المجتمع الأسود؛ وماذا عن الفائدة التي يحتمل أن يجنيها في المجتمع الأسود حين يكون اسمه يشير إلى أنه أسود؟ ولكن دراسة التدقيق لاتستطيع قياس النتائج الحقيقية في الحياة من الاسم المفترض دي شون وليامز مقابل جيك وليامز، ولاتستطيع تقييم التأثير الواسع للاسم المميز للشخص الأسود.

ربما ينبغي على دي شون أن يغير اسمه.

يقوم الناس بفعل ذلك دائماً طبعاً. يذكر الكتبة في المحكمة المدنية في نيويورك أن عملية تغيير الأسماء كبيرة ودائمة. وإن بعض التغييرات هي لأغراض جمالية فحسب. فقد غير شخصان مؤخراً، وهما ناتالي جيريمينكو ودالتون كونلي، اسم ابنهما البالغ من العمر أربع سنوات ليصبح (يوخينغ هينو أغسطس إيسنر ألكسندر وإيزر نكلز جيريمينكوكونلي). ويغير بعض الناس الأسماء لأغراض اقتصادية: فبعد إطلاق النار على سائق تكسي في نيويورك اسمه مايكل غولدبيرغ في أوائل سنة 2004، تبين أن السيد غولدبيرغ كان بالحقيقة من طائفة السيخ ومولود في الهند، واعتقد أنه من المفيد أن يتخذ اسماً يهودياً عندما هاجر إلى نيويورك. وقد يكون قرار غولدبيرغ محيراً لبعض الناس في حلقات مهنة الاستعراضات، حيث كان من المشرف في ذلك الحين تغيير الأسماء اليهودية. فهذا ما فعله إيسور دانيلوفيتش فأصبح كيرك دوغلاس؛ وبهذه الطريقة برزت وكالة وليام موريس بسبب اسمها، وكان اسمها السابق زيلمان موسى.

والسؤال هو: هل كان من الممكن أن تحقق زيلمان موسى ما حققته لو أنها لم تصبح بالاسم الجديد، وكالة وليام موريس؟ وهل كان من الممكن أن يحقق دي

شون وليامز أفضل لو أنه أسمى نفسه جيك وليامز أو كونور وليامز؟ من المغري أن نفكر هكذا، تماماً كما أن من المغري أن نفكر بأن حمولة شاحنة من كتب الأطفال ستجعل الأطفال أكثر ذكاءً.

وعلى الرغم من أن دراسات التدقيق والفحص لايمكن استخدامها لقياس مدى أهمية الاسم، فمن الممكن استخدام معطيات دراسة كاليفورنيا.

كيف ذلك؟ لم تشمل دراسة كاليفورنيا إحصائيات حيوية عن كل طفل وحسب، لكنها شملت معلومات حول مستوى تعليم الأم ومستوى الدخل وأكثر من ذلك أهمية تاريخ ميلادها. وهذه الحقيقة الأخيرة جعلت من الممكن تعريف مئات ألوف الأمهات في كاليفورنيا اللواتي ولدن فيها، ومن ثم ربطهن بسجلات ولادتهن. والآن تبرز من هذه المعطيات قصة جديدة و قوية جداً: فمن الممكن متابعة نتيجة حياة أي امرأة بذاتها. وهذه السلسلة من المعطيات هي ما كان يحلم بها الباحثون، وهي جعل تعريف مجموعة من الأطفال الذين ولدوا في ظروف متماثلة أمراً ممكناً، ومن ثم مقارنتهم مرة أخرى بعد عشرين أو ثلاثين سنة لرؤية كيف أصبحوا. ومن بين مئات الألوف من هؤلاء النساء في معطيات كاليفورنيا، كان للعديد منهن أسماء بنات سود، ولم يكن الكثير منهن كذلك. وباستخدام التحليل الانحداري لضبط العوامل الأخرى التي قد تؤثر في مسارات الحياة، ومن ثم كان من الممكن قياس تأثير العامل الواحد ـ وفي هذه الحالة: الاسم الأول للمرأة ـ على نتائجها في التعليم والدخل والصحة.

إذن، هل يؤثر الاسم؟

تبين الدراسة، في المعدل الوسطي، أن الشخص الذي يحمل اسماً مميزاً للسود ـ سواء أكان اسم المرأة أماني أم كان اسم الرجل دي شون ـ تكون نتائج حياته أسوأ مما لو كان اسم المرأة مولي أو كان اسم الرجل جيك. لكن ذلك ليس ذنب أسمائهم. فإن ولد طفلان أسودان (جيك وليامز ودي شون وليامز) في المنطقة نفسها، وفي ظروف عائلية ذاتها، فمن المحتمل أن يعيشا حياة

اقتصادية متماثلة. ولكن إن كان الوالدان اللذان أسميا ابنهما جيك لايعيشان في المنطقة نفسها، ولم يشتركا بالظروف الاقتصادية مع الوالدين اللذين أسميا ولديهما دي شون، فلهذا السبب سيتجه الابن المسمى جيك إلى كسب مال أكثر ويحصل على تعليم أفضل من الابن المسمى دي شون. ومن المحتمل أن يكون دي شون معوقاً أكثر بسبب الدخل المحدود والتعليم المتدني، وبسبب بيئة الوالد الواحد. إن اسمه مؤشر- وليس سبباً ـ على ما وصل إليه. فكما أن الطفل الذي لا توجد كتب في بيته لايحتمل أن يفلح في الامتحانات، فإن طفلاً اسمه دي شون لن يفلح في الحياة.

ماذا لو أن دي شون غير اسمه إلى جيك أو كونور، هل تتحسن أحواله؟ هذا تخمين: إن أي شخص يجتهد ليغير اسمه باسم النجاح الاقتصادي ـ مثل طالب السنة الأولى في ثانوية شيكاغو الذي دخل المدرسة بواسطة القرعة ـ فهو على الأقل ذو دافع قوي، ويحتمل أن يكون الدافع مؤشراً على النجاح أقوى من الاسم.

وتماماً كما أجابت الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) بشأن الوالدية، وذهبت إلى أبعد من الفجوة ما بين السود والبيض، فإن معطيات الأسماء في كاليفورنيا جاءت بقصص كثيرة، بالإضافة إلى تلك القصة حول الأسماء المميزة للسود. تقول المعطيات لنا كيف يرى الآباء أنفسهم، والأكثر أهمية، ماهي توقعاتهم لأطفالهم؟.

ونبدأ بهذا السؤال: من أين يأتي الاسم، على كل حال؟ ليس المقصود المصدر الحقيقي للاسم، فهذا واضح تماماً: فهناك الكتاب المقدس، ومجموعة ضخمة من الأسماء التقليدية الإنكليزية والألمانية والإيطالية والفرنسية، وهناك أسماء الأمراء والأسماء الهيبية، والأسماء الدالة على الحنين إلى الماضي وأسماء الأماكن. وتوجد بصورة متزايدة أسماء الشعارات (مثل ليكسوس، وآرماني، وباكاردي وتمبرلاند) وما يمكن تسميتها بالأسماء الطامحة. وتبين معطيات كاليفورنيا أن ثمانية يحملون اسم هارفارد قد ولدوا في التسعينيات (جميعهم من

السود)، وخمسة عشر يحملون اسم ييلز (جميعهم من البيض)، وثمانية عشر باسم برنستون (جميعهم من السود). لم يكن بينهم أطباء، ولكن كان يوجد ثلاثة محامين (جميعهم من السود)، وتسعة قضاة (ثمانية منهم من البيض)، وثلاثة أعضاء في مجلس الشيوخ، ورئيسان للجمهورية (كلاهما من السود). ومن ثم كان هناك الأسماء المبتكرة. فبينما كان رولاند ج فراير الابن يناقش موضوع اسمه في الإذاعة، تلقى اتصالاً هاتفياً من امرأة سوداء منزعجة من الاسم الذي أعطته لابنة أختها الوليدة. وكان الاسم يلفظ (شوه تيد) ولكنه يكتب بالحقيقة (شيت هيد). أو فكر في الولدين التوءمين (أرانجيلو) و(ليمونجيلو) وهما من السود أيضاً وقد عزز والدهما اختيارهما بالتأكيد على أن لفظهما هو (أ ـ ران ـ جيلو) و (لي ـ مون ـ جيلو).

ولكن كان على هذه الأسماء (أرانجيلو ـ وليمونجيلو ـ وشيت هيد) أن تدرج بين الناس، لكن أسماء أخرى قد درجت فعلاً. فكيف ينتقل الاسم بين الناس، ولماذا؟ هل الأمر مجرد وقت؟ أم أن هناك تفسيراً آخر؟ نعرف جميعاً أن الاسم يرتفع ويهبط ثم يرتفع ـ لاحظ عودة الأسماء (صوفي و ماكس) من الانقراض تقريباً، ولكن هل هناك صيغة لهذه التحركات يمكن وصفها؟

الجواب موجود في معطيات كاليفورنيا، والجواب هو: نعم.

إن من بين أكثر الكشوف أهمية في المعطيات هي علاقة الترابط ما بين اسم الطفل والوضع الاجتماعي والاقتصادي للوالدين. قارن أكثر أسماء الإناث شيوعاً في بيوت البيض من ذوي الدخل المتوسط مع تلك في بيوت البيض من ذوي الدخل المحدود. (هذه القوائم والتي ستتبعها تشمل معطيات من التسعينيات فقط، للتأكيد على عينة واسعة لاتزال موجودة أيضاً).

أكثر أسماء البنات شيوعاً بين البيض في بيوت ذات دخل متوسط

1ـ سارة	2ـ آماندا	3ـ نيكول	4ـ جينيفر
5ـ إميلي	6ـ ميغان	7ـ تايلور	8ـ ألكساندرا

9ـ جيسيكا	10ـ سامانثا	11ـ إليزابيث	12ـ بريتاني
13ـ لورين	14ـ حنا	15ـ كاثرين	16ـ دانيال
17ـ آشلي	18ـ راشيل	19ـ ماديسون	20ـ ريبيكا

أكثر أسماء البنات شيوعاً بين البيض في بيوت ذات دخل محدود

1ـ آشلي	6ـ سارة	11ـ إيبلي	16ـ ستيفاني
2ـ جيسيكا	7ـ كيالا	12ـ نيكول	17ـ جينيفر
3ـ آماندا	8ـ آمبر	13ـ إليزابيث	18ـ حنا
4ـ سامانثا	9ـ ميغان	14ـ هيثر	19ـ كورتني
5ـ بريتاني	10ـ تايلور	15ـ آليا	20ـ ريبيكا

هناك تقارب كبير طبعاً، ولكن تذكر أن هذه أكثر الأسماء شيوعاً من سواها، ففكر بحجم المعطيات. إن الفرق ما بين مراكز التتابع في هذه القوائم قد يمثل بضع مئات من الأطفال، بل وقد يمثل آلاف الأطفال. لذا إن كانت بريتاني هي رقم ٥ في قائمة ذوي الدخل المحدود، ورقم 18 في قائمة ذوي الدخل المتوسط، يمكنك أن تتأكد من أن بريتاني اسم مقرر من ذوي الدخل المحدود. ولعل أمثلة أخرى أكثر وضوحاً. خمسة أسماء من كل قسم لاتظهر أبداً في أول عشرين اسماً من أسماء القسم الآخر. وهنا خمسة أسماء لبنات بيضاوات من مقدمة البيوت من الجانب الأعلى وخمسة من مقدمة البيوت من الجانب الأدنى في ترتيب تباينهم النسبي مع قسم آخر.

أكثر أسماء البنات البيض شيوعاً في البيوت من الجانب الأعلى

1ـ ألكساندرا 2ـ لورين 3ـ كاثرين 4ـ ماديسون 5ـ راشيل

أكثر أسماء البنات البيض شيوعاً في البيوت من الجانب الأدنى

1ـ آمبر 2ـ هيثر 3ـ كيالا 4ـ ستيفاني 5ـ آليسا

وبالنسبة للأطفال الذكور:

أكثر أسماء الأولاد البيض شيوعاً في البيوت من الجانب الأعلى

1ـ بنجامين 2ـ صاموئيل 3ـ جونلثان 4ـ ألكسندر 5ـ آندرو

أكثر أسماء الأولاد البيض شيوعاً في البيوت من الجانب الأدنى

1ـ كودي 2ـ براندون 3 أنطوني 4ـ جوستن 5ـ روبيرت

وباعتبار العلاقة ما بين الدخل والأسماء، وبفرض الحقيقة بأن الدخل والتعليم عاملان مترابطان بصورة قوية، ليس من المدهش أن نجد رابطة قوية مماثلة ما بين مستوى تعليم الآباء والأسماء التي يعطونها لأطفالهم. ومرة أخرى، بعد أن نسحب من أكوام أكثر الأسماء شيوعاً بين الأطفال البيض، نجد أن قمة ما نحصل عليه من الآباء ذوي التعليم العالي مقابل الآباء ذوي التعليم المتدني:

أكثر أسماء البنات البيض شيوعاً للآباء من ذوي التعليم العالي

1ـ كاثرين 2ـ إيما 3ـ ألكساندرا 4ـ جوليا 5ـ راشيل

أكثر أسماء البنات البيض شيوعاً للآباء من ذوي التعليم المتدني

1ـ كيلا 2ـ آمبر 3 هيثر 4ـ بريتاني 5ـ برينى

أكثر أسماء الذكور البيض شيوعاً للآباء من ذوي التعليم العالي

1ـ بنجامين 2ـ صاموئيل 3ـ ألكسندر 4ـ جون 5ـ وليام

أكثر أسماء الذكور البيض شيوعاً للآباء من ذوي التعليم المتدني

1ـ كودي 2ـ ترافيس 3ـ براندون 4ـ جاستن 5ـ تايلور

ويظهر التأثير بصورة أكبر عندما تتسع العينة إلى ما بعد أكثر الأسماء شيوعاً. وبعد أن نسحب من قاعدة بيانات كاليفورنيا الكاملة، يتبين أن هذه الأسماء تعود إلى أقل الآباء البيض تعليماً.

الأسماء العشرون للبنات البيض التي تظهر الآباء الأقل تعليماً

(العدد الوسطي لتعليم الأم بين القوسين)

1ـ إنجل (11.38)
2ـ هيفين (11.46)
3ـ ميستي (11.61)
4ـ ديستني (11.66)
5ـ بريندا (11.71)
6ـ تاباسا (11.81)
7ـ بوبي (11.87)
8ـ براندي (11.89)
9ـ ديستنيي (11.91)
10ـ سندي (11.92)
11ـ ياسمين (11.94)
12ـ شيان (11.96)
13ـ بريتاني (12.05)
14ـ مرسيدس (12.06)
15ـ تيفاني (12.08)
16ـ آشلي (12.11)
17ـ تونيا (12.13)
18ـ كريستال (12.15)
19ـ برانبيي (12.16)
20ـ براند (12.17)

فإن كنت تحملين اسم (سندي أو برندا) أو كانت امرأة أخرى ممن تحبين، تحمل أحد هذه الأسماء وكانت في الأربعين من العمر، وتشعر كما تشعرين بأن هذه الأسماء لم تكن تعني سابقاً أن العائلة ذات تعليم منخفض، فأنتما على حق. فقد تغيرت هذه الأسماء كما تغير غيرها تغيراً كبيراً وسريعاً مؤخراً. إن بعض الأسماء الأخرى للعائلات ذات الدخل المنخفض واضح أن تهجيتها خطأ، سواء عن قصد أم عن غير قصد. إن التهجية الخاطئة للأسماء القياسية ـ مثل تابيثا، شيين ـ تيفاني ـ بريتاني وياسمين ـ تبين أيضاً مستوى التعليم المتدني. ولكن التهجية المختلفة لاسم واحد حتى يمكن أن تكشف تبايناً قوياً.

عشرة أشكال للاسم «ياسمين» مرتبة ترتيباً تصاعدياً

بحسب سنوات تعليم الأم

(متوسط سنوات تعليم الأم بين قوسين)

1- Jazmyne (12.08)	2 - Jazmine (11.94)
4 - Jazzmine (12.16)	3 - Jazzmin (12.14)
6 - Jasmina (12.50)	5 - Jasmyne (12.18)
8 - Jasmine (12.88)	7 - Jazmyn (12.77)
10 - Jasmyn (13.23)	9 - Jasmin (13.12)

وهذه قائمة بأسماء الذكور في عائلات ذات تعليم متدن. وتشمل التهجية الخاطئة الأسماء (مايكل و تايلور)، ولكن الأكثر شيوعاً هو الاسم المصغر على أنه اسم علم.

الأسماء العشرون للذكور البيض،

وتبين هذه القائمة العائلات ذات التعليم المتدني

(التكرار 100 مرة كحد أدنى)

(ومتوسط سنوات تعليم الأم بين قوسين)

1ـ ريكي (11.55)	11ـ تومي (11.89)
2ـ جوي (11.65)	12ـ توني (11.96)
3ـ جيسي (11.66)	13ـ مايكل (11.98)
4ـ جيمي (11.66)	14ـ روني (12.03)
5ـ بيلي (11.69)	15ـ راندي (12.07)
6ـ بوبي (11.74)	16ـ جيري (12.08)
7ـ جوني (11.75)	17ـ تايلور (12.14)
8ـ لاري (11.80)	18ـ تيري (12.15)
9ـ إدغار (11.81)	19ـ داني (12.17)
10ـ ستيف (11.84)	20ـ هارلي (12.22)

والآن بالنسبة للأسماء التي تبين المستوى التعليمي الأعلى للآباء. فليس بين هذه الأسماء أشياء مشتركة من الناحية الإملائية أو الجمالية مع الأسماء من العائلات ذات التعليم المتدني. فأسماء البنات هي في معظم الأحوال مختلفة مع وجود نسبة لا بأس بها من اللمسات الأدبية أو الفنية. وهذا تحذير للآباء الذين يبحثون عن أسماء ذكية: و تذكروا أن مثل هذا الاسم لن يجعل من طفلك ذكياً؛ ولكنه سيعطيه الاسم ذاته مثل الأطفال الأذكياء الآخرين على الأقل لمدة ما. (من أجل قائمة أسماء أطول وأكثر تنوعاً، انظر الصفحة 227).

قائمة الأسماء العشرين للبنات البيض

وتبين بصورة أفضل الآباء ذوي التعليم العالي ❖

(سنوات تعليم الأم بين قوسين)

1- لوسيان	(16.60)	11- روتيم	(16.08)
2- ماري كلير	(16.50)	12- أونا	(16.00)
3- غلينيس	(16.40)	13- آتارا	(16.00)
4- آدير	(16.36)	14- ليندين	(15.94)
5- ميرا	(16.27)	15- ويفرلي	(15.93)
6- بياتريكس	(16.26)	16- زوفيا	(15.88)
7- كلامينتاين	(16.23)	17- باسكال	(15.82)
8- فيليبا	(16.21)	18- إليانور	(15.80)
9- آفيفا	(16.18)	19- إليكا	(15.80)
10- فلانري	(16.10)	20- نيكا	(15.77)

❖ التكرار: 10 كحد أدنى

والآن بالنسبة لأسماء الذكور التي تظهر هذه الأيام في العائلات ذات التعليم العالي. وهذه القائمة مثقلة بصورة خاصة بالتقليدية العبرية والإيرلندية.

الأسماء العشرون للذكور البيض

وتبين بصورة أفضل الآباء ذوي التعليم العالي ❖

(سنوات تعليم الأم بين القوسين)

1ـ دوف (16.50)
2ـ آكيفا (16.42)
3ـ ساندر (16.29)
4ـ يانيك (16.20)
5ـ ساشا (16.18)
6ـ غيلوم (16.17)
7ـ إيلون (16.16)
8ـ آنسيل (16.14)
9ـ يوناه (16.14)
10ـ تور (16.13)
11ـ فينيغان (16.13)
12ـ ملك غريغر (16.10)
13ـ فوريان (15.94)
14ـ زيف (15.92)
15ـ بيكيت (15.91)
16ـ كيا (15.90)
17ـ آشكون (15.84)
18ـ هاربر (15.83)
19ـ سامنر (15.77)
20ـ كالدر (15.75)

❖ التكرار 10 مرات كحد أدنى

إن كان عدد كبير من الأسماء المذكورة أعلاه غير مألوفة لديك، فلا تشعر بأي سوء. فحتى أسماء الأولاد التي كانت على الدوام أكثر ندرة من أسماء البنات تنتشر انتشاراً واسعاً. وهذا يعني أن الأسماء المعروفة اليوم لم تكن مألوفة كما هي الآن. فكر في الأسماء العشرة المألوفة أكثر من غيرها والتي سمي بها الأطفال السود في كاليفورنيا في سنة 1990 ومن ثم في سنة 2000. إن العشرة

الأوائل في سنة 1990 تشمل 3375 مولوداً (أي 18.7٪ من مواليد تلك السنة)، بينما شملت العشرة الأوائل في سنة 2000 فقط 2115 طفلاً (أي 14.6٪ من مواليد تلك السنة).

أشهر أسماء الذكور من السود

(عدد مرات تكرارها بين القوسين)

سنة 1990		سنة 2000	
1ـ مايكل	(532)	1ـ إيسايا	(308)
2ـ كريستوفر	(531)	2ـ جوردان	(267)
3ـ أنطوني	(395)	3ـ إليجا	(262)
4. براندون	(323)	4ـ مايكل	(235)
5ـ جيمس	(303)	5ـ جوشوا	(218)
6ـ جوشوا	(301)	6ـ أنطوني	(208)
7ـ روبرت	(276)	7ـ كريستوفر	(169)
8ـ ديفيد	(243)	8ـ جالين	(159)
9ـ كيفن	(240)	9ـ براندون	(148)
10ـ جاستن	(231)	10ـ جاستن	(141)

في مدة عشر سنوات، أصبح أكثر الأسماء شهرة بين الأطفال السود (تكرر اسم مايكل 532 مرة) أقل شهرة (تكرر اسم إيسايا 308 مرات). وهكذا أصبح الآباء أكثر تنوعاً بالنسبة للأسماء. ولكن هناك تغيراً آخر في هذه القوائم تجدر ملاحظته: المعدل الوسطي متغير بسرعة. لاحظ أن 4 أسماء في قمة أسماء سنة 1990 (جيمس، وروبرت، وديفيد وكيفين) قد هبطت من قمة الأسماء العشرة الأوائل في سنة 2000. ولكن الأسماء التي أعيدت في سنة 2000 لم تكن في أسفل القائمة. وظهرت أسماء جديدة ـ إيسايا، وجوردان، وإيليجا ـ وكانت في

الواقع تحت الرقم 1 و 2 و 3. والمثال الجذري عن السرعة التي يدخل الاسم بالاستعمال ويخرج منها. فكر في الأسماء الشائعة التي أعطيت للبنات البيضاوات في كاليفورنيا في سنة 1990 ومن ثم في سنة 2000.

أشهر أسماء البنات البيض

1990	2000
1ـ سوزان	1ـ إيميلي
2ـ ليزا	2ـ حنا
3ـ كاترين	3ـ ماديسون
4ـ ماري	4ـ سارة
5ـ سينثيا	5ـ سامنثا
6ـ ديبورا	6ـ لورين
7ـ ليندا	7ـ آشلي
8ـ باتريشيا	8ـ إيما
9ـ ديبرا	9ـ تايلور
10ـ ساندرا	10ـ ميغان

لم يبق اسم واحد من سنة 1990 في قائمة الأسماء العشرة الأوائل. ولكنك تقول: إن من الصعب الإبقاء على الشهرة لمدة أربعين سنة. إذن؛ ما قولك بمقارنة الأسماء المشهورة اليوم بالأسماء العشرة الأوائل قبل عشرين سنة فقط؟

أكثر أسماء البنات البيض شهرة

سنة 1980	سنة 2000
1ـ جينيفر	1ـ إيميلي
2ـ سارة	2ـ حنا

3ـ ميليا	3ـ ماديسون
4ـ جيسيكا	4ـ سارة
5ـ كريستينا	5ـ سامنثا
6ـ آماندا	6ـ لورين
7ـ نيكول	7ـ آشلي
8ـ ميشيل	8ـ إيما
9ـ هيثر	9ـ تايلور
10ـ آمبر	10ـ ميغان

لقد بقي اسم واحد فقط. فمن أين أتت أسماء إيميلي وإيما ولورين؟ وبحق السماء، من أين اسم ماديسون؟ من السهل أن ترى أن تلك الأسماء الجديدة أصبحت مشهورة بصورة سريعة ـ ولكن لماذا؟

لنلق نظرة أخرى على قائمتين سابقتين. هنا أشهر الأسماء التي سميت بها المولودات في سنة 1990 بين العائلات ذات الدخل المحدود، والعائلات ذات الدخل المتوسط أو العالي.

أشهر أسماء البنات البيضاوات في قمة قائمة سنوات التسعينيات

1ـ ألكسندرا 2ـ لورين 3ـ كاثرين 4ـ ماديسون 5ـ راشيل

أشهر أسماء البنات البيضاوات في أسفل قائمة سنوات التسعينيات

1ـ آمبر 2ـ هيثر 3ـ كيلا 4ـ ستيفاني 5ـ آليسا

هل لاحظت شيئاً؟ قد ترغب في مقارنة هذه الأسماء مع أشهر أسماء البنات البيضاوات في القائمة في الصفحة 217 التي تشمل الأسماء العشرة الأوائل من كل الأسماء من سنة 1980 حتى سنة 2000. لورين وماديسون من أكثر الأسماء شهرة في قمة قائمة سنوات التسعينيات، وكانتا في قمة العشرة الأوائل لسنة

2000. بينما كان الاسمان آمبر وهيثر من أشهر الأسماء من سنة 1980، وهما الآن بين أسماء أسفل القائمة.

توجد صيغة واحدة عاملة: عندما ينجح اسم بين أصحاب الدخل العالي وذوي التعليم العالي، فإن الاسم يبدأ بشق طريقه على السلم الاجتماعي والاقتصادي نحو الأسفل. فقد بدأ اسم آمبر وهيثر كأسماء في قمة القائمة، وكذلك كان اسم ستيفاني وبريتاني. ومقابل كل مولودة في قمة القائمة تمت تسميتها ستيفاني أو بريتاني تمت تسمية خمس بنات من ذوي الدخل المحدود بهذه الأسماء بعد عشر سنوات.

إذن؛ أين تذهب العائلات التي في أسفل القائمة للبحث عن اسم؟ يعتقد بعضهم أن التسمية إنما يقودها المشهورون. لكن المشهورين بالواقع ذوو تأثير ضعيف في تسمية المواليد. فمنذ سنة 2000 باعت نجمة البوب مادونا 130 مليون أسطوانة في جميع أنحاء العالم، ولكن لم تسبب أكثر من عشر تسميات تقلدها ـ في كاليفورنيا على الأقل ـ وتطلب صنع فهرس رئيس لأسماء أربعة آلاف من البنات لأخذ قائمة أسماء البنات الموجودة على الصفحة 203. أو إذا قمت بدراسة كل هذه الأسماء ـ بريتاني، بريطاني، بيريناني و بريتيز... إلخ التي تواجهها في هذه الأيام، فقد تفكر في بريتاني سبيرز. لكنها بالواقع عرض من الأعراض وليست السبب في تفجر الأسماء بريتاني وبريطاني وبريتانيز... إلخ. ومع طريقة كتابة الاسم الشهيرة، بريتاني الموجود في الرقم 18 بين عائلات الجانب الأعلى، وفي الرقم 5 من بين عائلات الجانب الأسفل، فإنه بالتأكيد يقترب من تاريخ سحبه من الاستعمال. وقبل عقود من الزمن، كانت شيرلي تمثل عرضاً بصورة مماثلة لانتشار اسم شيرلي مع أن الناس يتذكرونها على أنها كانت السبب. (يجب أن نلاحظ أيضاً أن أسماء كثيرة للبنات مثل شيرلي وكارول وليسلي و هيلاري ورينيه وستاسي بدأت أول ما بدأت باعتبارها أسماءً للذكور، ثم أصبحت أسماء للبنات، أما أسماء البنات فلم تنتقل لتصبح أسماء للذكور).

إذن؛ ليس الناس المشهورون هم من يحركون لعبة الأسماء هذه. إنها العائلة التي تسكن قريباً، وذات البيت الكبير والسيارة الحديثة. إنها العائلات التي كانت أول من أطلقت اسم آمبر أو هيثر على بناتها، وتسميهن الآن لورين أو ماديسون. إنها العائلات التي كانت تسمي أبناءها جاستن أو براندون وتسميهم الآن ألكسندر أو بنجامين. لايرغب الآباء في أخذ الاسم من شخص قريب جداً ـ مثل أفراد العائلة أو أصدقاء قريبين ـ لكن عدداً من الآباء يحبون صوت الأسماء التي تبدو «ناجحة» سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه.

ولكن عندما تتبنى العامة اسماً من الجانب الأعلى من القائمة، تخلى عنه آباء الجانب الأعلى من القائمة. وفي النهاية، تعتبر شائعة جداً، بحيث لا يريدها الآباء من الجانب الأسفل من القائمة، فتكون قد سقطت سقوطاً كاملاً. ويبدأ الآباء من الجانب الأدنى من القائمة بالتفتيش عن الاسم الآتي الذي أدخله آباء الجانب الأعلى من القائمة.

وهكذا فالمضمون واضح: يجب ألا يتوقع آباء كل الفتيات اللواتي يحملن أسماء مثل ألكساندرا ولورين و كاثرين وماديسون وراشيل أن تدوم هذه الأسماء مدة أطول. فهذه الأسماء هي بطريقها للاستعمال الكبير. وهنا من أين سيأتي آباء الجانب الأعلى من القائمة بأسماء جديدة؟

قد لايكون من المفاجىء أن تجدها بين أسماء أذكى البنات والأولاد في كاليفورنيا الموجودة على الصفحة 214 و215 والتي لا تزال غير واضحة. ويفترض أن بعضها ـ أوونا وغلينيس وفلوريان وكيا ـ يجب أن يبقى غامضاً. ويمكن تخمين الشيء ذاته بالنسبة للأسماء العبرية (روتيم وزوفيا وأكيفا وزيف)، مع أن الكثير من معظم الأسماء الرئيسة (مثل ديفيد وجوناثان وصاموئيل وبنجامين وراشيل وحنا وسارة وريبيكا) هي طبعاً أسماء عبرية توراتية. وقد يكون اسم آفيف هو الاسم العبري الوحيد الذي يحتمل أن ينتشر: فهو سهل اللفظ وجميل ومفعم بالحيوية ومرن بصورة مناسبة.

وبعد سحب عينة من قاعدتي بيانات توصلنا إلى عينة أسماء من الجانب الأعلى للقائمة. من غير المحتمل أن بعضها، كما يبدو، يمكن أن يكون حتماً من الأسماء الرئيسة في الغد. وقبل أن تسخر، اسأل نفسك هذا السؤال: هل يبدو أي منها أكثر سخفاً مما كان يبدو اسم ماديسون قبل عشر سنوات؟

أشهر أسماء البنات في سنة 2015

آنيكا	آلينور	إيزابيل	مايا
آنسلي	إيلا	كيث	فيليبا
آفا	إيما	لارا	فوبيا
آفري	فيونا	ليندن	كوين
آفيفا	فلاناري	مايف	صوفي
كلامينتاين	غريس	ماري كلير	ويفرلي

أشهر أسماء الذكور في سنة 2015

آيدان	بيكيت	هاربر	ماكسميليان
آلدو	بينيت	جاكسون	ماك غريغور
أندرسون	كارتر	جوهان	ريغان
آنسيل	كوبر	كينون	ساندر
آشير	فينيغان	ليام	سومنر ويل

من الواضح أن هناك مجموعة مختلفة من الدوافع التي تعمل عندما يفكر الوالدان في اسم لطفلتهما. فقد يريدان شيئاً تقليدياً، أو شيئاً بوهيمياً أو شيئاً فريداً أو شيئاً حديثاً تماماً. وقد يكون من المبالغة الإشارة إلى أن جميع الآباء يبحثون ـ سواء بصورة واعية أم غير واعية ـ عن اسم «ذكي» أو عن اسم من «الجانب الأعلى من القائمة». لكنهم جميعاً يحاولون أن يشيروا إلى شيء ما عن طريق الاسم، سواء أكان الاسم «فائز» أم «خاسر»، «ماديسون «أم «آمبر»، «شيت

هيـد» أم «سـاندر»، «ديشـون» أم «جـيك». إن مـا تشـيـر إليـه مـعطيـات أسـمـاء كاليفورنيـا هـو أن عدداً كبيـراً من الآباء يستـخدمون الاسم لـلإشارة إلى توقعـاتهم حـول كيف سيكون أولادهـم. وليس من المحـتمل أن يكون الاسم تمييـزاً سطحيـاً. لكن الآباء يستطيعون على الأقل أن يشعـروا بصورة مفضلة أنهم يبذلون قصارى جهدهم تماماً منذ البداية.



طريقان إلى هارفارد

الآن وبعد أن أصبحت كل هذه الصفحات وراءنا، فقد تأكد وعد مبكر: ليس في هذا الكتاب «موضوع موحد» فعلاً.

ولكن إن لم يكن هناك موضوع موحد للاقتصاد العجيب، فهناك على الأقل خيط مشترك يسير خلال التطبيق اليومي للاقتصاد العجيب. فعليه أن يتعامل مع التفكير المعقول حول الكيفية التي يتصرف بها الناس في العالم الحقيقي. وكل ما يحتاجه هو طريقة جديدة بالنظر والتمييز والقياس. وهذه ليست مهمة صعبة بالضرورة، ولا تتطلب تفكيراً متحذلقاً عالياً. لقد حاولنا بصورة أساسية أن نحسب ما يحسبه عضو العصابة العادي أو مصارع السومو بينه وبين نفسه (من أن علينا أن نفعل ذلك بصورة عكسية).

هل ستحسن القدرة على التفكير بهذا الشكل حياتك مادياً؟ ربما لن تفعل ذلك. وربما أنك ستتحمل وجود بوابة قوية حول حوض السباحة في بيتك، أو تدفع الوسيط العقاري ليقوم بعمل أكثر. ولكن يحتمل أن تكون النتيجة الصافية أكثر ذكاء من ذلك. وقد تصبح أكثر شكاً بالحكمة التقليدية؛ وقد تبدأ البحث عن إشارات تدل على أن الأشياء ليست كما تبدو تماماً؛ وربما ستكتشف بعض المعطيات وتقوم بغربلتها، فتوازن ذكاءك وحدسك للوصول إلى فكرة جديدة براقة. وتدعي أن جعل الإجهاض عملاً قانونياً يسبب هبوطاً كبيراً في الجرائم، فإن ذلك سوف يؤدي بالضرورة إلى تفجير ردود أفعال أخلاقية. لكن حقيقة الأمر هي أن التفكير بأسلوب الاقتصاد العجيب لا يتعامل بالأخلاق. وكما أشرنا عند بداية هذا الكتاب ـ على وجه التقريب ـ إذا كانت الأخلاق تمثل العالم المثالي، فإن الاقتصاد يمثل العالم الحقيقي.

والنتيجة المحتملة بعد قراءة هذا الكتاب هي نتيجة بسيطة: فقد تجد نفسك تسأل أسئلة كثيرة. وكثير من هذه الأسئلة سيؤدي إلى لاشيء. ولكن بعضها سيأتي بإجابات مثيرة للاهتمام، بل ومدهشة. فكر في السؤال المطروح في الفصل قبل الأخير من هذا الكتاب: إلى أي مدى يكون الآباء مهمين؟

لقد أوضحت المعطيات الآن أن الآباء مهمون جداً في بعض الاعتبارات (وأغلبها مقرر منذ زمن طويل، من الزمن الذي ولد فيه الطفل)، وهم غير مهمين في اعتبارات أخرى (وهي التي يكونون موسوسين بشأنها). لاتستطيع أن توجه الاتهام إلى الآباء لمحاولتهم فعل شيء ما ـ أي شيء ـ لمساعدة أطفالهم على النجاح، وإن كان شيئاً لا يتعلق بذلك، مثل إعطائهم أول اسم من الجانب الأعلى من القائمة.

لكن هناك تأثيراً عشوائياً ضخماً يؤثر في أفضل جهود الوالدية. فإن كنت نمطياً بطريقة ما، فإنك تعرف الوالدين اللذين يتمتعان بالذكاء والمحبة وسيكون سير طفلهما سيئاً وبعيداً عن الخط المرسوم. ويحتمل أنك عرفت المثال المضاد، حيث ينجح الطفل على الرغم من أسوأ نوايا والديه وعاداتهما.

وتذكر للحظة الولدين، واحد أبيض وواحد أسود، وقد تم وصفهما في الفصل الخامس. فقد تربى الولد الأبيض خارج شيكاغو وله والدان محبان و مشجعان وقويان وذكيان، وقد شددا على التعليم في العائلة. والولد الأسود من ديتونا بيتش، وقد تخلت عنه أمه، وكان أبوه يضربه، وقد أصبح عضواً ناضجاً في عصابة في سن المراهقة. لذا ما الذي حصل لهذين الولدين؟

الطفل الثاني، وهو الآن في السابعة والعشرين من العمر، إنه رونالد ج. فراير الابن، وهو الاقتصادي في هارفارد يدرس الإنجازات المتدنية للسود.

والطفل الأبيض درس أيضاً في هارفارد، ولكنه سرعان ما ساءت الأمور بالنسبة له، إن اسمه تيد كاشنسكي.

الملاحظات

لقد اعتمد هذا الكتاب بمجمله على بحث ستيفن د. ليفيت الذي كان يتم غالباً بالتعاون مع شخص أو أكثر، وتشمل الملاحظات فيما يلي مواقع الأوراق الأكاديمية التي اعتمدت عليها مواد الكتاب. كما استخدمنا أبحاث علماء آخرين استخداماً ليبرالياً، وجرى ذكرها أدناه؛ ونشكرهم جميعاً ليس على أبحاثهم وحسب، ولكن على المناقشات التي جرت بعد ذلك أيضاً، مما سمح لنا بتمثيل أفكارهم تمثيلاً أفضل. وتأتي المعلومات الأخرى في هذا الكتاب من أبحاث أو مقابلات لم تنشر بعد، وقد أجراها أحد مؤلفي هذا الكتاب أو كلاهما. وأما المواد التي لم تذكر في هذه الملاحظات فقد أخذت من قاعدة البيانات المتوافرة ومن التقارير الصحفية ومن المراجع.

ملاحظة تفسيرية

IX-IX النصوص التي تظهر بالأحرف المائلة في هذا القسم وفي أماكن أخرى قد ظهرت أصلاً في كتاب ستيفن ج. دوبنر

The Probability That a Real-Estate Agent Is Cheating You (and Other Riddles of Modern Life)

مجلة نيويورك تايمز، 3 آب 2003.

المقدمة: الجانب الخفي من كل شيء

3ـ6 هبوط الجريمة: توجد المقولة حول هبوط الجريمة في مقالة ستيفن د. ليفيت «فهم لماذا الجريمة في التسعينيات: أربعة عوامل تفسر الانخفاض، وستة عوامل لا تفسره».

مجلة المفاهيم الاقتصادية 18 عدد 1 «2004» ص 163ـ190

3ـ4 الوحش المفترس: انظر إيريك بولي «أطفال مسلحون»، مجلة نيويورك تايمز 9 آب 1991؛ جون ج ديلوليو الابن، «الوحش المفترس قادم»، ويكلي ستاندرد 27 تشرين الثاني 1995؛ وتوم مورغانثو، «The Lull Before the

Now for the «Storm» نيوزويك 4 كانون الأول 1995؛ وريتشارد زوغلين
Bad News: A Teenage Time Bomb

مجلة تايم 15 كانون الثاني 1996؛ وتيد جيست «Crime Time Bomb»،
جريدة أخبار الولايات المتحدة والتقرير العالمي 25 آذار 1996

4ـ «نبوءات جيمس آلان فوكس المريعة» يمكن إيجادها في اثنين من التقارير الحكومية، Trends in Juvenile Violence: A Report to the United State Attorney General on Current and Future Rates of Juvenile Offending،

(واشنطن العاصمة: مكتب الإحصائيات القضائية، 1997).

4ـ «الملاحظة المخيفة من الرئيس كلنتون «جاءت في خطاب 1997 في بوسطن الذي أعلن فيه عن إجراءات جديدة ضد الجريمة؛ انظر آليسون ميتشيل نيويورك تايمز، 20 شباط 1997،

«Clinton Urges Campaign Against Youth Crime»

6ـ5 قصة نورما ماك كورفي/ جين رو: انظر دوغلاس س وود،

Who is Jane Anonymous No More Norma McCorvy No Longer Supporters Abortion Rights

18 حزيران، 2003 CNN.com ونورما ماك كورفي وآند ميسلار في:

I Am Roe: My Life, Roe v. Wade, and Freedom of Choice . 1994 نيويورك هاربر

6ـ نوقشت حلقة جريمة الإجهاض في ورقتين:

The Impact of Legalized Abortion on Crime

في الدورية الاقتصادية 116 رقم 2 (2001) ص 379ـ420 وكذلك:

Further Evidence That Legalized Abortion Lowered Crime: A Response to Joyce Journal of Human Resources 39, no.1 (2004) pp. 29-49

7ـ9 القصة الحقيقية للوساطة العقارية: تقيس الدراسة الكيفية التي يتعامل بها الوسيط العقاري عند بيع بيت يخصه وبيع بيت لزبون. وقد قام بالدراسة ستيفن د. ليفيت وتشاد سيفرسون:

Marker Distortions When Agents Are Better Informed :A Theoretiocal and Empirical Exploration of The Value Of Information in Real Estate Transactions Ntional Bureau of Economic Research working paper, 2005.

7 ـ8 ميكانيكو السيارات في كاليفورنيا. ناقش هذا الموضوع توماس هابارد في:

An Empirical Examinations of Moral Hazard in the Vehicle Inspection Market, RAND Journal of Economics 29 no. 1 (1998) pp. 406 - 426;

وناقش كذلك في مقالته:

How do Consumers Motivate Experts Reputational Incentives in an Auto Repair Market ,Journal of aw & Economics 45, no. 2 (2002)

8ـ ونوقش موضوع الأطباء الذين يجرون عمليات ولادة قيصرية إضافية في مقالة جوناثان غروبر و ماريا أونينغ وعنوانها:

Physician Financial Incentives and Caesarean Section Delivery, RAND Journal of Economics 27, no. 1 (1996) pp. 99-123 12ـ9 قصة نفقات الحملات الانتخابية تروى بتفصيل شديد في أوراق ثلاث: ـ ستيفن د. ليفيت: «Using Repeat Challengers to Estimate the Effect of Campaign Spending on Election Outcomes in the U.S. House Journal of Political Economy, August 1994,pp.777-98

ـ ستيفن د. ليفيت:

Congressional Campaign Finance Reform»

_Journal of Economic Perspectives 9(1995) pp.183-93

ستيفن د ليفيت وجيمس م سنايدر الابن: The Impact of Federal

Spending on House Eection Outcomes

Journal of Political Economy 105, no.1 (1997),pp. 30-53

14ـ ثمانية كؤوس ماء كل يوم: انظر روبرت ج ديفيس،

Wall Street Journal, March Can Water Aid Weight Loss 16,2004, حيث يوجد تقرير المعهد الطبي الذي يتوصل إلى: «أن هناك أساساً علمياً لهذه التوصية (8 كؤوس من الماء) و أن معظم الناس يحصلون على ماء كاف من خلال استهلاك الطعام والمشروبات بصورة طبيعية».

15ـ14 لايزال آدم سميث جديراً بالقراءة طبعاً (إن كان لديك صبر لا حد له)؛ وكذلك كتاب روبرت هيلبرونر: The Worldly Philosophy، (نيويورك: سيمون و شوستر، 1953)، وهو يحتوي على صور لاتنسى لكل من: آدم سميث، وكارل ماركس، وثورستاين فيبلين، وجون ماينرد كينيس، وجوزيف شومبيتر، وعمالقة اقتصاديين آخرين.

1ـ ما هي الأشياء المشتركة بين معلمي المدارس ومصارعي السومو؟

19ـ20ـ23 دراسة مركز الرعاية النهارية في حيفا: انظر يوري غنيزي و آلدو رستشيني، A Fine Is a Price مجلة الدراسات القانونية 29 رقم 1 (كانون الأول 2000) ص1ـ17 وكذلك يوري غنيزي: Effect of Incen- The W tives, ورقة عمل، جامعة شيكاغو.

22ـ23 جريمة القتل عبر العصور: انظر مانيويل آبسنر،

Secular Trends of Violence, Evidence ,and Theoretical Interpretations,

Crime and Justice: A Review Research 3 (2003): وانظر أيضاً إيمانيويل آيسنر:

Violence and the Rise of Modern Society Criminology in Cambridge, Oct.2003 pp.3-7

23 - توماس جيفرسون حول السبب والنتيجة. السيرة الذاتية لتوماس جبفرسون (1928)؛ وأعيدت طباعتها في نيويورك، ج ب أبناء بوتنام (1914) ص 156

24ـ الدم من أجل المال: انظر ريتشارد م تيتموس،

The Gift of Blood Transaction 8 (1971),

وانظر أيضاً:

The Philosophy of Welfare: Selected Writings by R.M. Titmuss

ed. B Abel. Smith and K. Titmuss (London: Allen and Unwin (1987)

وانظر أيضاً وليام ي آبتون،

Altruism, Attribution, and Intrinsic Motivation in Recruitment of Blood Donors.

Ph.D. diss.,Cornell University,1973.

25ـ عندما اختفى سبعة ملايين طفل في ليلة واحدة: انظر جيفري ليبمان، Who National Tax Journal 53 are the Ineligible EITC Recipients (2000) pp1156-86 وورقة ليبمان التي تضع تقرير جون زيلاجيل «أين ذهب هؤلاء الأطفال، 1990 Research Conference Paper: How do we Af- (Internal Revenue Service: March 1991). Pp. fect taxpayer Behaviour? 162-163.

25ـ37 المعلمون الغشاشون في شيكاغو: تقدم هذه الدراسة خلفية مهمة للامتحانات الصعبة، وقد فصلتها في ورقتين:

- برايان جاكوب وستيفن د. ليفيت،

Rotten Apples: An Investigation of the Prevalence and Predictors of Teacher Cheatings Quarterly Journal of Economics, no.3 (2000)pp.843-77;

ـ برايان آجاكوب وستيفن د. ليفيت:

"Catching Cheating Teachers: The Results of an Unusual Experiment in

Implementing Theory "Brooking-Wharton Papers on Urban I Affairs, 2003, pp.185-209.

The Oakland fifth-grader with the extra -helpful teachers _27

وهي مبنية على مقابلة المؤلف مع المدير المساعد لمدارس شيكاغو العامة

34_35 الغش بين معلمي كارولاينا الشمالية. انظر ج ه. غي،

Standardized Tests: Irregularities in Administering of Test Affect Test Results,

Journal of Instructional Psychology 17, no.2 (1990) pp.93-103

35_37 قصة آرني دنكان، المدير التنفيذي لمدارس شيكاغو، وتقوم على مقابلات المؤلف بصورة كبيرة: انظر آمي ديدوريو،

«The Outsider Comes In,»

District Administration: The Magazine for K-12 Education Leaders, August 2002;

And Various Chicago Tribiune articles byRay Quitanilla.

37_38 اختبار كرة السلة في جامعة جورجيا، و تم الإعلان عنه بعدما نشرت الجامعة 1500 صفحة من الوثائق استجابة لتحقيق قامت به البيئة الوطنية للرياضة (NCAA).

38_45 الغش في السومو: انظر مارك دنكان وستيفن د. ليفيت،

Winning Isnt Everything: Corruption in Sumo Wrestling,

American Economic Review 92, no.(December 2002),pp. 1594 -1605.

38_ 45 توجد أشياء كثيرة عن السومو لتعرفها، وقد تجد القليل في هذه الكتب: مينا هول، The Book of Sumo Berkley, Calif,: Stonebridge Press,1997)

- كيسوكا إيتاي، Nakabon (Tokyo : Shogakkan Press,2000

- أوناروتو، Yaocho Tokyo: Line Books,2000)

44- يموت اثنان من حكام (نافخي الصافرات) السومو بصورة غامضة: انظر - شيريل أو دوم، New Sumo Wrestlers Theyre BIG Facing a Hard Fall, York Times, June 28, 199

- أنطوني سبايث، «Sumo Quake: Japans Reverted Sport Is Marred by Charges of Tax Evasion, Match Fixing, Ties to Organized Crime, and Mysterious Deaths.

وقد ذكر ذلك آيرين م. كوني وهيروكي تاشيرو في مجلة تايم (النسخة الدولية) 30 أيلول 1996.

45_51 رجل الأرغفة: كان بول فيلدمان يفتش عن باحث اقتصادي؛ ليهتم بمعطياته، ووصل إلى ستيف د. ليفيت الذي اهتم بها. (ومر مثقفون آخرون). وبعد ذلك قام ليفيت ودوبنر بزيارة أعماله فيلدمان الخاصة بالأرغفة قريباً من واشنطن. العاصمة. وأدى بحثهما إلى المقالة المماثلة لما هو موجود هنا: فكتب ستيفن د .ليفيت وستيفن ج دبنر

What the Bagel Man Saw The NewYork Times Magazine

6 حزيران 2004، وكتب ليفيت ورقة أكاديمية حول عمل أرغفة فيلدمان.

ـ دراسة البيرة على الشاطئ وقد ناقشها ريتشارد ه ثالر، «-Mental Account
ing and Consumer Choice,

Marketing Science 4 (Summer1985) pp.119 - 214;

وتستحق قراءة ريتشارد ه ثالر

ic Life (The Winners Curse: Paradoxes and Anomalies of Econom ic

New York: Free Press. 1992)

2ـ كيف تتشابه جمعية الكو كلوكس كلان مع الوسطاء العقاريين؟

55ـ 66: كشف جمعية الكو كلوكس كلان: كتبت كتب ممتازة عديدة عن الكوكلوكس كلان.

اعتمدنا اعتماداً قويا من أجل تاريخ عام على كتاب واين كريغ ويد:

ـ The Fiery Cross: The Ku Klux Klan in America

(نيويورك: سيمون و شاستر، 1987)، وكتاب ديفيدم تشالمرز:

Hooded Americanism: The First Century of the Ku Klux Klan, .
1865-1965

(Garden City, New York, Doubleday, 1965)

وانظر كذلك كتاب ستيتون كنيدي،

After Appomattox: How the South Won the War, (Gainesville: University
Press of Florida, 1995)

والعمل الأكثر أهمية بالنسبة لنا هو كتاب ستيتون كنيدي:

The Klan Unmasked (Boca Raton: Florida Atlantic University

Press,1990)

وقد طبع بالأصل بعنوان: I Rode with the Ku Klux Klam

(في لندن: آركو للنشر 1954)

لكن ستيتون كنيدي نفسه هو أعظم من يحتفظ بالمعرفة المتعلقة بالجمعية على قيد الحياة (ومن أجل مزيد من المعلومات، انظر الموقع: www.stetonkennedy.com؛ وكذلك العديد من أوراق كنيدي الموجودة في مركز شومبيرغ للبحث في ثقافة السود في نيويورك). قام المؤلفان بزيارة كنيدي في بيته قرب جاكسونفيل في فلوريدا، وقابلاه واستفادا من مجموعته الضخمة عن الجمعية ووثائقها. (ولقد جربنا ثيابه الخاصة بالجمعية) ونشكره على تعاونه. وقد رافقنا بهذه الزيارة الاقتصادي من هارفارد رونالد ج. فراير؛ ويتعاون الآن مع ستيفن ليفيت في عدد من الأوراق حول جمعية كو كلوكس كلان. ولابد من ملاحظة أن فراير كان يقود سيارة الأجرة ونحن نبحث عن بيت كنيدي أول الأمر على طريق خفي رملي. وتوقفنا لنسأل أحد الجيران عن موقع البيت. لا يزال كنيدي يعتبر عدواً في أوساط الجمعية، وكان هذا الجار يحمي كنيدي وبيته. فنظر في السيارة ـ على فراير مباشرة (وكان من السود) وسأل بحماس: «إنكم جميعاً لستم من الجمعية؟» وأكد له فراير بأننا لسنا كذلك.

66ـ67 ما الذي حدث لمعدلات السجن مدى الحياة؟ انظر جيفري. ر براون وأوستن كولزبي،

dence Do the Internet make Markets More Competitive? Evi from the Life Insurance Industry,

في مجلة الاقتصاد السياسي 110 رقم 3 (حزيران 2002) ص 481 ـ 507

67ـ من المحكمة العليا، يكتب لويس د براندز «يقال: إن ضوء الشمس أفضل المعقمات»: انظر لويس برانديز «أموال الآخرين ـ وكيف يستعملها رجال المصارف» (نيويورك: فريدريك آ ستوكس، 1914).

67 ـ «لغز السيارة المستعملة والسيارة الجديدة»: إن هذه المقولة والكثير مما كتبه جورج آ آكيرلوف خلال السنة الأولى عندما كان أستاذاً مساعداً في بيكرلي في سنة 1966ـ1967. وتم رفضها ثلاث مرات ـ منه مرتان من قبل الصحف وقال لآكيرلوف: «لا ننشر أوراقاً تبحث في موضوعات بهذه التفاهة»، هذا ما يذكره ـ قبل أن ينشر عمله كجورج آ آكيرلوف The Quality Uncertainty and the Market Mecha- :Market for Lemon nism, August 1970

وبعد ما يقرب من ثلاثين سنة، فازت ورقة آكيرلوف بجائزة نوبل للاقتصاد، ويعتبر الآن على نطاق واسع أظرف شخص فاز بأي جائزة.

70ـ أشرطة إينرون: واعتباراً من هذه الكتابة يمكن الاستماع إلى هذه الأشرطة على الموقع: www.cbsnes.com/stories/2000/06/01/ .eveningnews/main6_20626.shtml

وانظر أيضاً ريتشارد آ. أوبل الابن،

Enron Traders on Grandma Millie and Making Out Like Bandits

نيويورك تايمز، 13 حزيران 2004.

70 ـ71 هل جراحة الأوعية الدموية ضرورية؟ انظر جينا كولاتا «دراسات حديثة للقلب تسأل عن قيمة فتح الأوعية الدموية، «نيويورك تايمز ٢١ آذار 2004.

71ـ76 القصة الحقيقية للوسطاء العقاريين: انظر ستيفن د. ليفيت وتشاد سيفرسون:

Market Distortion When Agents Are Better Informed: A Theoretical and Empirical Exploration of the Value of Informa- National Bureau of Economic tion in Real-Estate Transaction, Research working paper,2005

TRENT LOTT, NOT-SO-SECRET SEGREGATIONIST ـ 77

لقد تم تلخيص ملاحظات لوت المؤذية تلخيصاً جيداً من قبل دان غودغيم وكارين تومالتري، Time.com/cnn.com, Lott: Tripped Up by History, 16 كانون الأول 2002

77ـ 79 الحلقة الأضعف: انظر ستيفن د. ليفيت، «اختبار نظريات التمييز العرقي: الدليل من الحلقة الأضعف» مجلة القانون الاقتصاد 17، (تشرين الأول 2004) ص 431ـ 452.

79ـ The theory of taste-based dis crimination

وأصلها لدى غاري س بيكر،

The Economics of Discrimination (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو1957)

79ـ وجرى اشتقاق نظرية التمييز العرقي القائم على المعلومات من عدد من أوراق البحث، بمن فيهم إدموند فيلبس (نظرية إحصائية للتمييز العرقي والجنسي)، مجلة:

American Economic Review 62, no 4 (1972) pp 659-661;

ولدى كينيث آرو «The Theory of Discrimination,» «التمييز في سوق العمل، إعداد أورلي آشينفيلتر وآلبرت ريز (برنستون نيو جيرسي: مطبعة جامعة برنستون 1973).

80ـ84 قصة من يتواعدون عن طريق الإنترنيت: انظر دان إيرليو غونتر جز هيرتش وعلي هورتاسو

What Makes You Click: An Empirical Analysis of Online Dating

ورقة عمل، جامعة شيكاغو، 2004

84ـ الناخبون حول دنكنز/ جيولياني: انظر تيمور كوران في:

Private Truths: Public Lies :The Social Consequences of Preference Falsification (Cambridge, Mass.:Harvard University,1995);

وانظر أيضاً كيفن ساك: «Governor Joins Dinkins Attack Against Ri-val»، مجلة نيويورك تايمز 27 تشرين الأول 1989؛ وانظر سام روبرت في:

Uncertainity over Polls Clouds Strategy in Mayor Race

مجلة نيويورك تايمز، 31 تشرين الأول 1989.

84 ـ الناخبون حول ديفيد ديوك: انظر كوران،

Private Truths, Public Lies، وانظر أيضاً بيتر آبل بوم،

Republican Quits Louisiana Race in Effort to Defeat Ex-Klansman

مجلة نيويورك تايمز 5 تشرين الثاني 1990.

84ـ85 ديفيد ديوك، «MASTER OF INFORMATION ABUSE»، بين المراجع المفيدة في هذا الموضوع هناك كارين هنرسون، «David Dukes Work-Release Program»، الوطني العام، 4 أيار 2004؛ وعمل جون ماك كويد الشامل «Dukes Decline» نيو أورليانز تايمز ـ بيكايون، 13 نيسان 2003

٣ـ لماذا لا يزال تجار المخدرات يعيشون مع أمهاتهم؟

89ـ90 «الحكمة التقليدية» عند جون كينيث غالبريث: انظر «مفهوم الحكمة التقليدية» في الفصل الثاني من (The Affluent Society) بوسطن: هوتون ميفلين 1958.

90ـ ميتش سنايدر والملايين من المشردين: لقد جرت تغطية التناقض حول نشاط سنايدر تغطية واسعة في صحف كولورادو خلال أوائل الثمانينيات، وأعيدت دراستها في التسعينيات عندما ارتكب سنايدر الانتحار. وجرى تقديم نظرة شاملة في مقالة غاري س. بيكر وغويتي

Economics of في How the Homeless Crisis Was Hyped, نـشـات بيـكـر

Life (نيـويورك: مـاك غـروهيل، 1997) ص 175ـ176؛ وقـام المؤلفـان بـتـعـديل الفصل من مقالة مجلة بزنيس وويك 1994)

91ـ اختـراع البـخـر الصـدري. قصـة الليسـترين الـغريبـة المـذكورة لدى جيس ب تويتشيل:

Groundbreaking Ad- Twenty Ads That Shook the World: The Centurys, Most vertising and How It Changed Us All New York: Crown,200 pp. 60-69

91ـ جـورج بوش، :GEORGE W. BUSH AS A MAKE-BELIEVE COWBOY

انظـر بول كـروغـمـان «,New Years Resolutions» نيـويورك تايمز، 26 كـانون الأول، 2006.

92ـ ليس الاغـتـصـاب بقـدر الـفكرة الشـائعـة. تبين إحـصـائيـات 2002 من الفـحص الوطني للجـريمة، التي صـممت لتوضـيح الاسـتـجابات المخلصـة، تشيـر إلى أن خطـر أن تجد المرأة نفسها ضـحية نشـاط جنسـي غير مـرغوب به أو ضـحيـة مـحاولة جنسـيـة لا ترغب بها فـي حيـاتهـا هو 1 من أصل 8 (وليس 1 من أصل 3) كمـا يناقش أصـحاب هذا الرأي. وبالنـسبـة للـرجـال، تشير الفـحوص الوطنية للجريمة إلى أن الحـدث هو 1 من أصل 40 (وليس 1 من أصل 9 كما يقول مدعو هذا الرأي).

92ـ لم تكن الجرائم بالقدر الذي وجدت به: انظـر مارك نيس،

Report Says Atlanta Underreported Crimes to Help Land 1996 Olympics

الأسوشيتد بريس، 20 شباط 2004

93ـ 109ـ رحلة فينكاتش الطويلة والغـريبـة إلى حـجـرة تحـضـيـر الكوكـائين: ومنـذ هـذه الكتـابة فـينكـاتيش صـار أسـتـاذ علم الاجـتـمـاع والدراسـات الأفريقية الأمريكية في جامعة كولومبيا.

93ـ99ـ إن المادة المستخدمة حول فينكاتيش قد أخذت من مقابلات المؤلف؛ انظر أيضاً جوردان مارتش (The Gang Way) في مجلة ـ Chicago Reader 8 آب 1997؛ وكذلك روبرت ل: كايسر (The Science of Fitting In) في (Chicago Tribune) 10 كانون الأول 2000.

99ـ109 الأمور الدقيقة حول عصابة المخدرات: ذكرها في أربع صحف فينكاتيش وستيفن د. ليفيت: (The Financial Activities of an Urban Street Gang «الدورية الاقتصادية» 115 العدد 3 ـ (آب 2000). ص 755ـ789؛ «هل نحن أسرة أم شركة؟»

History and Disjuncture in the Urban American Street Gang) في مجلة (Theory and Society 29) خريف 2000 ص 427ـ462؛ Growing Up in the Projects:The Economic Lives of Cohort of Men Who Came of Age in Chicago Public Housing, مجلة American Economic Review .2(2001) no,91 ص 79 ـ 84 وكذلك ورقة عمل American Bar Foundation لعام 1998 بعنوان: The Political Economy of an American Street Gang, وانظر أيضاً سودير آلادي فينكاتيش:

American Project: The Rise and Fall of a Modern Ghetto

(Cambridge, Mass : Harvard University Press, 2000)

104ـ تجارة المخدرات أخطر عمل في أمريكا: بحسب إحصائيات مكتب العمل، إن أخطر عشرة أعمال قانونية هي: قطع الأخشاب، وصيد الأسماك، والملاحة الجوية والبحرية، وعمال الهيكل المعدنية، والسائقون، وعمال المبيعات، وعاملو الأسطح، وتركيب الطاقة الكهربائية، وقاطنو المزارع، وعمال البناء، وسائقو الشاحنات.

109ـ اختراع جوارب النايلون: ووكر كاروثرز شاب كيميائي كان يعمل لدى دوبونت، تمكن بعد سبع محاولات من أن يجد طريقة يقذف بها بلمرات

سائلة من خلال قواذف دقيقة، ليوجد أليافاً لخيوط قوية جداً. وكان هذا هو النايلون. وبعد بضع سنوات قدمت شركة دوبونت الجوارب النايلون في كل من نيويورك ولندن. وخلافاً للتوقعات لم يتم اشتقاق اسم هذه الأعجوبة الرائعة من اسم المدينتين. كما لم يشتق من العبارة Now Youve Lost, Old Nippon, إشارة إلى تجارة الحرير اليابانية المسيطرة. وفي الواقع لقد أخذ الاسم من شعار (No Run) الذي يشير إلى أن المنتج الجديد لا يثبت في أعلى الساق، ولقد كشف هذا عن نجاح المنتج. وعاش كاروثرز زمناً من الاكتئاب، وانتحر قبل أن يرى المنتج الذي نجح نجاحاً باهراً، وذلك بأن شرب مادة الزرنيخ في سنة 1937. انظر ماثيو ي. هيرميس: Enough for One Life-time Wallacw Carothers, Inventor) (of Nylon فيلادلفيا، Chemical Heritage Foundation)، 1996)

110ـ المخدر (كراك) بالعامية: المجلس الأعلى لسوء استعمال الكحول والمخدرات جمع في فهرس طويلٍ الأسماء التي أعطيت لمسحوق للكوكائين في الشارع.

Badrock, Bazooka, Beam, Bernt, Bernice, Big C, Blast, Blitzard, Blow, Blunt,

Bouncing, Powder, Bump, C, Caballo, Cain, Candy, Caviar, Charlie, Chicken

Scratch, Coca, Cocktail, Coconut, Coke, Cola, Damablanca, Dust, Flake, Flex, Florida Snow, Foo Foo, Freeze, G-Rock, Girl, Goofball, Happy Dust, Happy Powder, Happy Trails, Heaven, King, Lady, Lady

Cain, Late Night, Line, Mama Coca, Marching Dust Powder, Mojo, Mujer, Nieve Nose, Nose Candy,

P-Dog, Peruvian, Powder, Press, Prime Time, Rush, Shot, Sleighride, Sniff, Snort, Snow, Snow-bird. Soda. Speedball, Spotting,

Stardust, Sugar, Sweet Stuff, Toke, Trails, Ball, Beast, Bisquits, Bones, Boost, Boulders, Brick, Bump, Cakes, Casper, Chalk, Cookies, Crumbs, Cubes, Fatbags, Freebase, Garvel, Hardball, Hell, Kibbles

Bits, Kryptonite, Love, Moonrocks, Nuggets, Onion, Peb- n bles, Piedras, Piece,

Ready Rock, Roca, Rock(s), Rock Star, Scotty, Scrabble, Smoke House, Stones,Teeth, Tornado.

110ـ جوني آبل سيد الكوكائين: أوسكار دانيلو بلاندوم وتحالفه مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، تمت مناقشة ذلك بالتفصيل الشديد، وبطريقة تثير عدداً من التناقضات في ثلاثة أجزاء:

1- San Jose Mercury News Series by Gary Webb,

وبدأت السلسلة في 18 آب 1996. وانظر أيضاً تيم غولدن:

Though Evidence Is Thin, Tale of C.I.A. and Drugs Has a Life of Its Own New York Times, October 21,1996,

وكذلك غاري ويب:

Dark Alliance: The CIA, the Contras, and the Crack Cocaine Explosion (نيويورك، Seven Stories Press,1990). وحققت وزارة العدل بهذا الموضوع بالتفصيل في:

The C.I.A.- Contra-Crack-Cocaine Controversy: A Review of the Justice Departments Investigations and Proscutions,

وهي متوافرة كتابياً في الموقع:

www.usdoj-gov/oig/special/9712/ch01p1.htm

111ـ العصابات في أمريكا: انظر فريدريك ثراشر The Gang (مطبعة جامعة شيكاغو 1927)

113ـ تقلص الفجوات المتنوعة بين السود والبيض، والاتجاهات قبل الكوكائين وانظر ريبيكا بلانك

An Overview of Social and Economic Trends By Race, America Becoming : Racial Trends and Their Consequences, ed. Neil Smelser

William Julius Wilson, and Faith Mitchell (Washington, D.C.: National Academy Press, 2001) pp. 21 - 40

113ـ فيما يتعلق بوفيات الأطفال السود انظر دوغلاس ف. آلموند، كينيث ي. تشي، ومايكل غرينستون، Civil Rights, the War on Poverty, and Black-White Convergence in Infant

National Bureau of Economic Research Mortality in Mississipi, working paper, 2003.

113ـ114ـ الآثار المدمرة المختلفة للكوكائين، يناقشها رونالد ج. فراير الابن، وبول غيتون، وستيفن د. ليفيت وكيفن مورفي، The Impact of Crack Cocaine مطبعة جامعة شيكاغو، ورقة عمل، 2003.

4ـ أين ذهب جميع المجرمين؟

117ـ119ـ منع نيقولاي شاوشيسكو للإجهاض: معلومات عن البيئة الرومانية وشاوشيسكو مأخوذة من مصادر مختلفة، منها (أوروبا الشرقية والشيوعية الثالثة) مجلة تايم، آذار 1966؛ (حكم شاوشيسكو بقبضة من حديد) الواشنطن بوست، 26 كانون الأول 1989، رالف بلوميثال.

The Ceausescus: 24 Years of Fierce Repression, Isolation and Independence, New York Times, December 26,1989

In Cradle of Rumanian Revolt, Anger Quickly سيرج شوميمان، Overcame Fear,

نيويورك تايمز، 10 كانون الأول 1989

Overplanned Parenthood: Ceausescus Cruel Law,» :كارين بريسلو

نيوز ويك، 22 كانون الثاني 1990

The Economic Legacy of Ceausescu, :نيكولاس هولمان

مجلة الطالب الاقتصادية 1994

118ـ العلاقة بين منع الإجهاض في رومانيا ونتائج الحياة، وقد جرى بحثها في ورقتين:

كريستيان بوب إيلشيز:

The Impact of an Abortion Ban on Socio-Economic Outcomesof Columbia University working Children: Evidence from Romania, paper, 2002;

كريستيان بوب إيلشيز

The Supply of Birth Control Methods, Educations and Fertility: Evidence from Romania Colombia University working paper 2002

119ـ120 الانخفاض الكبير في معدلات الجريمة في أمريكا. كما ذكر سابقاً لقد أخذت هذه المعلومات من مقالة ستيفن د.ليفيت

Understanding Why Crim Fell in the 1990's: Four Factors That Ex- Economic Perspectives plain the Decline and Six That Do Not, Journal of 18,no.1(2000) pp. 163-190.

120ـ مقال جيمس ألان فوكس: intentional overstatement

No Simple Solution for Solving Violent Crimes, :انظر تورستن أوف

Pittsburgh Post-Gazette, September 12,1999.

122ـ تحول السياسيون إلى اللين مع الجريمة بصورة متزايدة: نوقش هذا الموضوع مع موضوعات أخرى ذات علاقة في مقالات غري. س بيكر وغويتي آشساشف لآيكر،

Stiffer Jail Terms Will Make Gunmen More Gun-Shy,

وكذلك: How Tackle Crime? Take a Tough, Head-On Stance

وكذلك: The Economic Approach to Fighting Crime»

وقد ظهرت جميعها في مجلة،

The Economics of Life New York: McGraw Hill,1997

في الصفحات 135ـ144، وجرى تعديل الفصول من مقالات للمؤلفين أنفسهم في مجلة Business Week

122ـ124ـ زيادة الاعتماد على السجون: فيما يتعلق بالزيادة الكبيرة في عدد سجناء جرائم المخدرات انظر إليانا كزيمكو وستيف د. ليفيت:

An Empirical Analysis of Imprisoning Drug Offenders Journal of Public Economics 88, nos. 9-10(2004) pp. 2043-66

123ـ ماذا يحدث لو أطلقنا سراح جميع السجناء؟ انظر وليام ناغل،

On Behalf of a Moratorium on Prison Construction, Crime and Delinquency 23(1977) pp.152-174

123ـ «من الظاهر أن الأمر يستغرق عمل دكتوراه..»: انظر جون ج ديلوليو:

Arresting Ideas: Tougher Law Enforcement Is Driving Down Urban Crime, Police Review, no. 75 (Fall 1995)

124ـ125ـ عقوبة الإعدام: للاطلاع على تقرير كامل حول فشل ولاية نيويورك في إعدام مجرم واحد، انظر «Capital Punishment in New York state: Statistics from Eight Years of Representation, 1995-2003"

(New York: The Capital Defender Office, August 2003 which is available at: nycdo.org/8yr.html

والأحدث هنا أن محاكم استئناف نيويورك ترى أن عقوبة الإعدام غير دستورية، ونتيجة لذلك أوقفت تنفيذ جميع الإعدامات.

125- تنفيذ إعدام واحد يقلل سبع جرائم قتل: انظر إيزاك إيرليك:

"The Deterrent Effect of Capital Punishment: A Question of Life and Death " American Economic Review 65 (1975) pp.397-417.

وللكاتب نفسه:

Capital Punishment and Deterrence: Some Further Thoughts and Evidence Journal of Political Economy 85 (1977) pp. 741-788.

125- من أقوال القاضي هاري آ باكمان وهو يعطي رأيه بقرار المحكمة العليا لعام 1994 برفض مراجعة قضية حكم بالإعدام في تكساس: «لن أشغل نفسي بالتعامل مع آلة الموت بعد الآن»:

Callins v. Collins, 510 U.S. 1141(1994); cited in Congressional Quarterly Researcher5, No. 9(March 10, 1995).

ينبغي ملاحظة أن المحلفين الأمريكيين قد فقدوا أيضاً شهيتهم لعقوبة الإعدام - ويبدو أن السبب تكرار إعدام أناس أبرياء في السنوات الأخيرة، أو تبرئتهم، بينما هم ينتظرون دور إعدامهم.

خلال التسعينيات كان معدل المحكومين بالإعدام 250 مجرماً في السنة؛ وفي السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين قد هبط هذا المعدل إلى 174. انظر آدم ليبتاك، Fewer Death Sentences Being Imposed in U.S., New York Times, September 15,2004

126-127 هل تخفض الشرطة الجريمة حقاً؟ انظر ستيفن د ليفيت،

Using Electrical Cycles in Police Hiring to Estimate the Efect of Police on Crime, American Economic Review 87, no. 3(1007), pp. 270-290.

وستيفن د. ليفيت:

Why do Increased Arrest Rates Appear to Reduce Crime: Deterrence, Incapacitation, or Measurement Error?

Economic Inquiry 36, no. 3(1998), pp. 353-372.

وكذلك ستيفن د. ليفيت: The Response of Crime Reporting Behaviour to Changes in Size of the Police Force:Implications for Studies of Police Effectiveness Using Reported Crime Data,

Journal of Quantitative Criminology 14 (February 1998), pp. 62-81.

127ـ سنوات الستينيات الوقت العظيم لتكون مجرماً: انظر غاري س بيكر وغويتي ناشر بيكر، The Economics of Life (New York: McGrraw-Hill, (1997),pp. 142-143.

127ـ130ـ أعجوبة الجريمة في مدينة نيويورك: اقتباس «المدة الأثينية»، وقد ورد في مقابلة مؤلف مع ضابط الشرطة، وليام ج غوتا، أحد مخترعي «CompStats».

128ـ نظرية النافذة المفتوحة: انظر جيمس ك ويلسون وجورج ل. كيلنغ:

Broken Windows: The Police and Neighbourhood Safety Atlantic Monthly, March 1982

130ـ براتون يوظف المزيد من أفراد الشرطة في لوس أنجلوس: انظر تيري ماك كارثي،The Gang Buster، التايم، 19 كانون الثاني 2004

130ـ134ـ قوانين الأسلحة: وبخصوص القول: إن في الولايات المتحدة أكثر من البالغين، انظر فيليب كوك وجينز لودفيغ Guns in America: Results (Washington: of a Comprehensive Survey of Gun Ownership and Use Police Foundation, 1996).

131ـ علاقة الجريمة بالسلاح: انظر مارك دنكان، «More Guns, More Crime» Journal of Political Economy 109, no. 5 (2001), pp. 1086-1114

131ـ الأسلحة في سويسرا: انظر ستيفن ب هالبروك، «Armed to the Teeth,» Wall Street Journal Europe, June 4,1999 and Free

132ـ قانون برادي المهم: انظر جينز لودفيغ وفيليب كوك، «Homicide and Rates Associated

With Implementation of the Brady Handgun Violence Prevention Act, Journal of American MedicalAssociation 284, no. 5 (2000), pp.585-591.

132ـ يشتري المجرمون الأسلحة من السوق السوداء: انظر جيمس د. رايت و بيتر ه روسي، Armed and Considered Dangerous: A Survey of Felons _and Their Firearms (Hawthorne,N.Y.: Aldine de Gruyter,1986).133 مبادلة السلاح بالعلاج النفسي: انظر «Wise Climb Down, Bad Veto Los Angeles Times, October 5,1994

133ـ لماذا لاينجح شراء السلاح ثانية: انظر سي كلاهان، ف. ريفيرا وتي كوبسيل، Money for Guns: Evaluation of Seattle Gun Buy-Back Pro- ديفيد Public Health Reports 109,no.4 (1994),pp. 472-477; gram, كينيدي، آن يهل، وأنطوني براغا، Youth Violence in Boston: Gun Mar- kets, Serious Youth Offenders, and

Law and Contemporary Problems 59 A Use-Reduction Strategy, Australia: A Massive» وبيتر رويتر وجيني موزون، «(1996),pp.147-183 Buy-back of Low-Rise Guns,

In Evaluating Gun Policy on Crime and Violence, ed. Jens Ludwig and Philip Cook (Washington, D.C.: Brookings Institution,2003)

133ـ نظرية حق الحمل عند جون لوت: انظر جون ر. لوت الابن وديفيد ماسترد، -Right-to-Carry Concealed Guns and the Importance of Deter Journal of Legal Studies 26(January 1997), pp.1-68; rence, وجون ر لوت الابن، More Guns, Less Crime: Understanding Crime and Gun Chicago: University of Chicago Press,1998. Control Laws

133ـ جون لوت مثل ماري روش: انظر جوليان سانشيز The،May 2003; وريتشارد مورين، Reason Mystery of Mary Rosh,

Washington Post Feb- Scholar Invents Fan to Answer His Critics, ruary 1,2003

133ـ134 نظرية لوت حول الأسلحة جرى نقضها: انظر إيان آيريس وجون ج. دونوهيو الثالث، -Shooting Down the More Guns, Less Crime Hy pothesis Sanford Law Review 55 (2003),pp. 1193-1312;

ومارك دوغان، « More Guns, More Crime» (2001) pp. 1086-1114. Journal of Political Economy 109, no. 5

134ـ135 تفجر فقاعة الكوكائين: ومن أجل مناقشة تاريخ الكوكائين وخصائصه انظر رولاند ج. فراير الابن، بول هيتون وستيفن ليفيت وكيفين مورفي، working The Impact of Crack Cocaine,University of Chica. paper, 2005.

134ـ 25٪ من جرائم القتل: انظر بول ج. غولدستان، هنري هـ. براونستاين، باتريك ج. رايان، وباتريشيا آ بيلوتشي، Crack and Homicide in New York City: A Case Study in the Epidemiology of Violence In Crack in America: Demon Drugs and Social Justice, ed. Craig Reinarman and Harry G.Levine (Berkeley: University of California Press, 1997), pp.113-130.

135ـ136 نظرية «شيخوخة السكان» : انظر ستيفن د ليفيت، The Limited Role of Changing Age Structure in Explaining Aggregate Crime Rate Criminology 37, no. 3 (1999), pp. 581-599.

على الرغم من أن نظرية الشيخوخة قد فقدت من قيمتها، فإن الخبراء المثقفين يعودون إليها، انظر ماثيو ل. والد، «Most Crimes of Violence and property Hover at 30-year Low New York Time, 13 September 2004,

حيث يقول لورانس آ غرينفيلد، مدير مكتب الإحصاءات القضائية، «من المحتمل ألا يكون هناك عامل واحد يفسر سبب انخفاض معدلات الجريمة خلال هذه السنين كلها إذ أنه الآن في أدنى مستوى لها منذ أن بدأنا بإحصائها في سنة 1973. فربما يتعلق ذلك بالأحوال السكانية، وربما يتعلق ذلك بأن نسبة كبيرة من المجرمين هم وراء القضبان».

135ـ «هناك سحابة كامنة»: انظر جيمس ك. ويلسون، Crime and Public Policy في Crime إعداد جوان بيتيرسيليا (سان فرنسيسكو، ICS Press, 1995) ص507.

136ـ144 العلاقة ما بين الإجهاض والجريمة: من أجل نظرة إجمالية، انظر جون دونوهيو الثالث وستيفن د ليفيت، The Impact of Legalized Abortion on Crime, في مجلة: Quarterly Journal of Economics 116, no. 2 (2001) pp. 379ـ420 وكذلك جون ج دونوهيو الثالث وستيفن د. ليفيت في:

Further Evidence That Legalized Abortion Lowered Crime: A Response to Joyce.

Journal of Human Resources 39, no.1 (2004),pp.29-49.

136ـ دراسات حول الإجهاض في أوربا الشرقية والدول الإسكندينافية: انظر ب ك داغ، The Psychological Sequelae of Therapeutic Abortion- American Journal of Psychiatry 148, no, 5 Denied and Completed, (May 1991),pp.578-585; وانظر كذلك هنري ديفيد وزدينك ديتريش ورفاقهما، Born Unwanted: Developmental Effect of Denied Abortion (New York: Springer,1988)

137ـ رأي «رو» و«ويد»: «رو» و«ويد»، 410 S.U، 113 (1973)

138ـ أظهرت دراسة أن الطفل العادي: انظر جوناثان غروبر، وفيليب ب ليفين، ودوعلاس ستيغر، Child Living Circum- Abortion Legalization and Child? Qyarterly Journal of Econom- stances: Who is the Marginal ics 114(1999),pp.263-269.

138- أقوى النبوءات حول مستقبل الجريمة: انظر رولف لوبر، ومجلة ستوت هامر لوبر، Family Factors as Correlates and Predictors of Juvenile Conduct Crime and Justice, vol. 7,ed. Micharl Tony Problems and Delinquency, and Norval Morris(Chicago: University of Chicago Press, 1986)

وانظر كذلك روبرت ستلمبسون، وجون لوب Crime in Making :Pathways Cambridge, Mass.: Harvard Univer- Points Through Life and Turning sity Press, 1993.

139. هذا ما يفعله كون الأم مراهقة: انظر وليام س كومانور ولاد فيليبس، Universi- The Impact of Income and Family Structure on Delinquency, ty of California- Santa Barbara working paper,1999

139ـ دراســة أخــرى تظهــر أن التــعليم المتــدني للأم : بيــجكو راســانن ومـجـمـوعـة، Maternal Smoking During Pregnancy and Risk of Criminal Behaviour Among Adult Male Offspring in the Northern Finland 1966 Birth Chort,American Journal pf Psychiatry 156(1999),pp.857-863,

139ـ هبطت وفـيـات الأطفـال هبـوطاً دراميـاً: انـظر سـوزان سـورينسـون، ودوغـلاس ويب، وريتـشـارد بيـرك، Legalized Abortion and the Homicide of Young Children: An Empirical Investigation, Analyses of Social Is- sues and Public Policy 2, no.1 (2002), pp 239-256

141ـ دراسات أسترالية كندية: انظر آنينديا سين،

Does Increased Abortion Lead to LoweCrime?Evaluating the Rela- tionship Between Crime Abortion, and Fertility, unpublished manu- script; وانظر آندروليه وجاستن وولفر» Abortion and Crime,AQ: Journal of Contemporary Analysis 72, no. 4 (2000),pp.28-30

141 ـ أكثـر الأجنة المجـهضـة تكون من الإناث: انظر جـون دونوهيـو الثـالث، وجيـفريغـروغر، وستـيفن د. ليفيت، «The Impact of Legalized Abor- tion on Teen Childbearing working University of Chicago paper,2002.

142ـ الإجهاض أسوأ من العبودية: انظر مايكل س. بولسن، Accusing Justice: Jome Variations on the Themes of Robert M. Cov Justice Accused, Journal of Law and Religion 7, no. 33 (1989), pp.33-97.

142ـ الإجهاض «بوصفه الوسيلة الناجعة في منع الجريمة»: انظر أنطوني ف. بوزا، The Police Mystique: An Insider Look at Cops, Crime, and Criminal System(New York: Plenum,1990).

142ـ تسعة ملايين دولار لإنقاذ طائر البوم المرقش: انظر غاردنر م. براون وجيسون ف. شوغرن،

Journal of Economic Economics of the Endangered Species Act, Nerspectives 12, No. 3 (1998), pp. 3-20.

142-31 مليون دولار لمنع تكرار تسرب النفط لإيكسون فالديز: انظر غلين وهاريسون، Assessing Damages for the Exxon Valdez Oil Spill, Working paper, 2004. University of Central Florida

142ـ143 قائمة أسعار أعضاء و أجزاء الجسم: وجرى استخراجها من مجموعة معلومات تعويضات عمال ولاية كونيكتيكت، ص 27، وهي متوافرة في الموقع:

Wcc.state.ct.us/download/acrobat/info-packet.pdf.

5 ـ ما الذي يجعل الوالد كاملاً؟

147 ـ 150 حكمة خبراء الوالدية المتغيرة دائماً: آن هالبرت،

Raising America: Experts, Parents, and a Century of Advice About Children

(New York: Knopf, 2003) is an extremely helpful compendium of parenting advice.

148ـ تحذير غاري إيزو من «إستراتيجية إدارة الطفل» وحرمان النوم:

انظر غاري إيزو وروبرت بكنام، «On Becoming Babywise, Sisters, Ore.: Multnomah,1995),pp. 32 and 53.

148ـ تي لايري برازيلتون والطفل «المتفاعل»: انظر تي بيؤي برازيلتون،

Infants and Mothers: Difference in Development, rev. ed. (New York: Delta/Seymour Lawrence, 1983), p.xxiii

148ـ تحذير إيميت هولت ضد «الدافع الذي لا لزوم له»: إيميت هولت،

New York: Dodd, Mead,1924), p.7 «The Happy Baby»

148ـ البكاء «باعتباره تمرينا للوليد»: إيميت هولت، The Care and Feeding of

Children: A Catechism for the Use of Mothers and Childrens

NurseNew York: Appleton,1894, p. 53.

150ـ149 السلاح أم حوض السباحة؟ انظر ستيفن ليفيت، «Pools More Dan-

Chicago Sun-Times, July 28,2001. gerous than Guns,

153ـ150 بيتر ساندمان ومرض جنون البقر وأخطار أخرى: انظر آماندا هاسر،

Squeaky Clean? Not Even Clos New York Time, January 28

2004; an The Peter Sandman Risk Communication Web Site

At http//www. psandman.com/index.htm.

156ـ153 إلى أي حد يكون الوالدان مهمين؟ انظر جوديث ريتش هاريس،

The Nurture Assumption:Way Children Turn Out the Way

They Do New York:

Free Press 1998 وللاطلاع على رأي هاريس الذي يعطي مراجعة ممتازة

لنقاش الإرضاع الطبيعي، انظر مالكولم غلادويل، ?Do Parents Matter،

نيو يوركر، 12 آب 1998؛ وكذلك كارول تافريس، Peer Pressure في

September 13,1998 New York Times Book Review,

155ـ انظر تافريس، نيويورك تايمز.

155ـ يصف بنكر آراء هاريس بأنها mindboggling : ستيفن بنكر،

Sibling Rivalry: Why the Nature/Nurture Debate Wont Go

Boston Globe, October 13,2002, adapted from Steven Pinker, Away,

The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature (New York:

Viking,2003)

157ـ159 اختيار المدرسة في شيكاغو: أخذت هذه المادة من عمل جولي بيري غولين، وبرايان جاكوب، وستيفن د. ليفيت، The Impact of School Choice on Student Outcomes:

Journal of Public An Analysis of Chicago Public Schools, Economics, وكذلك من عمل جولي بيري وبرايان جاكوب وستيفن د.ليفيت، The Effect of School Choice on Student Outcomes: Evidence from

National Bureau of Economic Re- Randomized Lotteri search working paper, 2003.

159ـ الطلاب الذين يصلون إلى المدرسة الثانوية و هم غير مستعدين للدراسة فيها: انظر تمار لوين، More Students Passing Regents, but Achieve- ment Gap Persists, New York Times, March 18, 2004.

159ـ160 متابعة الفجوة بالخل بين السود والبيض حتى الفجوة في نتائج اختبارات الصف الثامن: انظر ديريك نيل ووليام ر. جونسون،

The Role of Pre-Market Factors in Black-White Wage Differ- ences,Journal of Political Economy 104 (1996), pp. 869-895;

وكذلك جون أونيل، The Role of Human Capital in Earnings Dif- ferences Between Black and White Men,

Journal of Economic Perspectives 4, no.(1990), pp 25- 46..

160ـ «إنقاص الفجوة بين نتائج اختبارات السود والبيض»: انظر كريستوفر جينكس وميريديث فيليبس، «Americas Next Achievement Test: Closing the Black-White Test Score Gap American Prospect 40 (September- October 1998), pp. 44-53.

160ـ «الأبيض الناشط»: انظر ديفيد أوستن سميث، ورونالد ج. فغنتق الابن،

The Economics of Acting White, National Bureau of Economic Research working paper,2003.

160ـ كارين عبد الجابر: كارين عبد الجابر وبيتر نوبلر، «Giant Steps (نيويورك: بانتام 1983) ص 16

160ـ175 الفجوة بين نتائج اختبارات السود والبيض و:ECLS تم استخلاص هذه المادة من عمل رولاند ج. فراير الابن، وستيفين د. ليفيت، Understanding the Black-White Test Score Gap in the First Two Years of School,The Review of Economics and Statistics 86, no. 2 (2004), pp. 447-464.

بينما تحتوي هذه الورقة على نقاش مقتضب لعلاقة الترابط فيما بين نتائج الاختبارات والعوامل المنزلية (كمشاهدة التلفاز والضرب... إلخ)، إن تقهقر هذه المعطيات موجود في ملحق الورقة. وأما ما يتعلق بالدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) نفسها، فقد أوجد تقرير شامل عن الدراسة في الموقع: nces.gov/eds

171ـ الآباء الذين يتبنون ويكون معامل الذكاء لديهم أعلى من الأمهات الوالدات: انظر بروس ساسردوت،

National Bureau of «The Nature and Nurture of Economic Outcomes,» Economic Research working paper, 2000.

172ـ معرفة القراءة والكتابة في فنلندة: انظر ليزيت آلفاريز،

Land of Literate Children,New York Educators Flocking to Finland, Times, April 9, 2004.

173ـ كتاب لكل طفل: انظر جون كيلمان، Governor Wants Books for Tots: Chicago Trib- Kids Would Get 60 by Ge 5 in Effort to Boost Literacy une, January 12,2004.

175ـ176 تأثير الآباء الذين يتبنون: انظر ساسردوت،

The Nature and Nurture of Economic Outcomes.

6ـ الوالدية الكاملة، الجزء 2؛

أو هل تصدر الروشاندا الرائحة ذاتها تحت أي اسم آخر؟

179ـ180 قصة الصف الخاسر: وهي مأخوذة من مقابلات المؤلف ومن سين غاردنر، Newsday, Winner and Loser: Names Dont Decide Destiny, July 22, 2002.

180ـ181 القاضي والغاوية: مبنية على مقابلة مع المؤلف

182ـ رولاند ج. فراير ودراسة الإنجاز المتدني للسود: مستخلصة من مقابلات المؤلف.

182ـ الفجوة بين سجائر السود وسجائر البيض: انظر لويد جونستون، وباتريك أومالي، وجيرالد باشمان، وجون شولنبيرج،

Cigarette Brand Preferences Among Adolescents, Monitoring the Future Occasional Paper 45, Institute for SOCIAL Research, University of Michigan, 1999.

180ـ189 أسماء السود (والفروق الأخرى بين ثقافة السود والبيض): انظر رولاند ج. فراير الابن وستيفن د. ليفيت، The Causes and Consequences of Distinctively Black names, Quarterly Journal of Economics 119, no.3 (August 2004), pp.767-805

186ـ السيرة الذاتية للبيض تتفوق على السيرة الذاتية للسود: إن أحدث دراسة تدقيق تتوصل لمثل هذا الاستنتاج هي دراسة ماريان برتراند وسندهل مولينثان، Are Emily and Creg More Employable than Lakisha and Jamal? A Field Experiment

Evidence on Labor Market Discrimination National Bureau of Economic Research working paper,2003

187ـ هذا الاسم YD XING HEYNO AUGUSTUS EISENER ALEXAN WEIER KNUCKLES JEREMI-JENKO CONLEY:

انظر تارا باهرامبور، A Boy Named Yo, Etc.: Name Changes, Both Practical and Fanciful, Are on the Rise, New York Times, September 25, 2003.

187ـ مايكل غولدبيرغ، من السيخ و مولود في الهند: انظر روبرت ف وورث،

Livery Driver Is Wounded in a Shooting, New York Times, February 9, 2004.

188ـ وليام موريس، واسمه بالولادة زيلمان موسز: مقابلة المؤلف مع آلان كانوف، الرئيس التنفيذي السابق لوكالة وليام موريس.

190ـ الأسماء التجارية تستخدم كاسم أول: وهذا الموضوع مستخلص من معطيات من شهادات الميلاد، ومن مناقشة ستيفاني كانغ،

Naming the Baby: Parents Brand Their Tot with Whats Hot,Wall Street Journal, December 26,2003.

190ـ الفتاة المسماة (شيت هيد): المرأة التي هتفت إلى برنامج إذاعي لتخبر رولاند فراير عن ابنة أختها (شيت هيد) وعن احتمال وجود معلومة خطأ أو إنها تكذب. وبغض النظر، تكاد تكون وحدها بهذا الشعور، إن الأسماء السوداء قد تذهب بعيداً في مغالاتها.

وتعرض بيل كوسبي من النقاد البيض والسود على ما جاء في خطابه في أيار 2004 في الذكرى السنوية الخمسين Brown v. Board في آ NAACP انظر باربارا إيهرينريك،

The New Cosby Kids New York Times, July 8, 2004;

فقد شجب السود من ذوي الدخل المتدني بسبب السلوك المدمر المختلف، بما في ذلك إعطاء أسماء من الأقليات المختلفة و(كذلك ديبرا ديكرسون،« Granddad Gets Ornery, Americas Slate, July 13. 2004) وبعد ذلك فوراً وجد ريتشارد رايوردان، وزير التربية في كاليفورنيا . وكان المحافظ الغني والأبيض السابق لمدينة لوس أنجلوس . نفسه محط هجوم بسبب إدراك خفيف للتمييز العرقي.

انظر تيم راتن، (رايوردان يتعرض للدغة من غوتشا نيوز Los Angeles Times July, 13. 2004 وبينما كان رايوردان يقوم بزيارة إلى مكتبة سانتا باربرا؛ ليروج لبرنامج قراءة، قابل فتاة عمرها ست سنوات اسمها إيزيس. وقالت إلى رايوردان: إن اسمها يعني «أميرة مصرية »؛ فحاول رايوردان أن يمازحها، فأخبرها، «أنه يعني فتاة غبية وقذرة». فالغضب الناتج جعل الناشطين من السود يطالبون باستقالة رايوردان. وشرح ميرفين ديمالي، وهو عضو مجلس تشريعي أسود من كزمبتون، أن إيزيس «كانت فتاة صغيرة إفريقية ـ أمريكية. هل كان يفعل ذلك لفتاة بيضاء؟».

لكن تبين أن إيزيس كانت فتاة بيضاء. وأحب بعض الناشطين أن يحافظوا على الحملة المعادية لرايوردان حامية، لكن والدة إيزيس، ترينتي، شجعت الجميع على التهدئة. فشرحت أن ابنتها لم تأخذ مزاح رايوردان على مأخذ الجد. وقالت الأم: «لقد تكوّن عندي انطباع بأن ابنتها لم تعتقد أنه كان ذكياً جداً».

190ـ آرانجيلو وليمونجيلو: مع أن هذين الاسمين فيهما نكهة الأسطورة المدنية . فقد لقيا نقاشاً طويلاً على مختلف مواقع الإنترنت تنفي عنهما هذه الصبغة المدنية . وعلم المؤلفان بوجود هذين الطفلين من دوغ ماك آدم، وهو عالم اجتماع في جامعة ستانفورد، الذي أقسم بأنه قابل التوءمين في دكان بقالة.

190ـ قائمة أطول كثيراً تضم أسماء البنات والأولاد. وهنا مجموعة أسماء مهمة وجميلة وشائعة وهي أساسية، ومعها مستوى التعليم الذي تبينه. (كل اسم يتكرر عشر مرات على الأقل في معطيات أسماء كاليفورنيا).

199ـ أكثر أسماء البنات البيضاوات شهرة في سنة 1960 و2000: فقد بدأت معطيات الأسماء في كاليفورنيا في سنة 1961، ولكن يهمل الفرق من سنة إلى أخرى.

202ـ شيرلي تيمبل بصفته عارضاً وليس سبباً: انظر ستانلي ليبرسون،

Matter of Taste: How Names, Fashions, and Culture Changes New Haven, Conn. Yale University Press, 2000

عالم اجتماع من هارفارد، ليبرسون هو أستاذ معترف به للدراسة الأكاديمية للأسماء من (بين مواد أخرى). فعلى سبيل المثال يقدم كتاب Matter of A Taste بالتفصيل كيف جعلت العائلات اليهودية الأمريكية أولاً كثيراً من أسماء البنات مشهورة (مثل آمي، دانييل، إيريكا، جينيفر، جيسيكا، ميليسا، راشيل، ريبيكا، شِقش، ستيسي، ستيفاني، تريسي) بينما بدأت مجموعة صغيرة (آشلي، وكيلي، وكمبرلي) في عائلات غير يهودية، ويوجد نقاش جيد آخر حول عادات التسمية في بيغي أورستاين، Where Have All the Lisas Gone? في مجلة نيويورك 6 تموز 2003؛ وإن كان لمجرد التسلية، انظر The Sweetest Sound (2001) وفيلم آلان بيرلنغر الوثائقي حول الأسماء.

202ـ أسماء الأولاد تصبح أسماء للبنات (ولكن العكس ليس صحيحاً)؛ وجاءت هذه الملاحظة من عمل كليفلاند كينت إيفانز، و هو عالم نفس ولفظ في جامعة بيلفو في بيلفو في نبراسكا. توجد عينة من عمله الأكاديمي هذا على الموقع: Bellevue.edu/-CKEvans/cevans.html; وانظر أيضاً كليفلاند كينت إيفانز، Unusual & Most Popular Baby Names

(Lincolnwood,Ill.: Publications International/Plume,1997.

الخاتمة : طريقان إلى هارفارد

206_207 الولد الأبيض الذي عاش خارج شيكاغو: أخذ هذا المقطع والمقطع حول الولد نفسه في الصفحة، 155_156 من مقابلات المؤلف ومن تيد كاسينزكي،Truth Versus Lies، مسودة غير منشورة، 1998؛ انظر أيضاًأستيفن ج. دوبنر،I Dont Want to to Live Long, I Would Rather Get The Death Penalty than Spend the Rest of My Life in Prison, Time , October 18,1999.

206_207 الولد الأسود من دايتون بيتش: أخذ هذا المقطع وكذلك المقطع السابق حول الولد نفسه في الصفحة 156 من مقابلات المؤلف مع رولاند ج. فراير الابن.

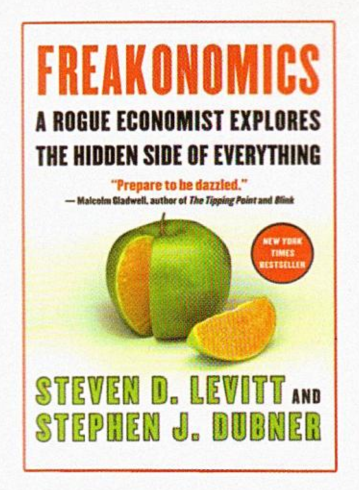
إقرار بالفضل

نود أن نشكر معاً شخصين ساعدانا في تحضير هذا الكتاب: وهما كلير واتشيل من وليام مورو، وسوزان غلوك من وكالة وليام موريس. وهذا هو الكتاب الثالث الذي كتبه ستيفن ج. دوبنر تحت رعايتهما؛ ولايزال يشعر بالامتنان لهما ويعتريه في بعض الأحيان شعور بالهول والخشوع.

وكان هذا هو الكتاب الأول بالنسبة لستيفن ليفيت؛ وكان لديه الانطباع ذاته. والشكر الجزيل إلى الأصدقاء والزملاء الموهوبين والمؤيدين من جميع الميادين. وهم: مايكل موريسون، وكاثي هيمينغ وليزا غالفر، وديبي ستير، ودي دي دوبارتلو، وجورج بيك، وبرايان ماك شاري، جينيفر بولي، وكيفن كالاهان، وترينت دافي، وآخرون من وليام مورو؛ وتريسي فيشر، وكارين جيروين، وإيرين مالون، وكانديس فين، وآندي ماك نيكول، وآخرون من وكالة وليام موريس. ونود أن نشكرالمواضيع المتنوعة في هذا الكتاب (لاسيما ستيتسون كينيدي، وبول فيلدمان، وسودير فينكاتيش، ورولاند فراير) على ما بذلوه من وقت وجهد. والشكر أيضاً لأصدقائنا وزملائنا الذين ساعدونا في تطوير وتحسين المسودة، ومنهم ميلاني ثيرنستورم، وليزا تشيز، وكولين كراميرار. والشكر إلى ليندا جاينز التي ابتكرت العنوان بصورة جيدة.

إقرار شخصي بالفضل

إنني مدين جداً إلى المشاركين بالتأليف والزملاء الذين ملأت أفكارهم هذا الكتاب، وإلى كل الناس الطيبين الذين شغلوا أوقاتهم بتعليمي كل ما أعرفه حول الاقتصاد والحياة. وأنا ممتن بصورة خاصة إلى جامعة شيكاغو، التي تؤمن مبادرتها في نظرية أسعار شيكاغو لي مكاناً مثالياً للبحث؛ وكذلك مؤسسة بار الأمريكية على مشاركتها ودعمها. وإلى زوجتي جانيت وأطفالنا آماندا وأوليفيا ونيكولاس وسوفي الذين يجعلون أيامنا فرحاً وسروراً مع أننا نفتقد آندرو كثيراً. وأشكر والدي اللذين جعلاني أرى أنه لابأس أن أكون مختلفاً. أحب أن أشكر صديقي الحميم و شريك التأليف أكثر من سواه وهو ستيفن دوبنر وهو كاتب ألمعي وعبقري مبدع. س.د. ل. ولايزال يترتب علي أن أكتب لم تتكون براعمه، أو على الأقل، لم يصل إلى صفحات مجلة نيويورك تايم. ولايشكل هذا أي استثناء. أشكر على ذلك هوغو ليندغرين، وآدم موس، وجيري مارزوراتي؛ وأشكر أيضاً ثقش تيتونيك، وبول تاف على دعوتهما رجل الأرغفة إلى صفحات المجلة. وأنا ممتن جداً إلى ستيفن ليفيت، وهو الذي جعلني بذكائه وحكمته أرغب ـ بطريقة ماـ أن أصبح رجل اقتصاد. والآن عرفت السبب في أن نصف أحلام المهنة، وهو أن يكون لهم مكتب ملاصق لمكتب ليفيت. وبالختام، كما هي العادة، جزيل شكري وحبي إلى إيلين وسولومون وآنيا، ألقاكم وقت العشاء..

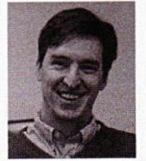


أيهما أشد خطراً، المسدس أم حوض السباحة؟ ما هي الأشياء المشتركة بين معلمي المدارس ومصارعي السومو؟ لماذا ما يزال تجار المخدرات يعيشون مع أمهاتهم؟ ما هو مقدار اهتمام الوالدين حقاً؟ ما هو تأثير قضية «رو» و«ويد» في جرائم العنف؟

قد لا تبدو هذه الأسئلة مثل الأسئلة النمطية التي يسألها الاقتصادي، لكن ستيفن د. ليفيت ليس اقتصادياً نمطياً؛ إنه عالم شجاع أكثر من أي شيء آخر، يدرس المادة والأحاجي في الحياة اليومية - من الغش والجريمة إلى الرياضة وتربية الأطفال - وتقوم استنتاجاته عادة على قلب الحكمة التقليدية رأساً على عقب. وغالباً ما يبدأ بتل كبير من المعطيات وبسؤال بسيط لم يطرح من قبل. إنه يهتم ببعض هذه الأسئلة مثل قضايا الحياة والموت، وبعضها الآخر ذو ميزات استثنائية دون شك. وهكذا يحتوي هذا الكتاب على حقل جديد من الدراسة، وهو (الاقتصاد العجيب).

ومن خلال سرده للقصص الآسرة ومن النظرة العميقة غير المباشرة، يبين ليفيت وزميله ستيفن ج. دوبنر أن الاقتصاد -في جذوره- دراسة للحوافز - كيف يحصل الناس على ما يريدون أو يحتاجون، لاسيما عندما يريد الناس الآخرون الشيء ذاته أو يحتاجونه. في كتابهما (الاقتصاد العجيب)، يشرع المؤلفان في استكشاف الجانب الخفي - من كل شيء؛ الأعمال الداخلية لعصابة مخدرات، وحقيقة الوسطاء العقاريين، وأساطير تمويل الحملات. وقصص الغش لدى معلمي المدارس. وأسرار جمعية كوكلوكس كلان (العرقية).

ومن هنا فإذا كانت الأخلاق تمثل كيف نريد للعالم أن يسير، فإن الاقتصاد يمثل كيف يعمل العالم فعلاً. صحيح إن قراء هذا الكتاب سيتسلحون بقصص وأحاج تكفي لتروى في آلاف الحفلات، لكن كتاب (الاقتصاد العجيب) يستطيع أن يقدم أكثر من ذلك، إنه يُعيد تعريف الطريقة التي ننظر بها إلى العالم الحديث تعريفاً حرفياً.



ستيفن د. ليفيت: يدرِّس الاقتصاد في جامعة شيكاغو؛ تلقى مؤخراً ميدالية جون بيتس كلارك، وهي الميدالية التي تقدم كل سنتين إلى أفضل رجل اقتصاد أمريكي لا يتجاوز الأربعين من عمره.



ستيفن ج. دوبنر: يعيش في مدينة نيويورك؛ ويكتب لمجلة نيويورك تايمز وكذلك نيو يوركر؛ وهو مؤلف للكتاب الأكثر مبيعاً على المستوى الوطني، (نفوس مضطربة واعترافات بطل متعبد).

ISBN:978-9960-54-393-2



ORD:000336-1



موضوع الكتاب: ١- الاقتصاد

٢- النظم الاقتصادي

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com